البخلاء

البخلاء

لأبي عثمان الجاحظ

اسم الكتاب: البخلاء.

تأليف: أبو عثمان الجاحظ.

سنة الطباعة: 2017.

عدد النسخ: 1000 نسخة.

الترقيم الدولي: ISBN 978-9933-22-020-4

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: 0096311 5627060

هاتف:0096311 5637060

تلفاكس: 0096311 5632860

ص. ب: 259 جرمانا

WWW.DARRISLN.COM

مقدمة الناشر

إن كتاباً ككتاب (البخلاء) للجاحظ يعد بحق تحفة فريدة من تحف الحضارة العربية و الإسلامية و لكن قد يتسائل البعض: ما فائدة نشر كتب التراث في هذا الوقت؟ أليس ما يشغلنا من قضايا معاصرة هو أولى بالاهتمام؟

ثم قد لا يلاقي هذا النوع من الكتب الهوى حتى عند المهتمين بالتراث، فعلى الأغلب ينظر هؤلاء إلى التراث من منظار ديني أو مذهبي أو غيره، فلا يواتي هواهم كاتب كالجاحظ ترفع عن صغائر الخلافات المذهبية و القومية و الدينية.

لكن نظرة متعمقة تكشف لنا الأهمية المتزايدة لهذا الكتاب، في وقت طغت نظرة أحادية ضيقة ومتزمتة لتقديم التراث العربي و الإسلامي.

بداية لغة الكتاب قوية متينة، واضحة بليغة، وتندر لغة في العالم تستطيع أن تقرأ عملاً كتب بها قبل أكثر من ألف و مئتي سنة فتكاد تفهم كل كلمة، بل و كل تعبير، وتتفاعل مع مواضع السخرية المبطنة و تبتسم في كثير من المواقع.

فلا يخفى على أحد أن الإنكليز لا يستطيعون قراءة أدب شكسبير باللغة التي كتب بها، حيث يحتاجون إلى ترجمات معاصرة لفهم أعمال شكسبير رغم أن الفترة الفاصلة بين عصر شكسبير و عصرنا الحاضر لا تتجاوز خمسمئة عام. و هنا لا يسعنا سوى الإعجاب بهذه اللغة الحية، اللغة العربية، و التي امتازت بقوة جعلتها جديرة بالاستمرار إلى يومنا.

كما يتضح من صفحات الكتاب أن الحضارة العربية لم تمتاز بالشوفينية

يوماً بل كانت على الدوام إطاراً جامعاً لمختلف القوميات و الشعوب، و في هذا الإطار امتاز العصر العباسي و الذي عاش فيه الجاحظ بتلاقح كبير بين الشعوب الشرقية و على رأسهم الفرس و بين العرب، فدخل التراث الفارسي في صلب الحياة الثقافية العربية مغنياً إياها و مغتنياً بها، حتى أن أكثر القصص التي ساقها الجاحظ هي عن إناس من مقاطعات بلاد فارس و خاصة مرو و خرسان و غيرها ممن درج العامة على التندر ببخل سكانها.

كما و ذكرت الكثير من القوميات بين دفتي الكتاب من ترك و ديلم و أكراد و سريان و هنود فضلاً عن العرب.

امتاز الكتاب بتوضيح جوانب التنوع و الثراء في الثقافة العربية في عصورها العباسية الزاهية، حيث دمجت الحضارة الجديدة كافة أوجه الحضارات السابقة، فتلاحظ أن بلاد الشام، تدعى سوريا عندما ذكرت (الرحى السورية) و هي من المنتجات المشهورة لهذه البلاد، و كان الاسم العربي لسوريا بلاد الشام مما يعني أن الثقافة العربية حينها كانت جامعةً متنوعة و ليست إقصائية سواء للتسميات أو الأفكار.

من الأمور اللافتة للنظر في الكتاب كونه يكاد لا توجد صفحة تخلو من ذكر الخمر، سواء بأنواعه أو بطقوسه أو نوادره، و هنا يجب أن نؤكد على أهمية إعادة فهم تاريخنا العربي و الإسلامي، و فهم أن كثيراً من القضايا المتزمتة في الدين، بل و حتى من الأمور التي يظن على صعيد واسع أنها من أساسيات الدين الإسلامي، و هي في الواقع ليست سوى اجتهادات لبعض الخلافاء أو الفقهاء، و دليلنا على ذلك أن عامة المسلمين في ذلك العصر القريب جداً من عصر النبوة لم يأخذوا بها، بل ترسخت هذه

القناعات لاحقاً في عصور التخلف و الانحطاط.
اتصف الكتاب بدقة توصيف خبايا الظواهر الاجتماعية، فالعلاقة بين مستأجر العقار و المؤجر بما تتضمنه من عدم ثقة و اتهامات مبطنة ما زالت نفسها، فعندما نقرأ هذا الخبر المنقول عن الكندي في كتاب الجاحظ فكأننا نسقطه على شخصيات معاصرة ، كذلك برع الجاحظ في وصف أساليب الشحادين و ما يبتكرون من حيل و أساليب تثير الشفقة و العطف عليهم، فإذ بكثير من هذه الأساليب ما زالت موجودة لدى شحادي زماننا الحاضر.
و في هذا الإطار يبرع الجاحظ في وصف خبايا النفس الإنسانية، و هو ما عُدَّ علامة فارقة في أدب المعاصرين العظماء كدوستويفسكي الذي برع في التحليل النفسي لشخصيات أبطاله، فإذ بنا نجد الجاحظ سبّاقاً إلى ذلك، فها هو يظهر أن الكرام و الباذخين في زمانه لم يسلموا من النقد مهما بلغ جودهم و كان منتقدوهم أكثر من مادحيهم.
لم ينظر الجاحظ إلى البخل نظرة ضيقة و بيّن أن كثير من ما يسمى البخل قد يدخل في باب الاقتصاد، و حسن التدبير، و صلاح أحوال الرعية، و تجلى ذلك بشكل خاص في قصة مريم الصنّاع، و في الأحاديث الكثيرة التي ذكرت عن الخليفة عمر بن الخطاب و آله.

رسلان علاء الدين

الجاحظ

775 – 868 م / 159 – 255 هـ

حياته و عصره

ولد أبو عثمان الجاحظ في البصرة وكانت حينذاك مع الكوفة حاضرة العلم والثقافة، ونشأ فقيراً حيث كان يبيع الخبز والسمك على ضفاف نهر سيحان، وهذا العمل سهل له العيش الكريم وطلب العلم ومخالطة العلماء والأدباء واكتراء حوانيت الورَّاقين لأجل المطالعة. وفي عهد المأمون قصد مدينة بغداد سنة 204 هـ وأقام فيها، فكان مقصد العلماء والأدباء، وعمت شهرته الأفاق وأُعجب به الخليفة المأمون فاستدعاه وصدَّره ديوان الرسائل الذي تركه بسرعة.

تميَّز عصر الجاحظ بالخصب وحرية الفكر واتساع الآفاق أمام العلم، ونشط الفكر الفلسفي، فظهرت المذاهب الفكرية المتعددة كالزندقة، والمدارس العقلية كالمعتزلة، ونشطت المناظرات الفكرية والفقهية وخاصة في زمن المأمون.

وقد انعكس هذا النهوض الفكري في شخصية الجاحظ، فكان خير من تمثَّل علوم عصره، فاعتمد على العقل في مسائل العلم والتزم بتعاليم المعتزلة والحرية العقلية في مسائل الدين، كما أنه تحرر من القيود في مسائل الأدب.

هذه الحرية الفكرية كان لها آثارها الكبيرة على كافة مناحي ذاك العصر، فتعددت الفرق الفكرية ونهضت شتى العلوم وطال التجديد كل وجوه الحياة. فاتسمت تلك الفترة بالتمازج الحضاري بين الشعوب، والاطلاع على الثقافات المتعددة وانتشرت الترجمة.

إذن.. هذا هو العصر الذي عاش فيه الجاحظ، فكان سهلاً عليه الاتصال بشتى الثقافات دون صعوبة، وكان همّه البحث عن الحقائق ودحض الأباطيل والترهات التي يطلقها خصوم العربية، فعانى الكثير من الطعن والتجريح والتشهير منهم.

لقِّب بالجاحظ لجحوظ عينيه، وبالحدقي لنتوء حدقتيه، فشبه بسقراط بشاعة ودمامة، حتى ضرب به المثل. فقال مخلد بن علي السلامي في هجاء إبراهيم بن المدبر:

رأيتك لا تحب الود إلا ... إذا هو كان من عصب وجلد

أراني الله وجهك جاحظياً ... وعينك عين بشار بن برد

وقال بعض خصوم المعتزلة يهجو الجاحظ:

لو يُمسخ الخنزير مسخاً ثانياً ... ما كان إلا دون قبح الجاحظ

إلا أن بشاعته وقبحه قد عوّض عنهما بخفة الروح وصفاء الطبع وحسن المعاشرة ولطف الدعابة، وتميَّز بنفس تحب الجمال وتميل إلى اللهو والاستمتاع حتى المجانة أحياناً، فيطرب لسماع الأغاني ومجالس القيان، ولكنه لم يتزوج ولم ينشغل بالأولاد.

والجاحظ التركي الأصل يدافع عن العرب ويرد على الدعوات الشعوبية، وخاصة في كتابه (البيان والتبيين) الذي قدّمه إلى القاضي أحمد بن داؤود وهو عربي أصيل. ويتقرب أحياناً من الأعاجم حيث قدَّم إلى الفتح بن خاقان التركي كتابه في مناقب الأتراك.

يعتبر الجاحظ من أكثر الكتاب إنتاجاً، إذ تجاوز عدد كتبه المئة كتاب اتسعت لمعارف عصره وألمت بأضخم تراث يستطيع القيام به أديب أو مفكر. فيحق لنا أن نطلق على هذا الإنتاج مصطلح دائرة معارف عصره. إذ

احتوت على الأدب والشعر والعقائد والديانات والمذاهب الفلسفية والنبوة، وفيها أبحاث في السياسة والاقتصاد والطبائع والأخلاق واللصوص وذوي العاهات.

إن حياة هذا الأديب هي تاريخ قرن كامل حافل بالإبداع، لأن هذا القرن يعتبر العصر الذهبي للدولة العباسية، فقد عاصر الجاحظ اثني عشر خليفة، وشهد الصراعات السياسية على الخلافة وبروز الدور الفارسي وتسلطه على الدولة العربية، وسيطرة الأتراك في زمن المعتصم. ومن جهة أخرى عاش في أتون الصراعات الفكرية فانصهر كل ذلك في ذاته المتألقة فحصل على ثقافة متميزة تعبِّر عن تمثله لثقافة عصره الذي أعطاه أكثر مما أخذ منه وقدّم الشيء الكثير الذي نفتخر به لمكتبتنا التراثية العربية.

عاش الجاحظ 96 عاماً، وقد اشتكى من كبر سنه عندما ذكر مرضه إذ قال: وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها.

وأخيراً.. إن كتاب البخلاء ليس مجرد حكايات ونوادر تفرح النفس، بل هو غوص في أعماق النفس البشرية، بحثاً عن كوامنها الغامضة، ومحاولة من الجاحظ لتحليل هذا النوع من السلوك الإنساني، وإن كانت هذه المحاولة بعيدة عن التحليل النفسي الحديث الذي أصبح علماً عميق الجذور قوي الأدوات.

ويمكننا أن نقول: إن الجاحظ منارة كبيرة في تاريخنا الأدبي ألقت بضوئها على أهل القلم في عصره واستمر تأثيرها إلى أيامنا هذه.

صالح جادالله شقير

بسم الله الرحمن الرحيم

تولاك الله بحفظه وأعانك على شكره، ووفقك لطاعته، وجعلك من الفائزين برحمته.

ذكرتَ –حفظك الله– أنك قرأتَ كتابي في تصنيف حِيَل لصوص النهار، وفي تفصيل حِيَل سُراق الليل[1]، وأنك سددت به كل خللٍ، وحصنتَ به كل عورة، وتقدمت بما أفادك من لطائف الخُدع، ونبهّك عليه من غرائب الحيل، فيما عسى ألا يبلغه كيد ولا يجوزه مكر.

وذكرتَ أن قدر نفعه عظيم، وأن التقدم في درسه واجب.

وقلتَ: اذكر لي نوادر البخلاء واحتجاج الأشحاء، وما يجوز من ذلك في باب الهزل، وما يجوز منه في باب الجد، لأجعل الهزل مستراحاً والراحة جماماً[2]، فإن للجد كداً يمنع من معاودته، ولا بد لمن التمس نفعه من مراجعته.

وذكرت ملح الحزامي[3]، واحتجاج الكندي[4]، ورسالة سهل بن هارون[5] وكلام ابن غزوان، وخطبة الحارثي[6] وكل ما حضرني من أعاجيبهم وأعاجيب غيرهم، ولِمَ سمّوا البخل إصلاحاً والشح اقتصاداً، ولِمَ

(1) حيل اللصوص: كتاب الجاحظ ضاع ولم يبق سوى اسمه.

(2) الجمام: الراحة.

(3) الحزامي: هو أبو محمد عبد الله بن كاسب أحد بخلاء الجاحظ.

(4) الكندي: هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي الفيلسوف العربي المشهور، وكان مرمياً بالبخل.

(5) سهل بن هارون: هو أبو عمرو سهل بن هارون أحد الكتاب البلغاء الذين عاصروا الجاحظ وله كتاب في البخل.

(6) ابن غزوان والحارثي هما ممن ذكر الجاحظ في بخلائه.

حاموا على المنع ونسبوه إلى الحزم، ولِمَ نصبوا للمواساة[1] وقرنوها بالتضييع، ولِمَ جعلوا الجود سَرَفاً والأثرة[2] جهلاً، ولِمَ زهدوا في الحمد وقلَّ احتفالهم[3] بالذم، ولِمَ استضعفوا من هش[4] للذكر وارتاح للبذل، ولم حكموا بالقوة لمن لا يميل إلى ثناء ولا ينحرف عن هجاء، ولم احتجوا لظلف[5] العيش على لينه، ولمرِّه على حلوه، ولِمَ لم يستحيوا من رفض الطيبات في رحالهم مع استهتارهم بها في رحال غيرهم، ولِمَ تتابعوا في البخل[6]، ولِمَ اختاروا ما يوجب ذلك الاسم مع أنفتهم من ذلك الاسم، ولِمَ رغبوا في الكسب مع وهدهم في الإنفاق، ولِمَ عملوا في الغنى عمل الخائف من زوال الغنى، ولَمْ يفعلوا في الغنى عمل الراجي لدوام الغنى، ولِمَ وفَّروا نصيب الخوف وبخسوا نصيب الرجاء مع طول السلامة وشمول العافية، والمعافى أكثر من المبتلى، وليست الفوائد أقل من الجوائح[7].

بل كيف يدعو إلى السعادة من خص نفسه بالشقوة، فكيف ينتحل نصيحة العامة من بدأ يغش الخاصة.

ولِمَ احتجوا مع شدة عقولهم لما أجمعت الأمة على تقبيحه، ولِمَ فخروا مع اتساع معرفتهم بما أطبقوا على تهجينه[8]، وكيف يفطن عند الاعتلال له ويتغلغل عند الاحتجاج عنه إلى الغايات البعيدة والمعاني اللطيفة، ولا يفطن

---

(1) نصبوا: عادوا، أي لم يواسوا الفقراء.

(2) الأثرة: الفعل الحميد.

(3) احتفالهم: اهتمامهم.

(4) هش: فرح.

(5) ظلف العيش: خشونته.

(6) تتابعوا: تهافتوا عليه، أقبلوا عليه.

(7) الجوائح: مفردها: جائحة وهي الداهية، والمصيبة.

(8) تهجينه: تقبيحه.

لظاهر قبحه وشناعة اسمه وخمول ذكره وسوء أثره على أهله، وكيف وهو الذي يجمع له بين الكد وقلة المرزئة(1) وبين السهر وخشونة المضجع وبين طول الاغتراب وطول قلة الانتفاع، ومع علمه بأن وارثه أعدى له من عدوه، وأنه أحق بماله من وليه. أو ليس هو أظهر الجهل والغباوة وانتحل الغفلة والحماقة، ثم احتج لذلك بالمعاني الشداد وبالألفاظ الحسان وجودة الاختصار وبتقريب المعنى، وبسهولة المخرج، وإصابة الموضع، فكان ما ظهر من معانيه وبيانه مكذباً لما ظهر من جهله ونقصانه، ولِمَ جاز أن يبصر بعقله البعيد الغامض ويغبى عن القريب الجليل؟!

وقلتَ: فبيّن لي ما الشيء الذي خبَّل عقولهم، وأفسد أذهانهم، وأغشى تلك الأبصار، ونقض ذلك الاعتدال، وما الشيء الذي له عاندوا الحق وخالفوا الأمم(2)، وما هذا التركيب المتضاد والمزاج المتنافي، وما هذا الغباء الشديد الذي جنبه فطنة عجيبة، وما هذا السبب الذي خفي به الجليل الواضح وأدرك به الجليل الغامض.

وقلتَ: وليس عجبي ممن خلع عذاره في البخل، وأبدى صفحته للذم ولم يرض من القول إلا بمقارعة الخصم، ولا من الاحتجاج إلا بما رسم في الكتب، ولا عجبي من مغلوب على عقله مسخر لإظهار عيبه، كعجبي ممن قد فطن لبخله وعرف إفراط شحه، وهو في ذلك يجاهد نفسه ويغالب طبعه، ولربما ظن أن قد فطن له وعرف ما عنده، فموَّه شيئاً لا يقبل التمويه، ورقع خرقاً لا يقبل الرقع، فلو أنه كما فطن لعيبه، وفطن لمن فطن لعيبه، فطن

---

(1) المرزئة: الحصول على المال.

(2) الأمم: القصد.

لضعفه عن علاج نفسه وعن تقويم أخلاطه[1]، وعن استرجاع ما سلف من عاداته وعن قلبه أخلاقه المدخولة[2] إلى أن تعود سليمة، لترك تكلف ما لا يستطيعه، ولريح الإنفاق على من يذمه، ولما وضع على نفسه الرقباء، ولا أحضر مائدته الشعراء، ولا خالط بُرد[3] الآفاق ولا لابس الموكلين بالأخبار، ولاستراح من كد الكلفة، ودخل في غمار الأمة.

وبعد فما باله يفطن لعيوب الناس إذا أطعموه، ولا يفطن لعيب نفسه إذا أطعمهم، وإن كان عيبه مكشوفاً وعيب من أطعمه مستوراً. ولم سخت نفس أحدهم بالكثير من التبر[4]، وشحت بالقليل من الطعم[5]، وقد علم أن الذي منعَ يسير في جنب ما بذل، وأنه لو شاء أن يحصل بالقليل مما جاد به أضعاف ما بخل به، وكان ذلك عتيداً[6] ويسيراً موجوداً.

وقلتَ: ولا بد من أن تعرِّفني الهنات[7] التي نمّت على المتكلفين، ودلت على حقائق المتموهين، وهتكت عز أستار الأدعياء، وفرقت بين الحقيقية والرياء، وفصلت بين المقهور المنزجر والمطبوع المبتهل[8]، لتقف، زعمتَ، عندها ولتعرض نفسك عليها، ولتتوهم مواقعها وعواقبها، فإن نبهك التصفح لها على عيب قد أغفلته، عرفت مكانه فاجتنبته، فإن كان عتيداً ظاهراً معروفاً عندك نظرت، فإن كان احتمالك فاضلاً عن بخلك، دمت على

(1) الأخلاط: الأمزجة، والمراد هنا الأمزجة الأربعة التي هي قوام مزاج الإنسان وهي: الدم والبلغم والصفراء والسوداء.
(2) المدخولة: الفاسدة.
(3) برد: مفردها بريد وهو: الرسول.
(4) التبر: الذهب.
(5) الطعم: ما يشتهى من الطعام.
(6) عتيد: حاضر.
(7) الهنات: مفردها هنة وهي خصلة شر.
(8) المبتهل: المتضرع إلى الله.

إطعامهم وعلى اكتساب المحبة بمؤاكلتهم، وإن كان اكتراثك غامر الاجتهاد، سترت على نفسك وانفردت بطيب زادك، ودخلتَ مع الغمار، وعشتَ عيش المستورين، وإن كانت الحروب بينك وبين طباعك سجالاً[1] وكانت أسبابكما أمثالاً وأشكالاً، أجبت الحزم إلى ترك التعرض، وأجبتَ الاحتياط إلى رفض التكلف، ورأيتَ أن من حصل السلامة من الذم فقد غنم، وأن من آثر[2] الثقة على التغرير[3] فقد حزم[4].

وذكرت أنك إلى معرفة هذا الباب أحوج، وأن ذا المروءة إلى هذا العلم أفقر، وإني وإن حصّنتُ من الذم عرضك بعد أن حصنتُ من اللصوص مالك، فقد بلغتُ لك ما لم يبلغه أب بار ولا أم رؤوم[5].

وسألت أن أكتب لك علة خباب[6] في نفي الغيرة، وأن بذل الزوجة داخل باب المواساة والأثرة، وأن فرج الأمة في العارية كحكم الخدمة، وأن الزوجة في كثير من معانيها كالأمة، وأن الأمة مال كالذهب والفضة، وأن الرجل أحق ببنته من الغريب وأولى بأخته من البعيد، وأن البعيد أحق بالغيرة والقريب أولى بالأنفة، وأن الاستزادة في النسل كالاستزادة في الحرث، إلا أن العادة هي التي أوحشت منه والديانة هي التي حرمته، ولأن الناس يتزيدون أيضاً في استعظامه وينتحلون أكثر مما عندهم في استشناعه.

وعلة (الجهجاه)[7] في تحسين الكذب في مواضع، وفي تقبيح الصدق في مواضع، وفي إلحاق الكذب بمرتبة الصدق، وفي حط الصدق إلى

(1) سجالاً: مرة لك ومرة عليك.
(2) آثر: فضل.
(3) التغرير: التعرض للخطر.
(4) حزم: أحكم أمره وضبطه.
(5) رؤوم: عطوف.
(6) خباب: يبدو أنه من أتباع المذهب المزدكي، كما يصفه الجاحظ، وهذا المذهب يؤمن باشتراكية المال والنساء.
(7) الجهجاه: أحد الذين يناصرون الكذب.

موضع الكذب، وأن الناس يظلمون الكذب بتناسي مناقبه[1] وتذكر مثالبه[2]، ويحابون[3] الصدق بتذكر منافعه وبتناسي مضاره، وأنهم لو وازنوا بين مرافقهما وعدلوا بين خصالهما، لما فرقوا بينهما هذا التفريق، ولما رأوهما بهذه العيون.

ومذهب (صحصح)[4] في تفضيل النسيان على كثير من الذكر، وأن الغباء في الجملة أنفع من الفطنة في الجملة، وأن عيش البهائم أحسن موقعاً من النفوس من عيش العقلاء، وأنك لو أسمنت بهيمة ورجلاً ذا مروءة، أو امرأة ذات عقل وهمة، وأخرى ذات غباء وغفلة، لكان الشحم إلى البهيمة أسرع، وعن ذات العقل والهمة أبطأ، ولأن العقل مقرون بالحذر والاهتمام، ولأن الغباء مقرون بفراغ البال والأمن، فلذلك البهيمة تقنو[5] شحماً في الأيام اليسيرة ولا تجد ذلك لذي الهمة البعيدة، ومتوقع البلاء في البلاء وإن سلم منه، والغافل في الرجاء إلى أن يدركه البلاء.

ولولا أنك تجد هذه الأبواب وأكثر منها مصورة في كتابي الذي سمّي (كتاب المسائل)[6] لأتيت على كثير منه في هذا الكتاب.

فأما ما سألت من احتجاج الأشحاء ونوادر أحاديث البخلاء، فسأوجدُك ذلك في قصصهم، إن شاء الله تعالى، مفرَّقاً، وفي احتجاجاتهم مجملاً، فهو أجمع لهذا الباب من وصف ما عندي دون ما انتهى إليّ من أخبارهم على وجهها، وعلى أن الكتاب أيضاً يصير أقصر ويصير العار فيه أقل.

---

(1) مناقبه: صفاته الحسنة.

(2) مثالبه: صفاته السيئة، عيوبه.

(3) يحابون: ينحازون إلى.

(4) صحصح: من أنصار كمال الجسد وتفضيله على كمال العقل.

(5) تقنو: تجمع.

(6) كتاب المسائل: أحد كتب الجاحظ وقد ضاع معظمه.

ونبتدئ برسالة (سهل بن هارون) ثم بطرف أهل خراسان لإكثار الناس في أهل خراسان:

ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تبيُّن حجة طريفة، أو تعرُّف حيلة طريفة، أو استفادة نادرة عجيبة. وأنت في ضحك منه إذا شئت.. وفي لهو إذا مللت الجد.

وأنا أزعم أن البكاء صالح للطبائع، ومحمود المغبة[1]، إذا وافق الموضع ولم يجاوز المقدار ولم يعدل عن الجهة، ودليل على الرقة والبعد من القسوة، وربما عُدَّ من الوفاء، وشدة الوجد على الأولياء، وهو من أعظم ما تقرب به العابدون واسترحم به الخائفون. وقال بعض الحكماء لرجل اشتد جزعه من بكاء صبي له: (لا تجزع، فإنه أفتح لجرمه وأصح لبصره). وضرب عامر بن عبد قيس[2] بيده على عينه، فقال: جامدة شاخصة لا تندى. وقيل لصفوان بن محرز[3] عند طول بكائه وتذكر أحزانه: إن طول البكاء يورث العمى!.. فقال: ذلك لها شهادة، فبكى حتى عمي.

وقد مدح بالبكاء ناس كثيرون منهم: يحيى البكّاء، وهيثم البكّاء، وكان صفوان بن محرز يسمى البكّاء.

وإذا كان البكاء، وما دام صاحبه فيه فإنه في بلاء، وربما أعمى البصر وأفسد الدماغ، ودل على السخف، وقضي على صاحبه بالهلع، وشُبّه بالأمة اللكعاء[4]، وبالحدث[5] الضرع[6]، كذلك، فما ظنك بالضحك الذي لا

(1) المغبة: العاقبة.
(2) عامر بن عبد قيس: ممن عرفوا بالزهد من أهل البصرة.
(3) صفوان بن محرز: بصري اشتهر بالزهد والبيان. (ملاحظة: حذفت رسالة سهل بن هارون من هذه النسخة لأسباب فنية).
(4) اللكعاء: اللئيمة.
(5) الحدث: الصبي.
(6) الضرع: الجبان.

يزال صاحبه في غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه. ولو كان الضحك قبيحاً من الضاحك، وقبيحاً من المضحك لما قيل للزهرة والحبرة والحلي والقصر المبني: كأنه يضحك ضحكاً. وقد قال الله، جل ذكره: (وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا)، فوضع الضحك بحذاء الحياة، ووضع البكاء بحذاء الموت، وأنه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح، ولا يمنُّ على خلقه بالنقص. وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيماً ومن مصلحة الطباع كبيراً، وهو شيء في أصل الطباع وفي أساس التركيب؛ لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي، وبه تطيب نفسه، وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذي هو علة سروره ومادة قوته.

ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمى أولادها بالضحاك وببسام وبطلق وبطليق. وقد ضحك النبي صلى الله عليه وسلم، ومزح، وضحك الصالحون ومزحوا.

وإذا مدحوا قالوا: هو ضحوك السن، وبسام العشيات، وهش إلى الضيف، وذو أريحية[1] واهتزاز[2]. وإذا ذموا قالوا: هو عبوس، وهو كالح، وهو قطوب، وهو شتيم المحيا[3]، وهو مكفهر أبداً، وهو كريه، ومقبّض الوجه، وحامض الوجه، وكأنما وجهه بالخل منضوح.

وللضحك موضع وله مقدار، وللمزح موضع وله مقدار، متى جازهما أحد وقصر عنهما أحد، صار الفاضل خطلاً[4] والتقصير نقصاً. فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر، ولم يعيبوا المزح إلا بقدر، ومتى أريد بالمزح النفع،

(1) أريحية: همة لبذل العطاء.
(2) اهتزاز: ارتياح.. اهتز إلى الشيء: ارتاح إليه.
(3) شتيم المحيا: كريه الوجه.
(4) الخطل: الفساد والحمق.

وبالضحك الشيء الذي له جعل الضحك، صار المزح جداً والضحك وقاراً.

وهذا كتاب لا أغرك منه ولا أستر عنك عيبه؛ لأنه لا يجوز أن يكمل لما تريده، ولا يجوز أن يوفّى حقَّه كما ينبغي له، لأن هاهنا أحاديث كثيرة متى أطلعنا منها حرفاً عرف أصحابها، وإن لم نسمهم ولم نرد ذلك بهم. وسواء سميناهم أو ذكرنا ما يدل على أسمائهم، منهم الصديق والولي والمستور والمتجمل. وليس يفي حسن الفائدة لكم بقبح الجناية عليهم، فهذا باب يسقط البتة، ويختل به الكتاب لا محالة. وهو أكثرها باباً وأعجبها منك موقعاً. وأحاديث أُخر ليس لها شهرة ولو شهرت لما كان فيها دليل على أربابها ولا هي مقيدة أصحابها، وليس يتوفر أبداً حسنها إلا بأن يعرف أهلها، وحتى تتصل بمستحقها وبمعادنها واللائقين بها وفي قطع ما بينها وبين عناصرها ومعانيها سقوط نصف الملحة[1] وذهاب شطر النادرة.

ولو أن رجلاً ألزق نادرة بأبي الحارث جمين[2]، والهيثم بن مطهر[3]، وبمزبد[4] وابن أحمر[5]، ثم كانت باردة لجرت على أحسن ما يكون، ولو ولَّد نادرة حارة في نفسها مليحة في معناها، ثم أضافها إلى صالح بن حنين[6] وإلى ابن النوّاء[7] وإلى بعض البغضاء، لعادت باردة، ولصارت فاترة، فإن الفاتر شر من البارد.

وكما أنك لو ولَّدت كلاماً في الزهد وموعظة الناس، ثم قلت: هذا من

---

(1) الملحة: الكلام المليح الحسن.

(2) أبو الحارث جمين: هو أحد المزاحين ومن أصحاب النوادر.

(3) الهيثم بن مطهر: أحد المزاحين، وكان يلقب بالفأفاء.

(4) مزبد: من أصحاب النوادر.

(5) ابن أحمر: من أصحاب النوادر والدعابات.

(6) صالح بن حنين: كان معروفاً بنوادره السخيفة الباردة.

(7) ابن النواء: من أصحاب النوادر الباردة أيضاً.

كلام بكر بن عبد الله المزني[1]، وعامر بن عبد قيس العنبري[2]، ومؤرق العجلي[3] ويزيد الرقاشي[4]، لتضاعف حسنه، ولأحدث له ذلك النسب نضارة ورفعة لم تكن له. ولو قلتَ: قالها أبو كعب الصوفي[5] أو عبد المؤمن[6]، أو أبو نواس الشاعر[7] أو حسين الخليع[8] لما كان لها إلا مالها في نفسها، وبالحري أن تغلط في مقدارها فتبخس من حقها.

وقد كتبنا لك أحاديث كثيرة مضافة إلى أربابها، وأحاديث كثيرة غير مضافة إلى أربابها، إما بالخوف منهم وإما بالإكرام لهم، ولولا أنك سألتني هذا الكتاب لما تكلَّفته، ولما وضعت كلامي موضع الضيم والنقمة، فإن كانت لائمة أو عجز فعليك، وإن كان عذر فلي دونك.

* * *

(1) بكر بن عبد الله المزني: زاهد من أصحاب الحسن البصري، كانوا يقولون: شيخ البصرة الحسن وفتاها بكر وكان نيِّر البصيرة بسبب زهده.

(2) عامر بن عبد قيس العنبري: من أهل الزهد والبيان من أهل البصرة.

(3) مؤرق العجلي: أحد الزهاد من أهل البصرة كان منطوياً على العبادة والنسك.

(4) يزيد الرقاشي: هو يزيد بن أبان الرقاشي: أحد الزهاد الخطباء من أهل البصرة.

(5) و(6) و(7) و(8) أبو كعب الصوفي والآخرون: أصحاب نوادر من طراز آخر.

في أهل خراسان

نبدأ بأهل خراسان، لإكثار الناس في أهل خراسان، ونخص بذلك أهل (مَرْو) بقدر ما خصّوا به.

المَرْوَزِيّ وزوّاره وجلاّسه

قال أصحابنا: يقول المروزي للزائر إذا أتاه، وللجليس إذا طال جلوسه: تغديتَ اليوم؟ فإن قال: نعم، قال: لولا أنك تغديتَ لغديتك بغداء طيب.. وإن قال: لا، قال: لو كنتَ تغديتَ لسقيتك خمسة أقداح. فلا يصير في يده على الوجهين قليل ولا كثير.

ابن أبي كريمة وكوز الخزف

وكنت في منزل ابن أبي كريمة وأصله من مَرْو فرآني أتوضأ من كوز خزف، فقال: سبحان الله!.. تتوضأ بالعذب، والبئر لك معرضة؟ قلت: ليس بعذب، إنما هو من ماء البئر. قال: فتفسد علينا كوزنا بالملوحة. فلم أدر كيف أتخلص منه.

ما بعد الله شيء

وحدثني عمرو بن نُهَيْوِيّ قال: تغديتُ يوماً عند الكندي، فدخل عليه رجل كان له جارا وكان لي صديقاً، فلم يعرض عليه الطعام ونحن نأكل – وكان أبخل مَن خلق الله – قال: فاستحييت منه، فقلت: سبحان الله!.. لو دنوتَ فأصبت معنا مما نأكل. قال: قد والله فعلت. فقال الكندي: ما بعد الله

شيء.. قال عمرو: فَكَتَفَهُ والله كَتْفاً لا يستطيع معه قبضاً ولا بسطاً، وتركه ولو مدَّ يده لكان كافراً أو لكان قد جعل مع الله، جل ذكره، شيئاً.

وليس هذا الحديث لأهل مَرْو، ولكنه من شكل الحديث الأول.

دِيَكَةُ مَرْو تَعَلَّمتِ البخل

وقال ثُمامة: لم أر الديك في بلدة قط إلا وهو لافظ، يأخذ الحبة بمنقاره، ثم يلفظها قدام الدجاجة، إلا دِيَكَة مَرْو، فإني رأيت دَيَكَةَ مَرْو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحَبّ. قال: فعلمت أن بخلهم شيء في طبع البلاد وفي جواهر الماء، فمن ثم عَمَّ جميع حيوانهم.

البخل حتى الصغار

فحدثت بهذا الحديث (أي حديث الديكة) أحمد بن رشيد، فقال: كنت عند شيخ من أهل مرو، وصبي له صغير يلعب بين يديه، فقلت له، إما عابثاً وإما ممتحناً، أطعمني من خبزكم، قال: لا تريده، هو مُرّ. فقلت: فاسقني من مائكم. قال: لا تريده، هو مالح، قلت: هات لي من كذا وكذا. قال: لا تريده، هو كذا وكذا. إلى أن عددت أصنافاً كثيرة، كل ذلك يمنعنيه ويبغضه إليّ. فضحك أبوه وقال: ما ذنبنا؟ هذا من علّمه ما تسمع؟ يعني أن البخل طبع فيهم وفي أعراقهم وطينتهم.

نور المصباح له ثمن

وزعم أصحابنا أن خُراسانية ترافقوا في منزل، وصبروا عن الارتفاق[1] بالمصباح ما أمكن الصبر. ثم إنهم تناهدوا[2] وتخارجوا[3]، وأبى واحد منهم

(1) الارتفاق: الاستغاثة.

(2) تناهدوا: اختلفوا.

(3) تخارجوا: أخرج كل منهم حصته في الشراكة لصاحبه.

أن يعينهم، وأن يدخل في الغرم[1] معهم. فكانوا إذا جاء المصباح شدوا عينيه بمنديل، ولا يزال ولا يزالون كذلك إلى أن يناموا ويطفئوا المصباح، فإذا أطفؤوه أطلقوا عينيه.

كُلٌّ يأكل بمفرده

ورأيتُ أنا حمارةً منهم، زهاء خمسين رجلاً، يتغدون على مباقل[2] بحضرة قرية الأعراب[3]، في طريق الكوفة، وهم حُجّاج. فلم أرَ من جميع الخمسين رجلين يأكلان معاً، وهم في ذلك متقاربون، يحدث بعضهم بعضاً، وهذا الذي رأيته منهم من غريب ما يتفق للناس.

لماذا تحرص على مؤاكلتي؟

حدثني مُوَيْس بن عمران[4] قال: قال رجل منهم لصاحبه وكانا إما متزاملين، وإما مترافقين: لم لا نتطاعم؟ فإن يد الله مع الجماعة، وفي الاجتماع البركة، وما زالوا يقولون: طعام الاثنين يكفي الثلاثة، وطعام الثلاثة يكفي الأربعة. فقال له صاحبه: لولا أعلم أنك آكل مني لأدخلت لك هذا الكلام في باب النصيحة. فلما كان الغد، وأعاد عليه القول، قال له: يا عبد الله معك رغيف ومعي رغيف، ولولا أنك تريد الشر ما كان حرصك على مؤاكلتي. تريد الحديث والمؤانسة؟ أجعل الطبق واحداً، ويكون رغيف كل منا قدام صاحبه. وما أشك أنك إذا أكلت رغيفك ونصف رغيفي ستجده مباركاً. إنما كان ينبغي أن أكون أجده أنا لا أنت.

---

(1) الغرم: الغرامة، النفقة.

(2) مباقل: مفردها مبقلة: أرض مزروعة بالبقول.

(3) قرية الأعراب: يصفها الجاحظ هنا بأنها في طريق الكوفة، ويذكرها ابن رسته في الطريق من واسط إلى سوق الأهواز، بين سماوة ونهر تيرين.

(4) مويس بن عمران: وهو من المعتزلة وكان ثرياً نبيلاً.

المسرجة

وقال خَاقَان بن صُبَيْح[1]: دخلت على رجل من أهل خراسان ليلاً، وإذا هو قد أتانا بمسرجة فيها فتيلة في غاية الدقة، وإذا هو قد ألقى في دهن المسرجة شيئاً من ملح، وقد علق على عمود المنارة عوداً بخيط، وقد حزَّ فيه حتى صار فيه مكان للرباط، فكان المصباح إذا كاد ينطفئ أشخص رأس الفتيلة بذلك. قال: فقلت له: ما بال العود مربوطاً؟ قال: هذا عود قد تشرب الدهن، فإن ضاع ولم يُحفّظ احتجنا إلى واحد عطشان، فإذا كان هذا دأبنا ودأبه ضاع من دهننا في الشهر بقدر كفاية ليلة. قال: فبينا أنا أتعجب في نفسي، وأسأل الله جلَّ ذكره العافية والستر، إذ دخل شيخ من أهل مرو، فنظر إلى العود فقال: يا أبا فلان، فررت من شيء ووقعت في شيء. أما تعلم أن الريح والشمس تأخذان من سائر الأشياء؟ أو ليس قد كان البارحة عند إطفاء السراج أَرْوَى، وهو عند إسراجك الليلة أعطش؟ قد كنت أنا جاهلاً مثلك!.. اربط – عافاك الله – بدل العود إبرة أو مسلة صغيرة. وعلى أن العود والخلال والقصبة ربما تعلقت بها الشعرة من قطن الفتيلة إذا سويناها بها فيشخص لها. وربما كان ذلك سبباً لانطفاء السراج. والحديد أملس، وهو مع ذلك غير نشاف.

قال خاقان: ففي تلك الليلة عرفت فضل أهل خراسان على سائر الناس، وفضل أهل مرو على سائر أهل خراسان.

الشيخ الخراساني ومِسْرَجَة الخزف

قال مُثنّى بن بشير[2]: دخل أبو عبد الله المروزي على شيخ من أهل

---

(1) خاقان بن صبيح: من أصحاب الجاحظ الذين يروي عنهم بعض المشاهدات.

(2) مثنى بن بشير: كان من أصحاب خاقان بن صبيح المتقدم ذكره، ويبدو أنه كان من طبقة التجار الملابسين

خراسان، وإذا هو قد استصبح في مِسْرَجَة خَزف، من هذه الخزفية الخضر، فقال له الشيخ: لا يجيء والله منك من صالح أبداً، عاتبتك في مسارج الحجارة، فأعتبتني بالخزف. أو ما علمت أن الخزف والحجارة يحسوان[1] الدهن حسواً؟ قال: جُعلت فداك!.. دفعتها إلى حريف[2] لي دَهّان، فألقاها في المصفاة شهراً حتى رويت من الدهن رَيّاً لا تحتاج معه أبداً إلى شيء. قال: ليس هذا أريد، هذا دواؤه يسير وقد وقعت عليه. ولكن ما علمت أن موضع النار من المسرجة في طرف الفتيلة لا ينفك من إحراق النار وتجفيفه ونشف ما فيه، ومتى ابتل بالدهن وتسقّاه، عادت النار عليه فأكلته؟ هذا دأبهما. فلو قستَ ما يتشرب ذلك المكان من الدهن، بما يستمده طرف الفتيلة منه لعلمت أن ذلك أكثر، وبعد هذا فإن ذلك الموضع من الفتيلة والمسرجة لا يزال سائلاً جارياً. ويقال: إنك متى وضعت مسرجة فيها مصباح، وأخرى لا مصباح فيها لم تلبث إلا ليلة أو ليلتين حتى ترى السفلى ملآنة دهناً. واعتبر أيضاً ذلك بالملح الذي يوضع تحت المسرجة، والنخالة التي توضع هناك لتسويتها وتصويبها، كيف تجدهما ينعصران دهناً. وهذا كله خسران وغبن، لا يتهاون به إلا أصحاب الفساد. على أن المفسدين إنما يطعمون الناس ويسقون الناس، وهم على حال يستخلفون[3] شيئاً، وإن كان دوناً. وأنت إنما تطعم النار وتسقي النار، ومن أطعم النار جعله الله يوم القيامة طعاماً للنار.

للعلماء.

(1) يحسو: يشرب.

(2) حريفه: معامله في حرفته.

(3) يستخلف: يعتاض، ينال خلفاً لما أعطى.

قال الشيخ: فكيف أصنع جُعلتُ فداك؟ قال: تتخذ قنديلاً، فإن الزجاج أحفظ من غيره، والزجاج لا يعرف الرشح ولا النشف، ولا يقبل الأوساخ التي لا تزول إلا بالدلك الشديد أو بإحراق النار، وأيهما ما كان، فإنه يعيد المسرجة إلى العطش الأول. والزجاج أبقى على الماء والتراب من الذهب الإبريز، وهو مع ذلك مصنوع والذهب مخلوق، فإن فَضَلَه الذهبُ بالصلابة فَضَلَك الزجاج بالصفاء، والزجاج مجل[1] والذهب ستار. ولأن الفتيلة إنما تكون في وسطه، فلا تحمى جوانبه بوهج المصباح، كما تحمى بموضع النار من المسرجة. وإذا ورد الضياء كل واحد منهما على صاحبه. واعتبر ذلك بالشعاع الذي يسقط على وجه المرآة، أو على وجه الماء، أو على الزجاجة، ثم انظر كيف يتضاعف نوره، وإن سقوطه على عين إنسان أعشاه، وربما أعماه، وقال الله جلَّ ذكره:

(الله نور السموات والأرض، مَثَلُ نورِهِ كمشكاةٍ فيها مصباحٌ، المصباحُ في زجاجةٍ، الزجاجةُ كأنها كوكبٌ دُرّي يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسَسْه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء). والزيت في الزجاجة نور على نور، وضوء على ضوء مضاعف. هذا من فضل حسن القنديل على حين مسارج الحجارة والخزف.

وأبو عبد الله هذا كان من أطيب الخلق وأملحهم بخلاً وأشدهم رياء.

جوابان عن مسألة واحدة

أدخل علي ذي اليمينين طاهر بن الحسين، وقد كان يعرفه بخراسان بسبب الكلام، فقال له: منذ كم أنت مقيم بالعراق يا أبا عبد الله؟ فقال: أنا بالعراق منذ عشرين سنة، وأنا أصوم الدهر منذ أربعين سنة. قال: فضحك

---

(1) مجل: شفاف، كاشف.

طاهر، وقال: سألناك يا أبا عبد الله عن مسألة، فأجبتنا عن مسألتين.

لو خرجت من جلدك لم أعرفك

ومن أعاجيب أهل مرو ما سمعناه من مشيختنا على وجه الدهر، وذلك أن رجلاً من أهل مرو كان لا يزال يحج ويتجر، وينزل على رجل من أهل العراق، فيكرمه ويكفيه مؤونته. ثم كان كثيراً ما يقول لذلك العراقي: ليت أني قد رأيتك بمرو، حتى أكافئك، لقديم إحسانك، وما تجدد لي من البر في كل قدمة، فأما هاهنا فقد أغناك الله عني.

قال: فعرضت لذلك العراقي بعد دهر طويل حاجة في تلك الناحية، فكان مما هوَّن عليه مكابدة السفر ووحشة الاغتراب، مكان المروزي هنالك. فلما قدم مضى نحوه في ثياب سفره وفي عمامته وقلنسوته وكسائه، ليحط رحله عنده، كما يضع الرجل بثقته وموضع أنسه. فلما وجده قاعداً في أصحابه، أكبّ عليه وعانقه، فلم يره أثبته، ولا سأل به سؤال من رآه قط. قال العراقي في نفسه: لعل إنكاره إياي لمكان القناع، فرمى بقناعه، وابتدأ مساءلته، فكان له أنكر. فقال: لعله أن يكون إنما أُتي من قبِل العمامة، فنزعها ثم انتسب، وجدد مساءلته، فوجده أشد ما كان إنكاراً. قال: فلعله إنما أُتي من قبل القلنسوة.

وعلم المروزي أنه لم يبق شيء يتعلق به المتغافل والمتجاهل، قال: (لو خرجت من جلدك لم أعرفك!) و ترجمة هذا الكلام بالفارسية: (إكراز بوست يارون بيائي نشناستم).

يربط اللحم بخيط أو بخوصة

وزعموا أنهم ربما ترافقوا وتزاملوا، فتناهدوا[1] وتلازقوا[2] في شراء اللحم، فإذا اشتروا اللحم قسموه قبل الطبخ، وأخذ كل إنسان منهم نصيبه فَشَكّه بخوصة أو بخيط، ثم أرسله في خلّ القدر والتوابل، فإذا طبخوه تناول كل إنسان خيطه وقد علّمه بعلامة ثم اقتسموا المرق، ثم لا يزال أحدهم يسلُّ[3] من الخيط القطعة بعد القطعة، حتى يبقى الحبل لا شيء فيه، ثم يجمعون خيوطهم، فإن أعادوا الملازقة، أعادوا تلك الخيوط، لأنها قد تشربت الدسم، فقد رويت وليس تناهدهم[4] من طريق الرغبة في المشاركة، ولكن لأن بضعة كل واحد منهم لا تبلغ مقدار الذي يحتمل أن يطبخ وحده، ولأن المؤونة تخف أيضاً والحطب والخل والثوم والتوابل، ولأن القدر الواحدة أمكن من أن يقدر كل واحد منهم على قدر، وإنما يختارون السكباج[5]؛ لأنها تبقى على الأيام وأبعد من الفساد.

كيف لا أعيرك المقلى للحم

حدثني أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام قال: قلت مرة لجار كان لي من أهل خراسان: أعرني مقلاكم فإني أحتاج إليه. قال: قد كان لنا مقلى ولكنه سرق، فاستعرت من جار لي آخر. فلم يلبث الخراساني أن سمع نشيش اللحم في المقلى، وشمَّ الطّباهج[6]، فقال لي كالمغضب: ما في

---

(1) تناهدوا: تأتي هنا بمعنى ترافقوا.

(2) تلازقوا: تلازموا، لزم كل واحد منهم الآخر أي كانوا مع بعض.

(3) يسل: يسحب.

(4) تناهدهم: من المعنى السابق ترافقهم وتلازمهم.

(5) السكباج: مرق يعمل من اللحم والخل.

(6) الطباهج: طعام من بيض وبصل ولحم.

الأرض أعجب منك، لو كنت خبرتني أنك تريده للحم أو لشحم لوجدتني أسرع إليك به، إنما خشيتك تريده للباقِلّى، وحديد المقلى يحترق إذا كان الذي يقلى فيه ليس بدسم، وكيف لا أعيرك إذا أردت الطَّباهِج، والمقلى بعد الرد من الطباهج أحسن حالاً منه وهو في البيت؟!..

يريد أن يدسم الخوان

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام: دعانا جار لنا، فأطعمنا تمراً وسَمْنَ سِلاء[1]، ونحن على خوان ليس عليه إلا ما ذكرت، والخراساني معنا يأكل، فرأيته يقطر السمن على الخوان حتى أكثر من ذلك. فقلت لرجل إلى جنبي: ما لأبي فلان يضيع سمن القوم، ويسيء المؤاكلة، ويغرف فوق الحق؟ قال: وما عرفت علته؟ قلت: لا والله. قال: الخوان خوانه، فهو يريد أن يدسّمه، ليكون كالدبغ له. ولقد طلق امرأته – وهي أم أولاده– لأنه رآها غسلت خواناً له بماء حار، فقال لها: هلا مسحته؟!

أكلي وحدي هو الأصل

وقال أبو نواس: كان معنا في السفينة – ونحن نريد بغداد – رجل من أهل خراسان، وكان من عقلائهم وفقهائهم، فكان يأكل وحده، فقلت له: لم تأكل وحدك؟ قال: ليس عليَّ في هذا الموضع مسألة: إنما المسألة على من أكل مع الجماعة؛ لأن ذلك هو التكلف، وأكلي وحدي هو الأصل.. وأكلي مع غيري زيادة في الأصل.

(1) السلاء: ما طبخ وصُفّي من السمن.

قول بأكل ليس من الإنصاف

وحدثني إبراهيم بن السندي[1] قال: كان على ربض الشاذروان[2] شيخ لنا من أهل خراسان، وكان مصححاً بعيداً من الفساد ومن الرُّشا[3]، ومن الحكم بالهوى، وكان حفياً[4] جداً، وكذلك كان في إمساكه وفي بخله وتدنيقه[5] في نفقاته، وكان لا يأكل إلا ما لا بد منه، ولا يشرب إلا ما لا بد له منه. غير أنه إذا كان في غداة كل جمعة حمل معه منديلاً فيه جَرْذَقتان[6]، وقطع لحم سِكباج مُبرَّد، وقطع جبن، وزيتونات، وصرّة فيها ملح، وأخرى فيها أُشنان[7]، وأربع بيضات ليس منها بد، ومعه خلال. ومضى وحده حتى يدخل بعض بساتين الكرخ، وينظر موضعاً تحت شجرة وسط خضرة وعلى ماء جار. فإذا وجد ذلك جلس، وبسط بين يديه المنديل، وأكل من هذا مرة ومن هذا مرة، فإن وجد قيّم[8] ذلك البستان رمى إليه بدرهم، ثم قال: اشتر لي بهذا، أو أعطني بهذا رطباً، إن كان في زمان الرطب، أو عنباً، إن كان في زمان العنب، ويقول له: إياك إياك أن تحابيني، ولكن تجوّد لي، فإنك إن فعلت لم آكله ولم أعد إليك. واحذر الغبن، فإن المغبون لا محمود ولا مأجور. فإن أتاه به أكل كلَّ شيء معه،

---

(1) إبراهيم بن السندي: من رجال الجاحظ الذين يكثر من ذكرهم والرواية عنهم في كثير من كتبه كالبخلاء والحيوان والبيان والتبيين والتاج، وهو من أسرة سندية.

(2) ربض الشاذروان: موضع من مواضع بغداد.

(3) الرِّشا بكسر الراء والرُّشا بضمها: مفردها رِشوة: وهو ما يدفع لإبطال حق أو إحقاق باطل.

(4) حفياً: مكرماً.

(5) تدنيقه: تقتيره.

(6) جرذقتان: رغيفان.

(7) أشنان: ما تغسل به الأيدي من الحمض.

(8) قيّم البستان: المشرف عليه.

وكل شيء أُتِي به، ثم تخلل وغسل يديه، ثم تمشى مقدار مئة خطوة، ثم يضع جنبه فينام إلى وقت الجمعة. ثم ينتبه، فيغتسل ويمضي إلى المسجد. هذا كان دأبه كل جمعة.

قال إبراهيم: فبينا هو يوماً من أيامه يأكل في بعض المواضع، إذ مر به رجل فسلم عليه، فرد السلام، ثم قال: هلمَّ عافاك الله، فلما نظر إلى الرجل قد انثنى راجعاً، يريد أن يَطفُر[1] الجدول أو يعدّي[2] النهر، قال له: مكانك!.. فإن العجلة من عمل الشيطان. فوقف الرجل، فأقبل عليه الخراساني وقال: تريد ماذا؟ قال: أريد أن أتغدى. قال: ولِمَ ذاك؟ وكيف طمعت في هذا؟ ومن أباح لك مالي؟

قال الرجل: أو ليس قد دعوتني؟ قال: ويلك!.. لو ظننت أنك هكذا أحمق ما رددت عليك السلام. الآيين[3] فيما نحن فيه أن تكون إذا كنت أنا الجالس وأنت المار، أن تبدأ أنت فتسلِّم، فأقول أنا حينئذ مجيباً لك: وعليكم السلام، فإن كنت لا آكلاً شيئاً سكت أنا وسكت أنت، ومضيت أنت وقعدت أنا على حالي. وإن كنت آكل فهاهنا آيين آخر، وهو أن أبدأ أنا فأقول: هلمَّ، وتجيب أنت فتقول: هنيئاً، فيكون كلام بكلام، فأما كلام بفعال وقول بأكل فهذا ليس من الإنصاف، وهذا يخرج علينا فضلاً كبيراً. قال: فَوَردَ على الرجل شيءٌ لم يكن في حسابه.

فشهر بذلك في تلك الناحية، وقيل له: قد أعفينا من السلام ومن تكلُّف الردِّ. قال: ما بي إلى ذلك حاجة، إنما هو أن أعفي أنا نفسي من (هلمَّ)،

---

(1) يطفر: يقفز.

(2) يعدي: يعبر النهر، يقطعه.

(3) الآيين: (كلمة فارسية معربة) بمعنى العادة.

وقد استقام الأمر.

قول بفعل.. خسران مبين

ومثل هذا الحديث ما حدثني به محمد بن يسير[1] عن والٍ كان بفارس، إما أن يكون خالداً خومَهْرَوَيْهِ أو غيره قال:

بينما هو يوماً في مجلس، وهو مشغول بحسابه وأمره، وقد احتجب بجهده، إذ نَجمَ[2] شاعر من بين يديه، فأنشده شعراً مدحه فيه وقرّظه ومجده، فلمّا فرغ قال: قد أحسنت. ثم أقبل على كاتبه فقال: أعطه عشرة آلاف درهم. ففرح الشاعر فرحاً قد يستطار له. فلما رأى حاله قال: وإني لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الوقع!.. اجعلها عشرين ألف درهم. فكاد الشاعر يخرج من جلده. فلما رأى فرحه قد أضعف، قال: وإن فرحك ليتضاعف على قدر تضاعف القول!.. أعطه يا فلان أربعين ألفاً. فكاد الفرح يقتله.

فلما رجعت إليه نفسه قال له: أنت، جعلت فداك، رجل كريم، وأنا أعلم أنك كلما رأيتني قد ازددت فرحاً زدتني في الجائزة، وقبول هذا منك لا يكون إلا من قلة الشكر. ثم دعا له وخرج.

قال: فأقبل عليه كاتبه فقال: سبحان الله!.. هذا كان يرضى منك بأربعين درهماً، تأمر له بأربعين ألف درهم؟ قال: ويلك!.. وتريد أن تعطيه شيئاً؟ قال: ومن إنفاذ أمرك بدّ؟ قال: يا أحمق، إنما هذا رجل سرنا بكلام، وسررناه بكلام. هو حين زعم أني أحسن من القمر، وأشدّ من الأسد، وأن

---

(1) محمد بن يسير: هو أبو جعفر محمد بن يسير الرياشي، شاعر من شعراء البصرة المعاصرين للجاحظ يكثر من ذكره ورواية شعره.

(2) نجم: ظهر.

لساني أقطع من السيف، وأن أمري أنفذ من السنان، جعل في يدي من هذا شيئاً أرجع به إلى بيتي؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب؟ ولكنه قد سرنا حين كذب لنا، فنحن أيضاً نسره بالقول ونأمر له بالجوائز، وإن كان كذباً، فيكون كذب بكذب وقولٌ بقول. فأما أن يكون كذب يصدق وقول بفعل فهذا هو الخسران المبين الذي سمعتَ به.

* * *

ويقال: إن هذا المثل الذي قد جرى على ألسنة العوام من قولهم: ينظر إليّ شزْراً[1] كأني أكلت اثنين وأطعمته واحداً، إنما هو لأهل مرو.

* * *

قال: وقال المروزي: لولا أنني أبني مدينة لبنيتُ آريّاً[2] لدابتي.

اليأس جنة

قال: وقلت لأحمد بن هشام[3] وهو يبني داره ببغداد: إذا أراد الله ذهاب مال رجل سلط عليه الطين والماء، قال: وما يصنع بذكر الطين والماء؟ إنما إذا أراد الله ذهاب مال رجل جعله يرجو الخلف[4]، لا والله إن أهلك الناس ولا أقفر بيوتهم، ولا ترك دورهم بلاقع[5]، إلا الإيمان بالخلف، وما رأيت جُنّة[6] قط أوقى من اليأس.

---

(1) ينظر شزراً: أي غضباً بطرف عينه.

(2) آريا: مكان الدابة.

(3) ابن هشام: أحد أشراف بغداد.

(4) الخلف: العوض.

(5) بلاقع: الأرض القفر.

(6) جُنة: وقاية.

تصدق.. وانتظر الخلف

قال: وسمع رجل من المراوزة[1] الحسن وهو يحث الناس على المعروف، ويأمر بالصدقة، ويقول: ما نقص مال قط من زكاة، ويعدهم سرعة الخلف. فتصدق بماله كله فافتقر، فانتظر سنة وسنة، فلما لم ير شيئاً بكر على الحسن، فقال: ياحسن ما صنعت بي؟ ضمنت لي الخلف، فأنفقت على عدتك، وأنا اليوم مذ كذا وكذا سنة أنتظر ما وعدت، لا أرى منه قليلاً ولا كثيراً، هذا يحلُّ لك! اللص كان يصنع بي أكثر من هذا؟

والخلف يكون معجلاً ومؤجلاً، ومن تصدق وتشرط الشروط استحق الحرمان، ولو كان هذا على ما توهمه المروزي لكانت المحنة فيه ساقطة، ولترك الناس التجارة ولما بقي فقير، ولذهبت العبادة.

يطلب من الله أن يحرق كل شيء

وقيل: أصبح ثمامة[2] شديد الغم حين احترقت داره، وكان كلما دخل عليه إنسان قال: الحريق سريع الخلف. فلما كثر ذلك القول منهم قال: فأستحرق الله[3]، اللهم إني أستحرقك فأحرق كل شيء لنا.

وليس هذا الحديث من حديث المراوزة، ولكنا ضممناه إلى ما يشاكله.

مخافة أن تنجرد نعال خفافهم

قال سجادة، وهو أبو سعيد سجادة: ناس من المراوزة إذا لبسوا الخفاف في الستة الأشهر التي لا ينزعون فيها خفافهم، يمشون على صدور أقدامهم ثلاثة أشهر، وعلى أعقاب أرجلهم ثلاثة أشهر حتى يكون كأنهم لم يلبسوا

---

(1) المراوزة: نسبة إلى مرو.

(2) ثمامة: من الشخصيات الخطيرة ذات الأثر الخالد في الحياة العقلية الإسلامية وكان زعيماً من زعماء المعتزلة.

(3) استحرق الله: اطلب منه أن يحرق.

خفافهم إلا ثلاثة أشهر، مخافة أن تتجرد نعال خفافهم أو تنقب.

إياك وهذه العادة

حكى أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام، عن جاره المروزي: أنه كان لا يلبس خفاً ولا نعلاً إلى أن يذهب النبق[1] اليابس، لكثرة النوى في الطريق والأسواق، قال: ورآني مرة مصصت قصب سكر، فجمعت ما مصصت ماءه لأرمي به، فقال: إن كنت لا تَنّور لك ولا عيال عليك، فهبّه لمن له تَنّور وعليه عيال، وإياك أن تعوّد نفسك هذه العادة في أيام خفة ظهرك[2]، فإنك لا تدري متى يأتيك العيال.

قصة أهل البصرة من المسجديين

قال أصحابنا من المسجديين[3]: اجتمع ناس في المسجد، ممن ينتحل الاقتصاد في النفقة، والتثمير للمال، من أصحاب الجمع والمنع، وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذي يجمع على التحابّ، وكالحلف الذي يجمع على التناصر، وكانوا إذا التقوا في حلقهم تذاكروا هذا الباب وتطارحوه، وتدارسوه، التماساً للفائدة، واستمتاعاً بذكره.

أنا والنعجة[4] نغتسل بالعذب

فقال شيخ منهم: ماء بئرنا، كما قد علمتم، مالح أجاج[5]، لا يقربه الحمار، ولا تسيغه[6] الإبل وتموت عليه النحل، والنهر منا بعيد، وفي تكلف

(1) النبق: حمل شجرة الدر.

(2) خفة ظهرك: قلة العيال.

(3) المسجديون: قوم اتخذوا المسجد منتدى لهم فعرفوا به.

(4) النعجة: المقصود زوجته.

(5) أجاج: مالح مر.

(6) تسيغه: تستطيبه.

العذب علينا مؤونة، فكنا نمزج منه للحمار، فاعتل منه وانتقض علينا من أجله، فصرنا بعد ذلك نسقيه العذب صرفاً. وكنت أنا والنعجة كثيراً ما نغتسل بالعذب مخافة أن يعتري جلودنا منه مثل ما اعترى جوف الحمار. فكان ذلك الماء العذب الصافي يذهب باطلاً، ثم انفتح لي فيه باب من الإصلاح، فعمدت إلى ذلك المتوضأ[1]، فجعلت في ناحية منه حفرة، وصهرجتها[2] وملستها حتى صارت كأنها صخرة منقورة، وصوبت إليها المسيل، فنحن الآن إذا اغتسلنا صار الماء إليها صافياً لم يخالطه شيء، ولولا التعبّد لكان جِلْد المتغوّط أحق بالنَتن من جلد الجُنب، فمقادير طيب الجلود واحدة، والماء على حاله، والحمار أيضاً لا تقزز له من ماء الجنابة، وليس علينا حرج في سقيه منه، وما علمنا أن كتاباً حرمه ولا سنة نهت عنه، فربحنا هذه منذ أيام، وأسقطنا مؤونة عن النفس والمال.

قال القوم: هذا بتوفيق الله ومنّه.

مريم الصناع

فأقبل عليه شيخ فقال: هل شعرتم بموت مريم الصناع؟ فإنها كانت من ذوات الاقتصاد، وصاحبة إصلاح. قالوا: فحدثنا عنها، قال: نوادرها كثيرة وحديثها طويل، ولكني أخبركم عن واحدة فيها كفاية. قالوا: وما هي؟ قال: زوجت ابنتها، وهي بنت اثنتي عشرة سنة، فحلتها الذهب والفضة، وكستها المروي[3] والوشي[4] والقز[5] والخز[6] وعلقت المصفر[7]، ودقت الطيب،

---

(1) المتوضأ: مكان الوضوء.

(2) صهرجتها: طليتها بالكلس وهو الصاروج.

(3) المروي: قماش منسوب إلى مرو.

(4) الوشي: قماش مزخرف.

(5) القز: الحرير.

وعظمت أمرها في عين الخَتَن[1]، ورفعت من قدرها عند الأحماء[2]، فقال لها زوجها أنى لك هذا يا مريم؟ قالت: هو من عند الله. قال: دعي عنك الجملة وهاتي التفسير، والله ما كنت ذات مال قديماً ولا ورثته حديثاً، وما أنت خائنة بنفسك ولا في مال بعلك، إلا أن تكوني قد وقعت على كنز. وكيف دار الأمر، فقد أسقطت عني مؤونة وكفيتني هذه النائبة. قالت: اعلم أني منذ يوم ولدتها إلى أن زوجتها كنت أرفع من دقيق كل عجنة حفنة، وكنا، كما قد علمت، نخبز في كل يوم مرة، فإذا اجتمع من ذلك مكوك[3] بعته. قال زوجها: ثبت الله رأيك وأرشد، ولقد أسعد الله من كنت له سكناً[4]، وبارك لمن جعلت له إلفاً، ولهذا وشبهه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من الذود[5] إلى الذود إبل، وإني لأرجو أن يخرج ولدك على عرقك الصالح، وعلى مذهبك المحمود، وما فرحي بهذا منك بأشد من فرحي بما ثبت الله بك في عقبي[6] من هذه الطريقة المرضية.

فنهض القوم بأجمعهم إلى جنازتها، وصلوا عليها، ثم انكفأوا[7] إلى زوجها فعزّوه على مصيبته، وشاركوه في حزنه.

---

(6) الخز: الحرير.

(7) المصفر: الستائر ذات اللون الأصفر.

(1) الختن: الصهر.

(2) الأحماء: مفردها حمو.

(3) المكوك: معيار يكال به يسع صاعاً ونصف أو نصف رطل إلى ثماني أواق.

(4) سكناً: ما يستأنس به ويسكن إليه من أهل ومال.

(5) الذود من الإبل: ما فوق الاثنين دون العشرة.

(6) عقبي: خلفي.

(7) انكفؤوا: رجعوا.

طبيخ النخالة

ثم اندفع شيخ منهم فقال: يا قوم لا تحقروا صغار الأمور، فإن أول كل كبير صغير، ومتى شاء الله أن يعظم صغيراً عظمه وأن يكثر قليلاً كثره، وهل بيوت الأموال إلا درهم إلى درهم؟ وهل الدرهم إلا قيراط إلى جنب قيراط؟ أوليس كذلك رمل عالج[1] وماء البحر؟ وهل اجتمعت أموال بيوت الأموال إلا بدرهم من هاهنا ودرهم من هاهنا؟ قد رأيت صاحب سقط[2] قد اعتقد[3] مئة جريب[4] في أرض العرب، ولربما رأيته يبيع الفلفل بقيراط، والحمّص بقيراط، فأعلم أنه لم يربح في ذلك الفلفل إلا الحبة والحبتين من خشب الفلفل، فلم يزل يجمع من الصغار الكبار، حتى اجتمع ما اشترى به مئة جريب.

ثم قال: اشتكيت أياماً صدري، من سعال كان أصابني، فأمرني قوم بالفانيد[5] السكري، وأشار عليَّ آخرون بالخزيرة[6] تتخذ من النشاشتج[7] والسكر ودهن اللوز وأشباه ذلك. فاستثقلت المؤونة وكرهت الكلفة ورجوت العافية. فبينا أنا أدافع الأيام، إذ قال لي بعض الموفقين: عليك بماء النخالة، فأحْسُهُ[8] حاراً. فحسوت، فإذا هو طيب جداً، وإذا هو يعصم، فما جعت ولا اشتهيت الغداء في ذلك اليوم إلى الظهر، ثم ما فرغت من غدائي وغسل

---

(1) رمل عالج: رمل في جزيرة العرب.

(2) سقط: القديم البالي من كل شيء.

(3) اعتقد: جمع.

(4) جريب: مكيال قدر أربعة أقفزة، والقفيز من الأرض: قدر مئة وأربع وأربعين ذراعاً.

(5) الفانيد: ضرب من الحلواء يصنع من السكر ودقيق الشعير والترتجبين.

(6) الخزيرة: المرقة التي تصفى من بلالة النخالة.

(7) النشاشتج: النشا (فارسي معرب) حذف شطره تخفيفاً (كما قالوا للمنازل منا).

(8) أحسه: أشربه.

يدي، حتى قاربت العصر، فلما قرب وقت غدائي من وقت عشائي طويت العشاء وعرفت قصدي.

فقلت للعجوز: لم لا تطبخين لعيالنا في كل غداة نخالة؟ فإن ماءها جلاء للصدر، وقوتها غذاء وعصمة، ثم تجففين بعد النخالة، فتعود كما كانت، فتبيعينه إذا اجتمع بمثل الثمن الأول، ونكون قد ربحنا فضل ما بين الحالتين. قالت: أرجو أن يكون الله قد جمع لك بهذا السعال مصالح كثيرة، لما فتح الله لك بهذه النخالة التي فيها صلاح بدنك وصلاح معاشك.

وما أشك أن تلك المشورة كانت من التوفيق.

قال القوم: صدقت، مثل هذا لا يكتسب بالرأي، ولا يكون إلا سماوياً.

العرجون مصدر النار

ثم أقبل شيخ آخر فقال: كنا نلقى من الحراق[1] والقداحة[2] جهداً، لأن الحجارة كانت، إذا انكسرت حروفها واستدارت، كلت ولم تقدح قدح خير، وأصلدت[3] فلم تور[4]، وربما أعجلنا المطر والوكف[5]، وقد كان الحجر أيضاً يأخذ من حروف القداحة حتى يدعها كالقوس، فكنت أشتري المرقشينا[6] بالغلاء والقداحة الغليظة بالثمن الموجع، وكان علينا أيضاً في صنعة الحراق، وفي معالجة العطبة[7] مؤونة، وله ريح كريهة، والحراق لا

---

(1) الحراق: ما يقدح به النار.

(2) القداحة: الحجر الذي تقدح به النار.

(3) أصلد: اخرج صوتاً ولم يشعل.

(4) توري: تشعل.

(5) الوكف: المطر القليل.

(6) المرقشينا: هو الاسم الذي كان يطلقه علماء الكيمياء في القرون الوسطى على بعض المعادن الكبريتية التي تقدح النار، هنا يأتي بمعنى حجر النار.

(7) العطبة: قطعة من القطن.

يجيء من الخرق المصبوغة، ولا من الخرق الوسخة، ولا من الكتان، ولا من الخلقان[1]، فكنا نشتريه بأغلى الثمن، فتذاكرنا منذ أيام أهل البدو والأعراب، وقدحهم النار بالمرخ والعفار[2]، فزعم لنا صديقنا الثوري، وهو، ما علمت، أحد المرشدين: أن عراجين الأعذاق[3] تنوب عن ذلك أجمع، وعلمني كيف تعالج، ونحن نؤتى بها من أرضنا بلا كلفة، فالخادم اليوم لا تقدح ولا توري إلا بالعرجون.

قال القوم: قد مرت بنا اليوم فوائد كثيرة، ولهذا ما قال الأول: مذاكرة الرجال تلقح الألباب.

أخبار معاذة العنبرية

ثم اندفع شيخ منهم فقال: لم أر في وضع الأمور مواضعها وفي توفيتها غاية حقوقها، كمعاذة العنبرية، قالوا: وما شأن معاذة هذه؟ قال:

أهدى إليها العامَ ابن عم لها أضحية[4]، فرأيتها كئيبة حزينة مفكرة مطرقة، فقلت لها: مالك يا معاذة؟ قالت: أنا امرأة أرملة، وليس لي قيّم، ولا عهد لي بتدبير لحم الأضاحي. وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه ويقومون بحقه. وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة، ولست أعرف وضع جميع أجزائها في أماكنها، وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا في غيرها شيئاً لا منفعة فيه. ولكن المرء يعجز لا محالة. ولست أخاف من تضييع القليل إلا أنه يجر تضييع الكثير.

أما القرن فالوجه فيه معروف، وهو أن يجعل منه كالخطاف، ويسمر

(1) الخلقان: الثياب البالية.

(2) المرخ والعفار: نوعان من الشجر يستعملان لقدح النار.

(3) عراجين الأعذاق: عناقيد النخل.

(4) الأضحية: شاة تذبح يوم الأضحى.

في جذع من أجذاع السقف، فتعلق عليه الزُّبُل[1] والكيران[2]، وكل ما خيف عليه من الفأر والنمل والسنانير وبنات وردان[3] والحيات وغير ذلك. وأما المصران فإنه لأوتار المندفة، وبنا إلى ذلك أعظم الحاجة، وأما قحف[4] الرأس واللحيان[5] وسائر العظام فسبيله أن يكسر بعد أن يعرق[6]، ثم يطبخ، فما ارتفع من الدسم كان للمصباح وللإدام وللعصيدة[7]، ولغير ذلك، ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها، فلم ير الناس وقوداً قط أصفى ولا أحسن لهباً منه. وإذا كانت كذلك فهي أسرع في القدر لقلة ما يخالطها من الدخان. وأما الإهاب[8] فالجلد نفسه جراب، وللصوف وجوه لا تعد. وأما الفرث[9] والبعر فحطب إذا جفف عجيب.

ثم قالت: بقي الآن علينا الانتفاع بالدم، وقد علمت أن الله، عز وجلّ، لم يحرّم من الدم المسفوح إلا أكلَه وشربَه، وأن له مواضع يجوز فيها ولا يمنع منها، وإن أنا لم أقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع به، صار كَيَّةً في قلبي وقذى في عيني وهمّاً لا يزال يعودني.

قال: فلم ألبث أن رأيتها قد تطلقت[10] وتبسمت. فقلت: ينبغي أن يكون قد انفتح لك باب الرأي في الدم. قالت: أجل ذكرت أن عندي قدوراً شامية

---

(1) الزبل: واحدها زبيل وهو السل.

(2) الكيران: واحدها كور وهو المجمرة.

(3) بنات وردان: الصراصير.

(4) قحف الرأس: العظم الذي فوق الدماغ.

(5) اللحيان: عظما الحنك.

(6) يعرق: يؤخذ عنه اللحم.

(7) العصيدة: دقيق يلت بالسمن ويطبخ.

(8) الإهاب: الجلد.

(9) الفرث: الزبل الذي في الكرش.

(10) تطلقت: انبسط وجهها، فرحت.

جدداً، وقد زعموا: أنه ليس شيء أدبغ ولا أزيد في قوتها من التلطيخ بالدم الحار الدسم، وقد استرحت الآن، إذ وقع كل شيء موقعه.

قال: ثم لقيتها بعد ستة أشهر، فقلت لها: كيف كان قديد[1] تلك؟ قالت: بأبي أنت!.. لم يجئ وقت القديد بعد. لنا في الشحم والألية والجنوب والعظم المعرق وفي غير ذلك معاش، ولكل شيء إبّان[2].

فقبض صاحب الحمار والماء العذب قبضة من حصى، ثم ضرب بها الأرض، ثم قال: لا تعلم أنك من المسرفين، حتى تسمع بأخبار الصالحين.

قصة زبيدة بن حميد[3]

وأما زبيدة بن حميد الصيرفي، فإنه استسلف من بقال كان على باب داره درهمين وقيراطاً، فلما قضاه بعد ستة أشهر، قضاه درهمين وثلاث حبات شعير. فاغتاظ البقال، وقال: سبحان الله!.. أنت رب مئة ألف دينار، وأنا بقال لا أملك مئة فلس، وإنما أعيش بكدي وباستفضال الحبة والحبتين. صاح على بابك جمال، وحمال، ولم يحضرك شيء، وغاب وكيلك، فقدت عنك درهمين وأربع شعيرات، فقضيتني بعد ستة أشهر درهمين وثلاث شعيرات!.. فقال زبيدة: يا مجنون، أسلفتني في الصيف، فقضيتك في الشتاء، وثلاث شعيرات شتوية ندية، أرزن[4] من أربع شعيرات يابسة صيفية، وما أشك أن معك فضلاً[5].

---

(1) قديد: اللحم المقدد أي المقطع والمجفف.

(2) إبّان: وقت.

(3) زبيدة بن حميد: صيرفي بصري كبير وكان تاجر دقيق.

(4) أرزن: أثقل.

(5) فضلاً: زيادة.

يسمعون بالشبع من أفواه الناس

وحدثني أبو الإصبغ بن ربعي[1] قال: دخلت عليه بعد أن ضرب غلمانه بيوم، فقلت له: ما هذا الضرب المبرح، وهذا الخلق السّيّء؟ هؤلاء غلمان، ولهم حرمة وكفاية وتربية، وإنما هم ولد. هؤلاء كانوا إلى غير هذا أحوج، قال: إنك لست تدري أنهم أكلوا كل جُوارِشن[2] كان عندي.

قال أبو الإصبغ: فخرجت إلى رئيس غلمانه فقلت: ويلك!.. مالك وللجوارشن؟ وما رغبتك فيه؟ قال: جعلت فداك!.. ما أقدر أن أكلمك من الجوع إلا وأنا متكئ. الجوارشن ما أصنع به؟ هو نفسه ليس يشبع، ولا يحتاج إلى الجوارشن، ونحن الذين إنما نسمع بالشبع سماعاً من أفواه الناس، ما نصنع بالجوارشن؟!..

* * *

واشتد على غلمانه في تصفية الماء، وفي تبريده وتزميله[3]، لأصحابه وزواره، فقال له غازي أبو مجاهد، جعلت فداك!.. مر بتزميل الخبز وبتكبيره، فإن الطعام قبل الشراب.

* * *

وقال مرة: يا غلام، هات خوان النرد، وهو يريد تخت النرد، فقال له غازي: نحن إلى خوان الخبز أحوج.

---

(1) أبو الإصبغ بن ربعي: كان من أصحاب الجاحظ الذين يروي عنهم، واسمه (ذؤيب) على ما جاء في أخبار أبي نواس، وهو هذلي بصري.

(2) الجوارشن: تجيء هذه الكلمة بالنون كما هنا، وخالية منها، وهي نوع من الأدوية تعريب (كوارش) ومعناها الهضام.

(3) تزميله: وضعه في المزملة وهي خابية لتبريد الماء.

السُّكْرُ مفتاح الشر كله

وسَكِر زبيدة ليلة، فكسا صديقاً له قميصاً، فلما صار القميص على النديم خاف البدّوات[1]، وعلم أن ذلك من هفوات السُّكر. فمضى من ساعته إلى منزله فجعله برنكاناً[2] لامرأته، فلما أصبح سأل عن القميص وتفقّده، فقيل له: إنك قد كسوته فلاناً، فبعث إليك، ثم أقبل عليه فقال: ما علمتَ أن هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز؟ وبعد فإني أكره ألا يكون لي حمد، وأن يوجه الناس هذا مني على السُّكر، فرده إلي حتى أهبه لك صاحياً عن طيب نفس، فإني أكره أن يذهب شيء من مالي باطلاً. فلما رآه صمم أقبل عليه فقال: يا هناه[3]!.. إن الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤاخذون بشيء من ذلك، فرد القميص عافاك الله!.. قال له الرجل:

إني والله قد خفت هذا بعينه، فلم أضع جنبي إلى الأرض حتى جيبته[4] لامرأتي، وقد زدت في الكُمّين وحذفت المقاديم[5]، فإن أردت بعد هذا كله أن تأخذه، فخذه، فقال: نعم، آخذه؛ لأنه يصلح لامرأتي كما يصلح لامرأتك. قال: فإنه عند الصباغ. قال: فهاته، قال: ليس أنا أسلمته إليه. فلما علم أنه قد وقع، قال: بأبي وأمي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حيث يقول: (جُمِعَ الشرُّ كله في بيت، وأغلق عليه، فكان مفتاحه السُّكر).

---

(1) البدوات: ما يخطر من رأي فيه.

(2) البرنكان: الكساء الأسود، وقيل: هو الكساء مطلقاً.

(3) يا هناه: يا رجل، تقال للتعجب.

(4) جيبته: جعلت له جيباً. (5) المقاديم: خلاف المآخير.

قصة ليلى الناعطية

وأما ليلى الناعطية[1]، صاحبة الغالية من الشيعة، فإنها ما زالت ترقع قميصاً لها وتلبسه، حتى صار القميص الرقاع، وذهب القميص الأول، ورفت[2] كساءها ولبسته، حتى صارت لا تلبس إلا الرفو، وذهب جميع الكساء، وسمعت قول الشاعر:

البس قميصكَ ما اهتديتَ لجيبهِ فإذا أضَلّك جيبهُ فاستبدلِ

فقالت: إني إذاً لخرقاء، أنا، والله، أحوص[3] الفتق وفتق الفتق، وأرقع الخرق وخرق الخرق.

تخلص البخلاء من الضيوف

ومضيت أنا وأبو إسحاق النظام وعمرو بن نُهَيْوي، نريد الحديث في الجبّان[4]، ولنتناظر في شيء من الكلام، فمررنا بمجلس وليد القرشي، وكان على طريقنا، فلما رآنا تمشَّى معنا، فلما جاوزنا الخندق، جلسنا في فناء حائطه، وله ظل شديد السواد بارد ناعم، وذلك لثخن الساتر، واكتناز الأجزاء، ولبعد مسقط الشمس من أصل حائطه، فطال بنا الحديث، وجرينا في ضروب من الكلام، فما شعرنا إلا والنهار قد انتصف، ونحن في يوم قائظ[5]، فلما صرنا في الرجوع، ووجدت مس الشمس ووقعها على الرأس،

---

(1) ليلى الناعطية: يمنية الأصل.

(2) رفت: أصلحت.

(3) أحوص: أخيط.

(4) الجبان: المقبرة.

(5) قائظ: شديد الحر.

أيقنت بالبرسام[1]، فقلت لأبي إسحاق – والوليد إلى جنبي يسمع كلامي: الباطنة[2] منا بعيدة، وهذا يوم منكر، ونحن في ساعة تذيب كل شيء. والرأي أن نميل إلى منزل الوليد فنقيل فيه[3]، ونأكل ما حضر، فإنه يوم تخفيف، فإذا أبردنا تفرقنا، وإلا فهو الموت، ليس دونه شيء.

قال الوليد رافعاً صوته: أما على هذا الوجه لا يكون والله أبداً، فضعه في سويداء قلبك. فقلت له: ما هذا الوجه الذي أنكرته علينا رحمك الله؟ هل هاهنا إلا الحاجة والضرورة؟ قال: إنك أخرجته مخرج الهزء، قلت: وكيف أخرجه مخرج الهزء، وحياتي في يدك، مع معرفتي بك؟!.. فغضب ونتر[4] يده من أيدينا، وفارقنا. ولا والله ما اعتذر إلينا مما ركبنا به إلى الساعة.

ولم أرَ من يجعل الأسى حجة في المنع إلا هو، وإلا ما كان من أبي مازن إلى جبل العمي[5].

وكان جبل خرج ليلاً من موضع كان فيه، فخاف الطائف[6]، ولم يأمن المستقفي[7]، فقال: لو دققت الباب على أبي مازن، فبتُّ عنده في أدنى بيت أو في دهليزه، ولم ألزمه من مؤونتي شيئاً، حتى إذا انصدع[8] عمود الصبح، خرجت في أوائل المدلجين[9]، فدق عليه الباب دق واثق ودق مدل

(1) البرسام: التهاب في الحجاب الذي بين الكبد والقلب.

(2) الباطنة: مجتمع الدور والأسواق من البصرة والكوفة.

(3) نقيل فيه: ننام في القائلة.

(4) نتر: سحب بشدة.

(5) جبل العمي: هو (روح العمي) ويلقب بالجبل، وكان يتعاطى صناعة الغناء وكان يغني لأبي نواس وورد في شعره.

(6) الطائف: العسس، حارس الليل.

(7) المستقفي: الذي يقفو آثار الناس لسلبهم.

(8) انصدع: انشق.

(9) المدلج: السائر في الليل.

ودق من يخاف أن يدركه الطائف أو يقفوه المستقفي، وفي قلبه عز الكفاية والثقة بإسقاط المؤونة، فلم يشك أبو مازن أنه دق صاحب هدية، فنزل سريعاً.

فلما فتح الباب وبصر بجبل، بصر بملك الموت، فلما رآه جبل واجماً لا يحير كلمة، قال له: إني خفت معرة[1] الطائف، وعجلة المستقفي، فملت إليك لأبيت عندك. فتساكر[2] أبو مازن.. وأراه أن وجومه إنما كان بسبب السُّكر، فخلع جوارحه وخبل لسانه وقال: سكران والله، أنا والله سكران، قال له جبل: كن كيف شئت، نحن في أيام الفصل، لا شتاء ولا صيف، ولست أحتاج إلى سطح فاغم عيالك بالحر، ولست أحتاج إلى لحاف فأكلفك أن تؤثرني بالدثار[3]، وأنا كما ترى ثمل من الشراب، شبعان من الطعام، ومن منزل فلان خرجت، وهو أخصب الناس رحلاً، وإنما أريد أن تدعني أغفو في دهليزك إغفاءة واحدة، ثم أقوم في أوائل المبكرين.

قال أبو مازن وأرخى عينيه وفكّيه ولسانه، ثم قال: سكران، والله، أنا سكران، لا والله ما أعقل أين أنا، والله إن[4] أفهم ما تقول.

ثم أغلق الباب في وجهه، ودخل لا يشك أن عذره قد وضح، وأنه قد ألطف النظر حتى وقع على هذه الحيلة.

---

(1) المعرة: الأذى والضرر.

(2) تساكر: تظاهر أنه سكران.

(3) الدثار: الغطاء.

(4) إن: هنا بمعنى (لا).

الكلام الملحون

يقول الجاحظ[1]:

وإن وجدتم في هذا الكتاب لحناً، أو كلاماً غير معرب، ولفظاً معدولاً عن جهته فاعلموا إنما تركنا ذلك؛ لأن الإعراب يبغض هذا الباب، ويخرجه من حده، إلا أن أحكي كلاماً من كلام متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء، كسهل بن هارون، وأشباهه.

(1) وهذا مذهب الجاحظ لعله كان أول من اصطنعه واجترأ عليه في كتبه دون أن يبالي في ذلك لائمة المتحرجين، فقد كانت تحمله عليه نزعته الأدبية القوية التي اتخذت من حياة الشعب مادة لها تعبر عن اتجاهاتها ومناحيها.

قصة أحمد بن خلف

تعشّى البارحة في البيت

ومن طياب البخلاء أحمد بن خلف اليزيدي[1]، ترك أبوه في منزله يوم مات ألفي ألف درهم، وستمئة ألف درهم، وأربعين ومئة ألف درهم، فاقتسمها هو وأخوه حاتم قبل دفنه، فأخذ أحمد وحده ألفَ ألفٍ وثلاثمئة ألف درهم، وسبعين ألف دينار ذهباً عيناً مثاقيل وازنة جياداً، سوى العروض[2].

فقلت له، وقد ورث هذا المال كله: ما بطَّأ بك الليلة؟ قال: والله إلا أني تعشيت البارحة في البيت!.. فقلت لأصحابنا: لولا أنه بعيد العهد بالأكل في بيته، وأن ذلك غريب منه، لما احتاج إلى هذا الاستثناء، وإلى هذه الشريطة. وأين يتعشّى الناس إلا في منازلهم؟ وإنما يقول الرجل عند مثل هذه المسألة لا والله إلا أن فلاناً حبسني، ولا والله إلا أن فلاناً عزم عليَّ[3]، فأما ما يستثنى ويشترط، فهذا ما لا يكون إلا على ما ذكرناه قبل.

الأكلة المثلثة

وقال لي مبتدئاً مرة، عن غير مشورة وعن غير سبب جرى: انظر أن تتخذ لعيالك في الشتاء من هذه المثلثة[4]، فإنها عظيمة البركة، كثيرة النزل[5]، وهي تنوب عن الغداء، ولها نفخة تغني عن العشاء، وكل شيء من الأحساء فهو يغني عن طلب النبيذ وشرب الماء، ومن تحسى الحار

---

(1) أحمد بن خلف: أحد أصدقاء الجاحظ.

(2) العروض: كل شيء سوى النقود.

(3) عزم عليَّ: دعاني.

(4) المثلثة: نوع من الحساء يصنع من دقيق وماء ودهن.

(5) النزل: البركة.

عرق، والعرق ينفض[1] الجلد، ويخرج ضر الجوف، وهي تملأ النفس وتمنع من التشهي، وهي أيضاً تدفئ، فتقوم لك في أجوافهم مقام فحم الكانون من خارج. وحسو الحار يغني عن الوقود، وعن لبس الحشو، والوقود يسوّد كل شيء وينتنه، وهو سريع في الهضم، وصاحبه معرض للحريق، ويذهب في ثمنه المال العظيم، وشر شيء فيه أن من تعوده لم يدفئه شيء سواه، فعليك يا أبا عثمان بالمثلثة، واعلم أنها لا تكون إلا في منازل المشيخة وأصحاب التجربة، فخذها من حكيم مجرب ومن ناصح مشفق.

دعوة ليس لها أخت

وكان لا يفارق منازل إخوانه، وإخوانه مخاصيب مناويب[2]، وأصحاب نفح[3] وترف، وكانوا يتحفونه ويدللونه، ويفكهونه[4] ويحكمونه، ولم يشكوا أنه سيدعوهم مرة، وأن يجعلوا بيته نزهة ونشوة، فلما طال تغافله، وطالت مدافعته، وعرضوا له بذلك فتغافل، صرحوا له، فلما امتنع قالوا: اجعلها دعوة ليس لها أخت، فلما بلغ منه ومنهم المجهود، اتخذ لهم طعيماً خفيفاً شهياً مليحاً، لا ثمن له، ولا مؤونة فيه، فلما أكلوا وغسلوا أيديهم، أقبل عليهم فقال: أسألكم بالذي لا شيء أعظم منه، أنا الساعة أيسر وأغنى أو قبل أن تأكلوا طعامي؟ قالوا: ما نشك أنك، حين كنت والطعام في ملكك أغنى وأيسر، قال: فأنا الساعة أقرب إلى الفقر، أم تلك الساعة؟ قالوا: بل أنت الساعة أقرب إلى الفقر. قال: فمن لا يلومني على دعوة قوم قرّبوني من الفقر

---

(1) ينفض: يطهر.

(2) مناويب: يتناوبون الطعام.

(3) النفح: العطاء.

(4) يفكهونه: يطرفونه بالفكاهات.

وباعدوني عن الغنى، وكلما دعوتهم أكثر، كنت من الفقر أقرب ومن الغنى أبعد؟

وفي قياسه هذا، أن من رأيه أن يهجر كل من استسقاه شربة ماء، أو تناول من حائطه تينة، ومن خليط دابته عوداً.

الجدي بعشرة!

ومرَّ أصحاب الجداء، وذلك في زمان التوليد، فأطعمه الزمان في الرخص، وتحركت شهوته على قدر إمكانه عنده، فبعث غلاماً له يقال له ثَقْف، وهو معروف، ليشتري له جدياً، فوقف غير بعيد، فلم يلبث أن رجع الغلام يَحضر[1] وهو يشير بيده ويومئ برأسه أن: اذهبْ ولا تقِفْ. فلم يبرح. فلما دنا منه قال: ويلك!.. تهربني كأني مطلوب؟! قال: هذا طرفة[2]. الجدي بعشرة، أنت من ذي البابة[3]؟ مرّ الآن مرّ مرّ. فإذا غلامه يرى أن من المنكر أن يُشتَرى جَدْيٌ بعشرة دراهم، والجدي بعشرة إنما يُنكَر عندنا بالبصرة، لكثرة الخير ورخص السعر، فأما في العساكر فإن أنكر ذلك منكر، فإنما ينكره من طريق رخصه وقلة ثمنه، لا لغير ذلك.

تبرير الجاحظ في وصف صديقه

ولا تقولوا الآن: قد والله أساء أبو عثمان إلى صديقه، بل ما تناوله بالسوء حتى بدأ بنفسه، ومن كانت هذه صفته وهذا مذهبه، فغير مأمون على جليسه وأي الرجال المهذب!.. هذا والله الشّنوع[4] والتُّبوع والبذاء وقلة الوفاء.

---

(1) يحضر: حضر عن المكان: تحوّل وهو مجاز.

(2) طرفة: جديد مستحسن.

(3) أنت من ذي البابه؟: أي هل يصلح لك هذا؟.

(4) الشنوع: القبح.

اعلموا أني لم ألتمس بهذه الأحاديث عنه إلا موافقته وطلب رضاه ومحبته، ولقد خفت أن أكون عند كثير من الناس دسيساً[1] من قبله وكميناً[2] من كمنائه. وذلك أن أحب الأصحاب إليه، أبلغهم قولاً في إيئاس[3] الناس مما قبله، وأجودهم حسماً لأسباب الطمع في ماله. على أني أن أحسنت بجهدي، فسيجعل شكري موقوفاً: فإن جاوز كتابي هذا حدود العراق شكر، وإلا أمسك. لأن شهرته بالقبيح عند نفسه في هذا الإقليم، قد أغناه عن التنويه والتنبيه على مذهبه، وكيف وهو يرى أن سهل بن هارون، وإسماعيل بن غزوان كانا من المسرفين، وأن الثوري، والكندي يستوجبان الحجر[4]؟ وبلغني أنه قال: لو لم تعرفوا من كرامة الملائكة على الله إلا أنه لم يبتلهم بالنفقة، ولا بقول العيال: هات.. هات.. لعرفتهم حالهم ومنزلتهم.

نصيحة على المائدة

وحدثني صاحب لي قال: دخلت على فلان بن فلان: وإذا المائدة موضوعة بعد، وإذا القوم قد أكلوا ورفعوا أيديهم، فمددت يدي لآكل فقال: أجهز على الجرحى، ولا تعرض للأصحاء. يقول أعرض للدجاجة التي قد نيل منها، وللفرخ المنزوع الفخذ، فأما الصحيح فلا تعرض له، وكذلك الرغيف الذي قد نيل منه، وأصابه بعض المرق.

---

(1) الدسيس: من ترسله ليأتيك بالأخبار.

(2) الكمين: الداخل في الأمر لا يفطن له.

(3) إيئاس: قطع الرجاء، قنوط.

(4) الحجر: المنع مطلقاً.

فرخ البط عوام

وقال لي هذا الرجل: أكلنا عنده يوماً، وأبوه حاضر، وبُنيّ له يجيء ويذهب، فاختلف[1] مراراً، كل ذلك يرانا نأكل، فقال الصبي: كم تأكلون لا أطعم الله بطونكم!.. فقال أبوه وهو جد الصبي : ابني وربّ الكعبة!..

صالح بن عفان في الحمام

وحدثني صاحب مسلحة باب الكرخ، قال: قال لي صاحب الحمام: ألا أعجبك من صالح بن عفان؟ كان يجيء كل سحر، فيدخل الحمام، فإذا غبت عن إجّانة[2] النورة[3] مسح عانته[4]؟ وأرفاغه[5]، ثم يتستر بالمئزر، ثم يقوم فيغسله في غمار[6] الناس، فإذا وجد غفلة غسله، ثم يعود في مثل ذلك الوقت، فيمسح قطعة أخرى من جسده، فلا يزال يطلي في كل سحر حتى ذهب مني بطلية. قال: ولقد رأيته وأن في زيق[7] سراويله نورة.

وكان لا يرى الطبخ في القدور الشامية، ولا تبريد الماء في الجرار المذارية[8]؛ لأن هذه ترشح، وتلك تنشف.

الباسياني يطعم لوجه الله

حدثني أبو الجهجاه النوشراني قال: حدثني أبو الأحوص الشاعر قال: كنا نفطر عند الباسياني، فكان يرفع قبلنا. ويستلقي على فراشه ويقول: (إنما

---

(1) اختلف: تردد كثيراً.

(2) إجانة: إناء لغسل الثياب.

(3) النورة: حجر الكلس.

(4) العانة: شعر أسفل البطن.

(5) أرفاغ: مجتمع الوسخ في الجسم.

(6) غمار الناس: زحمتهم.

(7) زيق: طرف.

(8) الجرار المذارية: نوع من الجرار يرشح الماء.

نطعمكم لوجه الله، لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً).

حديث خالد بن يزيد

وهذا خالد بن يزيد مولى المهالبة[1] هو خالويه المكدي[2]، وكان قد بلغ في البخل والتكدية وفي كثرة المال المبالغ التي لم يبلغها أحد.

وكان ينزل في شقّ بني تميم[3]، فلم يعرفوه، فوقف عليه ذات يوم سائل، وهو في مجلس من مجالسهم، فأدخل يده في الكيس ليخرج فلساً، وفلوس البصرة كبار، فغلط بدرهم بَغليّ[4]، فلم يفطن حتى وضعه في يد السائل. فلما فطن استرده، وأعطاه الفلس، فقيل له: هذا لا نظنه يَحلّ، وهو بعد قبيح. قال: قبيح عند من؟ إني لم أجمع هذا المال بعقولكم.. ليس هذا من مساكين الدراهم، هذا من مساكين الفلوس. والله ما أعرفه إلا بالفراسة[5].

قالوا: وإنك لتعرف المكدين؟ قال: وكيف لا أعرفهم؟ وأنا كنت كاجَار[6] في حَدَاثة سني، ثم لم يبق في الأرض مخطراني[7] ولا مستعرض[8] إلا فقته، ولا شحاذ ولا كاغاني[9]، ولا بانوان، ولا قرسي، ولا عوّاء، ولا مشعب، ولا فلور، ولا مزيدي، ولا أسطيل[10] إلا وكان تحت يدي.

---

(1) المهالبة: هم بنو المهلب بن أبي صفرة الشاعر الفارس الأزدي المشهور.

(2) المكدي: المستجدي.

(3) شق: ناحية.

(4) الدرهم البغلي: من النقود التي ضربها رأس البغل لعمر بن الخطاب.

(5) الفراسة: إدراك الباطن من النظر في الظاهر.

(6) كاجار: يطلق على بعض القبائل التركية الضاربة في الأرض وهي تعني الغجر أو النور.

(7) المخطراني: هو المتسول الذي يأتي بزي ناسك ويتظاهر أن لسانه مقطوع.

(8) المستعرض: طالب العراضة وهي أخذ أي شيء من المطلوب منه.

(9) الكاغاني: المتجانن (وجميع هذه الكلمات مشروحة في آخر الحديث).

(10) الأسطيل: المتعامي.

ولقد أكلت الزكوري[1] ثلاثين سنة، ولم يبق في الأرض كعبي ولا مكد، إلا وقد أخذت العرافة عليه حتى خضع لي إسحاق[2] قتَّال الحر، وبنجويه شعر الجمل، وعمرو القوقيل، وجعفر كردي كلك، وقرن أيره، وحمويه عين الفيل، وشهرام حمار أيوب، وسعدويه نائك أمه.

وإنما أراد بهذا أن يوئسهم من ماله، حين عرف حرصهم وجشعهم وسوء جوارهم، وكان قاصاً متكلماً بليغاً داهياً، وكان أبو سليمان الأعور وأبو سعيد المدائني القاصان من غلمانه.

وصيته لابنه

وهو الذي قال لابنه عند موته[3]:

(إني قد تركت لك ما تأكله إن حفظته، وما لا تأكله إن ضيعته، ولما ورثتك من العرف الصالح، وأشهدتك من صواب التدبير، وعودتك من عيش المقتصدين خير لك من هذا المال، ولو دفعتُ إليك آلة لحفظ المال عليك بكل حيلة، ثم لم يكن لك معين من نفسك، لما انتفعت بشيء من ذلك، بل يعود ذلك النهي كله إغراء لك، وذلك المنع تهجيناً لطاعتك.

وقد بلغت في البر منقطع التراب، وفي البحر أقصى مبلغ السفن، فلا عليك ألا ترى ذا القرنين، ودع منك مذاهب ابن شرْية[4]، فإنه لا يعرف إلى

(1) الزكوري: خبز الصدقة.

(2) إسحاق: أحد زعماء المكدين.

(3) ظهرت هذه الوصية مجتمعة في كراسة لما حوته من اللطائف والغرائب، ويبدو أن هذا من صنع الوراقين تحايلاً على الكسب، فاقتطعوا هذا الحديث من كتاب البخلاء، ونسخوه على حدة في كراسة لطيفة الحجم، ليكون أروج لها، وقد رآها (ياقوت) فاعتبرها بهذا الاعتبار، ولم يعرف أنها قطعة من آثار الجاحظ الأدبية التي مثل فيها هذه الناحية الغريبة من الحياة تمثيلاً دقيقاً، فافتتن بها الناس، واستغل الوراقون ذلك، فأخذوا في انتساخها وتقديمها على أنها من حديث شيخ المكدين نفسه، زعماً منهم أن ذلك يكون أروع لها.

(4) ابن شرية: ذكره الجاحظ في الرواة والنسابين والعلماء.

ظاهر الخبر، ولو رآني تميم الداري[1] لأخذ عني صفة الروم، ولأنا أهدي من القطا، ومن دُعيميص[2] ومن رافع المِخَشّ[3]، ورُغتُ[4] عن الجن إلى الحن[5]، واصطدتُ الشِّق[6]، وجاوبت النسناس[7]، وصحبني الرئي[8]، وعرفت خدع الكاهن وتدسيس العرّاف، وإلى ما يذهب الخطاط والعياف، وما يقول أصحاب الأكتاف[9]، وعرفت التنجيم والزجر والطرق والفكر.

إن هذا المال لم أجمعه من القصص والتكدية ومن احتيال النهار ومكابدة الليل، ولا يجمع مثله أبداً إلا من معاناة ركوب البحر، أو من عمل سلطان، أو من كيمياء الذهب والفضة. قد عرفت الرأس[10] حق معرفته، وفهمت كسر الإكسير[11] على حقيقته، ولولا علمي بضيق صدرك، ولولا أن أكون سبباً لتلف نفسك، لعلمتك الساعة الشيء الذي بلغ به قارون، وبه تَبَنَّكَتْ[12] خاتون[13]. والله ما يتسع صدرك عندي لسر صديق، فكيف ما لا يحتمله عزم ولا يتسع له صدر، وخزن سِرّ الحديث، وحبس كنوز الجواهر

---

(1) تميم الداري: هو تميم بن آوس بن خارجة، من بني عبد الدار وكان مقامه مع قبيلته في الشام من ناحية فلسطين أسلم بعد غزوة تبوك وسكن في المدينة.

(2) دعيميص: هو اسم رجل كان دليلاً داهياً يضرب به المثل.

(3) رافع المخش: هو رافع بن عمير الطائي وكان دليلاً في زمان عمر بن الخطاب.

(4) راغ: جاد.

(5) الحن: ضرب من الجن.

(6) الشق: حيوان خرافي نصفه إنسان.

(7) النسناس: ضرب من القرود، وقيل دابة وحشية.

(8) الرئي: الجن.

(9) أصحاب الأكتاف: طائفة من أهل الفراسة يصطنعون في ذلك النظر في الأكتاف.

(10) و(11) الرأس والإكسير: مواد فعالة لتحويل المعادن الخسيسة إلى الذهب والفضة.

(12) تبنكت: تمكنت.

(13) خاتون: ملكة بخارى.

أهون من خزن العلم، ولو كنت عندي مأموناً على نفسك لأجريت الأرواح في الأجساد، وأنت تبصر، إذ كنت لا تفهمه بالوصف ولا تحققه بالذكر، ولكني سألقي عليك علم الإدراك، وسبك الرخام، وصنعة الفسيفساء، وأسرار السيوف القلعية[1]، وعقاقير السيوف اليمانية، وعمل الفرعوني[2]، وصنعة التلطيف[3] على وجهه، إن أقامني الله من صرعتي هذه.

ولست أرضاك وإن كنت فوق البنين، ولا أثق بك وإن كنت لاحقاً بالآباء؛ لأني لم أبالغ في محنتك. إني قد لابست السلاطين والمساكين، وخدمت الخلفاء والمدين، وخالطت النسّاك والفتّاك[4]، وعمرت السجون كما عمرت مجالس الذكر، وحلبت الدهر أشطره[5]، وصادفت دهراً كثيرا الأعاجيب. فلولا أني دخلت من كل باب، وجريت مع كل ريح، وعرفت السراء والضراء، حتى مثلت لي التجارب عواقب الأمور، وقربتني من غوامض التدبير، لما أمكنني جمع ما أخلفه لك، ولا حفظ ما حبسته عليك، ولم أحمد نفسي على جمعه، كما حمدتها على حفظه؛ لأن بعض هذا المال لم أنله بالحزم والكيس[6]، قد حفظته عليك من فتنة البناء، ومن فتنة النساء، ومن فتنة الثناء، ومن فتنة الرياء، ومن أيدي الوكلاء فإنهم الداء العياء.

ولست أوصيك بحفظه لفضل حبي لك، ولكن بفضل بغضي للقاضي، إن الله، جل ذكره، لم يسلط القضاة على أموال الأولاد إلا عقوبة للأولاد؛ لأن

---

(1) القلعي: نسبة إلى القلعة الكائنة في بلاد الهند.

(2) الفرعوني: نوع خاص من الزجاج كان مغشى بطائفة من الأسرار الكيميائية.

(3) صنعة التلطيف: اصطلاح كيميائي.

(4) الفتّاك: واحدها فاتك وهو الشجاع.

(5) حلب الدهر أشطره: جربه وعرف خيره وشره.

(6) الكيس: اللطف والعقل.

أباه إن كان غنياً قادراً أحب أن يريه غناه وقدرته، وإن كان فقيراً عاجزاً أحب أن يستريح من شينه ومن حمل مؤونته، وإن كان خارجاً من الحالين أحبَّ أن يستريح من مداراته، فلا هُمْ شكروا من جمَعَ لهم وكفاهم ووقاهم وغرسهم، ولا هم صبروا على من أوجب الله حقه عليهم. والحق لا يوصف عاجله بالحلاوة، كما لا يوصف عاجل الباطل بالمرارة. فإن كنت منهم فالقاضي لك، وإن لم تكن منهم فالله لك، فإن سلكت سبيلي صار مال غيرك وديعة عندك، وصرتَ الحافظ على غيرك، وإن خالفت سبيلي صار مالك وديعة عند غيرك، وصار غيرك الحافظ عليك، وإنك يوم تطمع أن تضيّع مالك ويحفظه غيرك، لجشع الطمع مخذول الأمل، احتال الآباء في حبس الأموال على أولادهم بالاستبحاث(1)، ما أسرعهم إلى إطلاق الحَجْر، وإلى إيناس الرُّشْد، إذا أرادوا الشراء منهم، وأبطأهم عنهم إذا أرادوا أن تكون أموالهم جائزة لصنائعهم.

يا ابن الخبيثة.. إنك وإن كنت فوق أبناء هذا الزمان، فإن الكفاية قد مَسَختْكَ، ومعرفتك بكثرة ما أخلف قد أفسدتك، وزاد في ذلك أن كنت بكري، وعُجْزَةُ أمِّك(2).

أنا لو ذهب مالي لجلستُ قاصّاً، أو طفت في الآفاق، كما كنت، مكدياً. اللحية وافرة بيضاء، والحلق جهير طلّ، والسمت حسن، والقبول على واقع، إن سألتُ عيني الدمع أجابت، والقليل من رحمة الناس خير من المال الكثير، وصرتُ محتالاً بالنهار، واستعملتُ صناعة الليل، أو خرجتُ قاطع طريق، أو صرتُ للقوم عيناً ولهم مجهراً(3)، سل عني صعاليك الجبل(4)،

(1) الاستبحاث: التفتيش. (2) عُجزةُ أمك: آخر أولادها. (3) مجهر: جاسوس.

وزواقيل الشام[1]، وزُط الآجام، ورؤوس الأكراد، ومردة الأعراب، وفتّاك نهر بَطّ[2]، ولصوص القفص[3]، وسل عني القيقانية[4] والقطرية[5]. وسل عني المتشبهة[6] وذبّاحي الجزيرة، كيف بطشي ساعة البطش، وكيف حيلتي ساعة الحيلة، وكيف أنا عند الرجولة، وكيف ثبات جناني عند رؤية الطليعة. وكيف يقظتي إذا كنت ربيئة، وكيف كلامي عند السلطان إذا أخذت، وكيف صبري إذا جُلدت، وكيف قلة ضجري إذا حُبست، وكيف رسفاني[7] في القيد إذا أثقلت، فكم من ديماس[8] قد نقبته، وكم من مطبق[9] قد أقضيته، وكم من سجن قد كابدته، لم تشهدني وكردويه الأقطع أيام سندان[10]، ولا شهدتني في فتنة سرنديب[11]، ولا رأيتني أيام حرب المولتان[12]، سل عني الكتيفية

---

(4) صعاليك الجبل: يطلق اسم الجبل على المنطقة الواقعة بين العراق غرباً وصحراء إيران الكبرى شرقاً. وبين أذربيجان في الشمال، والأهواز وفارس في الجنوب. فلما كثر الصعاليك انتشروا في الجبل وجعلوا هذه الناحية ملجأ لهم.

(1) الزواقيل: اللصوص وهو الاسم الذي كان يطلق على هذه الطائفة في الشام، كما كان يطلق عليها اسم (الزط) في البصرة.

(2) نهر بط: ذكر ياقوت أنه نهر بالأهواز.

(3) القفص: تطلق هذه الكلمة على جبل في كرمان،ثم أطلقت على أهل هذا الجبل وهم طائفة من الناس يسلكون مع الزط. (4) القيقانية والقطرية: فنسبة إلى قطر في أعراض البحرين على سيف الخط بين عمان والعقير (كما يقول ياقوت).

(5) القيقانية والقطرية: فنسبة إلى قطر في أعراض البحرين على سيف الخط بين عمان والعقير (كما يقول ياقوت). (6) المتشبهة: الذين يتشبهون بالتقى ليصلوا إلى طلبهم.

(7) رسف: مشى مشية المقيد. (8) الديماس: هو سجن الحجاج بواسط.

(9) المطبق: هو سجن العباسيين ببغداد.

(10) سندان: مدينة في ملاصقة السند كما يقول ياقوت. (11) سرنديب: جزيرة في المحيط الهندي.

(12) المولتان: بلد في بلاد الصين على سمت غزنة، وتفسر (المولتان) فرج الذهب.

والخليدية والخريبية، والبلالية[1]، وبقية أصحاب صخر ومُصخر، وبقية أصحاب فاس وراس ومقلاس[2]، ومن لقي أزهر أبا النقم، كان آخر من صادفني حمدويه أبو الأرطال، وأنا مجيب مردويه بن أبي فاطمة، وأنا خلعت بني هانئ، وأنا أول من شرب الغربي حاراً، والبزيل بارداً، وأول من شرب بالعراق بالكبرة[3]، وجعل القنقل[4] قرعة، وأول من ضرب الشاهسبرم[5] على ورق القرع، وأول من لعب باليرمع[6] في البدو، وأسقط الدف المربع من بين الدفاف، وما كان النقاب إلا هداماً حتى نشأت وما كان الاستقفاء إلا استلاباً حتى بلغت.

وأنت يا غلام، لسانك فوق عقلك، وذكاؤك فوق حزمك، لم تعجبك الضراء ولم تزل في السراء، والمال واسع، وذرعك ضيق، وليس شيء أخوف عليك عندي من حسن الظن بالناس، فاتهم شمالك على يمينك، وسمعك على بصرك، وخف عباد الله على حسب ما ترجو الله.

فأول ما أوقع في روعي أن مالي محفوظ عليّ، وأن النساء لازم لي،

---

(1) الكتيفية والخليدية والخريبية والبلالية: الأغلب أنهم جماعات من الغوغاء الذين يبرزون في المدن وقت الفتن، على نحو ما حدث في فتنة الأمين والمأمون مما وصفه الطبري وصفاً ممتعاً. فقال عن الخليدية: إن مما يحتمل أن يكون المراد بهم جماعة المسجونين الذين حكم عليهم بالسجن المؤبد كما تشير إلى ذلك كلمة (الخلد) بمعنى التخليد في السجن، وعلى هذا تكون الكتيفية الذين شد كتافهم، وأما البلالية: فهي طائفة من المقاتلة بالبصرة منذ بدء ثورة الزنج فيها، كما يؤخذ من الطبري والمسعودي. وأما الخريبية: فقد قال عنها إنها طائفة من الشيعة كانت تشتهر بأنها لا تحقر السرقة والنهب.

(2) مقلاس: زعيم من زعماء العصابات، وهذا الاسم يعتبر من الأسماء القومية القديمة في العراق.

(3) الكبرة: ضرب من الأقداح كبير الحجم.

(4) القنقل: مكيال من المكاييل الضخمة.

(5) الشاهسبرم: نوع من الرياحين، وقد يسمى شاهسغرم، يقال له الريحان السلطاني أو سلطان الرياحين.

(6) اليرمع: نوع من الحصى له لمعان سريع التفتت.

وأن الله سيحفظ عقبي من بعدي، إني ما غلبتني يوماً شهوتي، وأخرجت يوماً درهماً لقضاء وطري، ووقعت عيني على سكته، وعلى اسم الله المكتوب عليه، قلت في نفسي: إني إذاً لمن الخاسرين الضالين، لئن أنا أخرجت من يدي ومن بيتي شيئاً عليه: (لا إله إلا الله) وأخذت بدله شيئاً ليس عليه شيء، والله إن المؤمن لينزع خاتمه لأمر يريده، وعليه: (حسبي الله)، أو (توكلت على الله) فيظن أنه قد خرج من كنف الله –جل ذكره– حتى يردّ الخاتم في موضعه، وإنما هو خاتم واحد، وأنا أريد أن أخرج في كل يوم درهماً عليه الإسلام كما هو!.. إن هذا لعظيم).

ومات من ساعته، وكفنه ابنه ببعض خلقانه، وغسله بماء البئر، ودفنه من غير أن يضرح له، أو يلحد له ورجع.

فلما صار في المنزل نظر إلى جرة خضراء معلقة، قال: أي شيء في هذه الجرة؟ قالوا: ليس اليوم فيها شيء. قال: فأي شيء كان فيها قبل اليوم؟ قالوا: سمن، قال: وما كان يصنع به؟ قالوا: كنا في الشتاء نلقي له في البرمة شيئاً من دقيق نعمله له، فكان ربما برقه بشيء من سمن. قال: يقولون ولا يفعلون!.. السمن أخو العسل، وهل أفسد الناس أموالهم إلا في السمن والعسل؟ والله إني لولا أن للجرة ثمناً لما كسرتها إلا على قبره.

قالوا: فخرج فوق أبيه.. وما كنا نظن أن فوقه مزيداً.

* * *

شرح الكلمات الواردة في الحديث

أصناف الشحادين:

المخطراني: الذي يأتيك في زي ناسك، ويريك أن بابك[1] قد قوّر لسانه

(1) بابك الخرمي: القائد الذي حارب المعتصم.

من أصله، لأنه كان مؤذناً هناك، ثم يفتح فاه كما يصنع من يتثاءب، فلا ترى له لساناً البتة، ولسانه في الحقيقة كلسان الثور، وأنا أحد من خدع بذلك. ولا بد للمخطراني أن يكون معه واحد يعبِّر عنه، أو لوحٌ أو قرطاس قد كتب فيه شأنه وقصته.

والكاغاني: الذي يتجنن[1] ويتصارع[2] ويزبد، حتى لا يشك أنه مجنون لا دواء له، لشدة ما ينزل بنفسه، وحتى يتعجب من بقاء مثله على مثل علته.

والبانوان: الذي يقف على الباب ويسل الغلق، ويقول: بانوا. وتفسير ذلك بالعربية: يا مولاي.

والقرسي: الذي يعصب ساقه وذراعه عصباً شديداً، ويبيت على ذلك ليلة، فإذا تورم واختنق الدم، مسحه بشيء من صابون ودم الأخوين[3]، وقطر عليه شيئاً من سمن، وأطبق عليه خرقة، وكشف بعضه فلا يشك من رآه أن به الإكلة[4] أو بلية شبه الأكلة.

والمشعب: الذي يحتال للصبي حين يولد، بأن يعميه أو يجعله أعسم[5] أو أعضد[6]، ليسأل الناس به أهله، وربما جاءت به أمه وأبوه ليتولى ذلك منه بالغرم الثقيل[7]؛ لأنه يصير حينئذ عقدة[8] وغلة، فإما أن

---

(1) يتجنن: يتظاهر بأنه مجنون.

(2) يتصارع: يتظاهر بأنه مصروع.

(3) دم الأخوين: نوع من العقاقير، وقد يسمى القاطر، والأيدع، ودم التنين، ودم الثعبان وهو صمغ شجرة يؤتى به من جزيرة سقطرى.

(4) الأكلة: الحكة.

(5) أعسم: معوج رسغ اليد أو الرجل.

(6) أعضد: دقيق العضد.

(7) الغرم الثقيل: الأجر الكبير. (8) عقدة: عقار.

يكتسبا به، وإما أن يكرياه بكراء معلوم، وربما أكروا أولادهم ممن يمضي إلى إفريقيا، فيسأل بهم الطريق أجمع، بالمال العظيم، فإن كان ثقة مليئاً، وإلا أقام بالأولاد والأجرة كفيلاً.

والفلّور: الذي يحتال لخصيته، حتى يريك أنه آدر[1]، وربما أراك أن بها سرطاناً أو خُرّاجاً أو غَرَباً، أو بما أرى ذلك في دبره بأن يدخل فيه حلقوماً ببعض الرئة، وربما فعلت ذلك المرأة بفرجها.

والكاغان: الغلام المكدّي إذا واجر، وكان عليه مسحة جمال، وعمل العملين جميعاً.

والعوّاء: الذي يسأل بين المغرب والعشاء، وربما طرّب، إن كان له صوت حسن وحلق شجي.

والأسطيل: هو المتعامي، إن شاء أراك أنه منخسف العينين[2] وإن شاء أراك أن بهما ماء، وإن شاء أراك أنه لا يبصر، للخسف ولريح السّبل[3].

والمزيدي: الذي يدور ومعه الدريهمات، ويقول: هذه دراهم قد جمعت لي في ثمن قطيفة[4]، فزيدوني فيها رحمكم الله، وربما احتمل صبياً على أنه لقيط، وربما طلب في الكفن.

والمُستعرِض: الذي يقف على الميت يسأل في كفنه، ويقف في طريق

---

(1) آدر: من كان في خصيته نفخة.

(2) منخسف العينين: أي ذهبت عيناه.

(3) ريح السبل: هو داء يصيب في العين شبه غشاوة كأنها نسيج العنكبوت بعروق حمر، ويكون معها سيلان وحمرة وحكة وحرقة.

(4) قطيفة: دثار من المخمل يستعمل غطاء عند النوم.

مكة على الحمار الميت، والبعير الميت فيدّعي أنه كان له، ويزعم أنه قد أحصر[1]، وقد تعلم لغة الخراسانية واليمانية والإفريقية، وتعرّف تلك المدن والسكك والرجال، وهو متى شاء كان إفريقياً، ومتى شاء كان من أهل فرغانة[2]، ومتى شاء كان من أي مخاليف اليمن شاء.

والمكدّي: صاحب الكداء.

والكعبي: أضيف إلى أبي بن كعب الموصلي، وكان عريفهم بعد خالويه سنة على ماء.

والزكوري: هو خبز الصدقة، كان على سجين أو على سائل.

* * *

هذا تفسير ما ذكر خالويه فقط، وهم أضعاف ما ذكرنا في العدد، ولم يكن يجوز أن تتكلف شيئاً ليس من الكتاب في شيء.

يزعمون أن خبزي صغار

رفع يحيى بن عبد الله بن خالد بن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد رغيفاً من خوانه بيده، ثم رطله[3] والقوم يأكلون، ثم قال: يزعمون أن خبزي صغار. أي ابن زانية يأكل من هذا الخبز رغيفين؟!.

ما ضحك.. ولا خجل

وكنت أنا وأبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظّام، وقطرب النحوي[4]، وأبو الفتح مؤدب منصور بن زياد، على خوان فلان بن فلان، والخوان من

---

(1) أحصر: أي تعطل عن المضي في رحلته بسبب موت حماره أو بعيره.

(2) فرغانة: مدينة في بلاد العجم بناها أنو شروان.

(3) رطله: رازه.

(4) قطرب النحوي: أبو علي محمد بن المستنير نحوي لغوي من أهل البصرة.

جزعة[1]، والغضار[2] صيني ملمع، أو خلنجية كيماكية[3]، والألوان طيبة شهية وغذية قدية، وكل رغيف في بياض الفضة، كأنه البدر مرآة مجلوة، ولكنه على قدر عدد الرؤوس، فأكل كل إنسان رغيفه إلا كسرة، ولم يشبعوا فيرفعوا أيديهم، ولم يمدوا بشيء فيتموا أكلهم والأيدي معلقة، وإنما هم في تنقير وتنتيف.

فلما طال ذلك عليهم، أقبل الرجل على أبي الفتح، وتحت القصعة رقاقة، فقال: يا أبا الفتح خذ ذلك الرغيف فقطعه واقسمه على أصحابنا. فتغافل أبو الفتح، ثم أعاد عليه القول، فتغافل. فلما أعاد عليه القول الرابعة قال: مالك ويلك لا تقطعه بينهم؟!.. قطع الله أوصالك!.. قال: تُبتلى على يدي غيري أصلحك الله!.. فخجلناه مرة، وضحكنا مرة، وما ضحك صاحبنا ولا خجل.

لم يشربه الحمار

وزرته أنا والمكي[4]، وكنت أنا على حمار مكاري[5]، والمكي على حمار مستعار فصار الحمار إلى أسوأ من حال الزَّور، فكلم المكي غلمانه فقال: لا أريد منكم التبن فما فوقه، اسقوه ماء فقط، فسقوه ماء بئر، فلم يشربه الحمار، وقد مات عطشاً، فأقبل المكي عليه، فقال: أصلحك الله!..

(1) جزعة: قطعة من خشب.

(2) الغضار: أواني الطعام.

(3) خلنجية كيماكية: جاءت هذه العبارة في وصف آنية الطعام أنها مصنوعة من الخلنج (وهو شجر تتخذ من خشبه الأواني) وكيماكية: نسبة إلى (كيماك) وهي ولاية واسعة في حدود الصين وأهلها ترك، وقد اشتهرت هذه الصناعة هناك.

(4) المكي: يكثر الجاحظ من ذكره، وكنيته أبو إسحاق، نشأ في مكة وهاجر إلى العراق فاتخذ البصرة موطناً واتصل بالمعتزلة.

(5) مكاري: من أكرى الدابة أي آجرها.

إنهم يسقون حماري ماء بئر، ومنزل صاحب الحمار على شارع دجلة، فهو لا يعرف إلا العذب، قال: فامزجوه يا غلام. فمزجوه، فلم يشربه، فأعاد المسألة فأمكنه من أذن من لا يسمع إلا ما يشتهي.

أي شيء طبائع هؤلاء؟!

وقال لي مرة: يا أخي إن ناساً من الناس يغمسون اللقمة إلى أصبارها[1] في المري[2]، فأقول؛ هؤلاء قوم يحبون الملوحة ولا يعجبون بالحامض، فما ألبث أن أرى أحدهم يأخذ حرف الجردقة، فيغمسها في الخل بعد التغريق ساعة، فأقول: هؤلاء قوم يجمعون حُبّ الحموضة إلى حب الملوحة. ثم لا ألبث أن أراهم يصنعون مثل ذلك بالخردل، والخردل لا يرام. قل لي أي شيء طبائع هؤلاء؟ وأي ضرب هم؟ وما دواؤهم؟ وأي شيء علاجهم؟.

فلما رأيت مذهبه وحمقه، وغلبة البخل عليه، وقهره له، قلت: ما لهم عندي علاج هو أنجع فيهم من أن يمنعوا الصباغ[3] كله، قال: لا والله إن هو غيره!..

ابتلينا بمؤاكلته

وصديق لنا آخر، كنا قد ابتلينا بمؤاكلته. وقد كان ظن أنا قد عرفناه بالبخل على الطعام، وهجس ذلك في نفسه، وتوهم أنا قد تذاكرنا أمره، فكان يتزيد في تكثير الطعام، وفي إظهار الحرص على أن يؤكل، حتى قال: من رفع يده قبل القوم غرمناه ديناراً، فيرى بعضهم أن غرم دينار أولى فذلك منه محتمل في رضا قلبه، وما يرجو من نفع ذلك له.

---

(1) أصبارها: أجمعها.

(2) المري: اللبن.

(3) الصباغ: الإدام.

خبز العيال والضيف لا تقربنه من النار

ولقد خبرني خباز لبعض أصحابنا أنه جلده على انضاج الخبز، وأنه قال له: أنضج خبزي الذي يوضع بين يدي، واجعل خبز من يأكل معي على مقدار بين المقدارين، وأما خبز العيال والضيف فلا تقربنه من النار إلا بقدر ما يصير العجين رغيفاً، وبقدر ما يتماسك فقط، فلفه العويص، فلما أعجزه ذلك جلده حد الزاني الحرّ.

ثمانون جلدة للشوّاء

فحدثت بهذا الحديث عبد الله العروضي[1] فقال: ألم تعرف شأن الجدي؟ ضرب الشوّاء ثمانين سوطاً لمكان الإنضاج، وذلك أنه قال له: ضع الجدي في التنور حين نضع الخوان، حتى أستبطئك أنا في إنضاجه، وتقول أنت: بقي قليل، ثم تجيئنا به وكأني قد أعجلتك، فإذا وضع بين أيديهم غير منضج، احتسبت عليهم بإحضار الجدي فإذا لم يأكلوه أعدته إلى التنور، ثم أحضرتنا إياه الغد بارداً، فيقوم الجدي الواحد مقام جديين، فجاء به الشوّاء يوماً نضيجاً، فعمل فيه القوم. فجلده ثمانين جلدة، جلد القاذف الحُرّة.

تصريح إلى المطبخ أولاً

حدثني أحمد بن المثنى[2]، عن صديق لي وله، ضخم البدن، كثير العلم، فاشي الغلة عظيم الولايات، أنه إذا دُعي على مائدته بفضل دجاجة أو فضل رقاق أو غير ذلك، رد الخادم مع الخباز إلى القهرمان[3] حتى يصك[4] له بذلك إلى صاحب المطبخ.

---

(1) عبد الله العروضي: كان من أصحاب الجاحظ الذين يتحدث إليهم، ويروي عنهم.

(2) أحمد بن المثنى: يستفاد من كتاب الحيوان للجاحظ أن هذا الرجل كان على شيء من المعرفة بالحيوان.

(3) القهرمان: الوكيل.

(4) يصك له: يعطيه ترخيصاً إلى المطبخ لإرسال الطعام.

جئني بواحدة رخصة

ولقد رأيته مرة وقد تناول دجاجة، فشقها نصفين، فألقى نصفها إلى الذي عن يمينه، ونصفها إلى الذي عن شماله، ثم قال: يا غلام، جئني بواحدة رخصة، فإن هذه كانت عضلة جداً[1]، فحسبت أن أقل ما عند الرجلين ألا يعودا إلى مائدته أبداً، فوجدتهما قد فخرا عليّ بما حباهما به من ذلك دوني.

الليل أخفى للويل

وكانوا ربما خصوه، فوضعوا بين يديه الدراجة[2] السمينة، والدجاجة الرخيصة. فانطفأت الشمعة في ليلة من تلك الليالي، فأغار عليَّ الأسواري[3] على بعض ما بين يديه واغتنم الظلمة، وعمل على أن الليل أخفى للويل، ففطن له – وما هو بالفَطِنِ إلا في هذا الباب– وقال: كذلك الملوك كانت لا تأكل مع السوقة.

تصنيف الخبز

وحدثني أحمد بن المثنى أنهم كانوا يعمدون إلى الجُرادق[4] التي ترفع عن مائدته، فما كان منها ملطخاً دلك ذلك دلكاً شديداً، وما كان منها قد ذهب جانب منه، قطع بسكين من ترابيع الرغيف مثل ذلك، لئلا يشك من رآه أنهم قد تعمدوا ذلك، وما كان من الأنصاف والأرباع جعل بعضه للثريد، وقُطِع بعضه كالأصابع، وجُعل مع بعض القلايا.

---

(1) عضلة: مكتنزة.

(2) الدراجة: نوع من الحجل.

(3) علي الأسواري: هو علي بن خالد الأسواري كان متكلماً من متكلمي المعتزلة، وقد عدَّه المرتضى في الطبقة السابعة منهم، ورد اسمه في رسالة التربيع والتدوير للجاحظ.

(4) الجرادق: واحدها جرداق وجردقة: الرغيف (فارسية).

ثريدته بلقاء

ولقد رأيت رجلاً ضخماً فخم اللفظ فخم المعاني، تربية في ظل ملك، مع علمٍ جمّ ولسان عضب[1]، ومعرفة بالغامض من العيوب والدقيق من المحاسن، وإن ثريدته لبلقاء[2]، إلا أن بياضها ناصع، ولونها الآخر أصهب[3]، فرأيت ذلك مرة أو مرتين، وكنت قد هممت قبل ذلك أن أعاتبه على الشيء يستأثر به ويخصّ به، وأن أحتمل ثقل تلك النصيحة وبشاعتها في حظه وفي النظر له، ورأيت أن ذلك لا يكون إلا من حاق الإخلاص ومن فرط الإخاء بين الإخوان. فلما رأيت البلقة، هان علي التحجيل والغرّة، ورأيت أن ترك الكلام أفضل وأن الموعظة لغو.

ثريدة مالك بن المنذر

وقد زعم أبو الحسن المدائني[4] أن ثريدة مالك بن المنذر[5]، كانت بلقاء. ولعل ذلك أن يكون باطلاً. وأما أنا فقد رأيت بعيني من هذا الرجل ما أخبرك به، وهو شيء لم أره إلا فيه ولا سمعت به في غيره.

يقول الجاحظ:

ولسنا من تسمية الأصحاب المتهتكين ولا غيرهم من المستورين في

---

(1) عضب: قاطع كالسيف.

(2) بلقاء: فيها سواد وبياض، إشارة إلى الشحم واللحم الذي فيها.

(3) أصهب: يخالط بياضه حمرة.

(4) أبو الحسن المدائني: هو علي بن محمد بن عبد الله، نسب إلى المدائن، وإن كان بصري المولد والمنشأ، إلا أنه سار إلى المدائن، ثم انتقل من المدائن إلى بغداد. يقول أحمد بن يحيى النحوي: (من أراد أخبار الإسلام فعليه بكتب المدائني).

(5) مالك بن المنذر: هو مالك بن المنذر بن الجارود العبدي، وكان أبوه صحابياً جليلاً، ممن شهد الجمل مع علي، وقد نشأ مالك بالبصرة، ولي أحداثها في أيام خالد بن عبد الله القسري، وقد كان فيما يبدو معتزاً بمكانه فهو ابن المنذر بن الجارود العبدي، وأمه بحرية بنت مالك بن مسمع.

شيء. أما الصاحب فإنا لا نسميه لحرمته وواجب حقه، والآخر لا نسميه لستر الله عليه، ولما يجب لمن كان في مثل حاله. وإنما نسمي من خرج من هاتين الحالين. ولربما سمينا الصاحب إذا كان ممن يمازح بهذا كثيراً، ورأيناه يتظرف[1] به، ويجعل ذلك الظرف سلماً إلى منع شينه.

قصة أبي جعفر

ولم أرَ مثل أبي جعفر الطرسوسي:

زار قوماً فأكرموه وطيبوه، وجعلوا في شاربه وسبلته غالية[2]، فحكته شفته العليا، فأدخل إصبعه فحكها من باطن الشفة، مخافة أن تأخذ إصبعه في الغالية شيئاً إذا حكها من فوق.

وهذا وشبهه إنما يطيب جداً إذا رأيت الحكاية بعينك؛ لأن الكتاب لا يصور لك كل شيء، ولا يأتي لك على كنهه، وعلى حدوده وحقائقه.

قصة الحزامي

وأما أبو محمد الحزامي، عبد الله بن كاسب، كاتب مويس، وكاتب داوود بن أبي داوود، فإنه كان أبخل من برأ الله، وأطيب من برأ الله، وكان له في البخل كلام، وهو أحد من ينصره ويفضله، ويحتج له ويدعو إليه.

وأنه رآني مرة في تشرين الأول، وقد بكر البرد شيئاً، فلبست كساء لي قُومسياً خفيفاً، قد نيل منه، فقال لي: ما أقبح السرف بالعاقل، وأسمج الجهل بالحكيم!.. ما ظننت أن إهمال النفس وسوء السياسة بلغ بك ما أرى.

قلت: وأي شيء أنكرت منا مُذ اليوم، وما كان هذا قولك فينا بالأمس؟ فقال: لبسك هذا الكساء قبل أوانه. قلت: قد حدث من البرد بمقداره. ولو كان

(1) يتظرف: يتكلف الظرف.

(2) الغالية: أخلاط من الطيب.

هذا البرد الحادث في تموز وآب لكان إباناً لهذا الكساء.

قال: إن ذلك كذلك، فاجعل بدل هذه المبطنة جبة محشوة، فإنها تقوم هذا المقام، وتكون قد خرجت من الخطأ، فأما لبس الصوف اليوم، فهو غير جائز.

قلت: ولِمَ؟ قال: لأن غبار آخر الصيف يتداخله ويسكن في خلله، فإذا أمطر الناس وندي الهواء وابتل كل شيء، ابتل ذلك الغبار. وإنما الغبار تراب، إلا أنه لباب التراب، وهو مالح، ويتقبض عند ذلك عليه الكساء ويتكرّش، لأنه صوف، فتنضم أجزاؤه عليه، فيأكله أكل القادح[1]، ويعمل فيه عمل السوس، ولهو أسرع فيه من الأرضة[2]، في الجذوع النجرانية. ولكن أخّر لبسه، حتى إذا مطر الناس، وسكن الغبار، وتلبد التراب، وحطّ المطر ما كان في الهواء من الغبار وغسله وصفّاه، فالبسه حينئذ على بركة الله.

نار المعدة شيطان

وكان يقع إلى عياله بالكوفة كل سنة مرة، فيشتري لهم من الحب مقدار طبيخهم وقوت سنتهم، فإذا نظر إلى حب هذا وإلى حب هذا، وقام على سعره اكتال من كل واحد منها كيلة معلومة ووزنها بالميزان. واشترى أثقلها وزناً، وكان لا يختار على البلدي والموصلي شيئاً، إلا أن يتقارب السعر، وكان على كل حال يفر من الميساني، إلا أن يضطر إليه، ويقول: هو ناعم ضعيف، ونار المعدة شيطان، فإنما ينبغي لنا أن نطعم الحجر وما أشبه الحجر.

* * *

(1) القادح: دودة تنخر الشجر. (2) الأرضة: دويبة تنخر الأخشاب والورق.

وقلت مرة: أعلمت أن خبز البلدي ينبت عليه شيء شبيه بالطين والتراب والغبار المتراكم؟

قال: حبذا ذلك من خبز، وليته قد أشبه الأرض بأكثر من هذا المقدار!..

لا يتبخر على القميص الجديد

وكان إذا كان جديد القميص ومغسوله، ثم أتوه بكل بخور في الأرض لم يتبخر، مخافة أن يسوّد دخان العود بياض قميصه، فإن اتسخ فأتي بالبخور، لم يرض بالتبخر واستقصاء ما في العود من القتار[1]، حتى يدعو بدهن فيمسح به صدره وبطنه وداخلة إزاره، ثم يتبخر، ليكون أعلق للبخور.

وكان يقول: حبذا الشتاء فإنه يحفظ عليك رائحة البخور، ولا يحمض فيه النبيذ إن ترك مفتوحاً، ولا يفسد فيه مرق إن بقي أياماً، وكان لا يتبخر إلا في منازل أصحابه، فإذا كان في الصيف دعا بثيابه فلبسها على قميصه لكيلا يضيع من البخور شيء.

إنَّ للشيب سَهْكَة

وقال مرة: إن للشيب سَهْكَة[2]، وبياض الشعر الأسود هو موته، وسواده حياته، ألا ترى أن موضع دبرة[3] الحمار الأسود لا ينبت إلا أبيض؟ والناس لا يرضون منا في العسكر إلا بالعناق واللثام، والطيب غال، وعادته رديئة، وينبغي لمن كان أيضاً عنده أن يحرسه ويحفظه من عياله. وإن العطار ليختمه على أخصّ غلمانه به، فلست أرى شيئاً هو خير من اتخاذ

(1) القتار: رائحة الدخان الذي يتصاعد من البخور (في هذا الموضع)، فلها معان أخرى.

(2) سهكة: ريح كريهة.

(3) دبرة الحمار: قرحة الحمار تحدث من احتكاك الرحل ونحوه.

مشط صندل[1]، فإن ريحه طيبة، والشعر سريع القبول، وأقل ما يصنع أن ينفي سهك الشيب، فصرنا في حال لا لنا ولا علينا.

فكان عِطر الحزامي إلى أن فارق الدنيا مشط صندل، إلا أن يطيبه صديق.

من أسباب الإفلاس طمع الناس

واستسلف منه علي الأسواري مئة درهم، فجاءني وهو حزين منكسر، فقلت له: إنما يحزن من لا يجد بداً من إسلاف الصديق مخافة ألا يرجع إليه ماله ولا يعد ذلك هبة منه، أو رجل يخاف الشيكة، فهو إن لم يسلف كرماً أسلف خوفاً، وهذا باب الشهرة فيه هي قرة عينك، وأنا واثق باعتزامك وتصميمك، وبقلة المبالاة بتبخيل الناس لك. فما وجه انكسارك واغتنامك؟

قال: اللهم غفراً!.. ليس ذاك بي، إنما بي أني قد كنت أظن أن أطماع الناس قد صارت بمعزل عني وآيسه مني. وأني قد أحكمت هذا الباب وأتقنته.. وأودعت قلوبهم اليأس، وقطعت أسباب الخواطر، فأراني واحداً منهم. إن من أسباب إفلاس المرء طمع الناس فيه؛ لأنهم إذا طمعوا فيه احتالوا له الحيل ونصبوا له الشرك[2]، وإذا يئسوا منه فقد أمن، وهذا المذهب من (علي) استضعاف شديد، وما أشك أني عنده غِمْر[3]، وأني كبعض من يأكل ماله، وهو مع هذا خليط[4]، وعشير، وإذا كان مثله لم يعرفني، ولم يتقرر عنده مذهبي، فما ظنك بالجيران؟ بل ما ظنك بالمعارف؟ أراني أنفخ

---

(1) الصندل: شجر هندي أبيض الزهر خشبه طيب الرائحة.

(2) الشرك: حبائل الصيد.

(3) غمر: غير مجرب.

(4) خليط: صاحب، جليس.

في غير فحم، وأقدم بزندٍ مصلد[1]، ما أخوفني أن أكون قد قصد إليَّ بقول. ما أخوفني أن يكون الله في سمائه قد قصد إلى أن يفقرني.

أليس يتخبل في قميصي

قال: ويقولون: ثوبك على صاحبك أحسن منه عليك، فما يقولون: إن كان أقصر مني؟ أليس يتخبل في قميصي؟ وإن كان طويلاً جداً وأنا قصير جداً فلبسه، أليس يصير آية للسائلين؟ فمن أسوأ أثراً على صديقه ممن جعله ضحكة للناس؟ ما ينبغي لي أن أكسوه حتى أعلم أنه فيه مثلي. ومتى يتفق هذا، وأنَّى ذاك محيا وممات؟

أشتهي لحم دجاجتين

وكان يقول: أشتهي اللحم الذي قد تهرأ.. وأشتهي أيضاً الذي فيه بعض الصلابة.

وقلت له مرة: ما أشبهك بالذي قال: أشتهي لحم دجاجتين. قال: وما تصنع بذلك القائل؟ هو ذا أنا أشتهي لحم دجاجتين: واحدة خلاسية[2] مسمنة، وأخرى خوامزكة[3] رخصة.

لا أعدمني الله هذا الاسم

وقلت له مرة، قد رضيت بأن يقال: عبد الله بخيل؟ قال: لا أعدمني الله هذا الاسم. قلت: وكيف؟ قال: لا يقال فلان بخيل إلا وهو ذو مال، فسلِّم إليَّ المال، وادعني بأي اسمٍ شئت.

قلت: ولا يقال أيضاً فلان سخي إلا وهو ذو مال. فقد جمع هذا الاسم

---

(1) مصلد: لا يشعل.

(2) خلاسية: نوع من الدجاج كان معروفاً. (3) خوامزكة: نوع آخر من الدجاج (والكلمة فارسية).

الحمد والمال، واسم البخل يجمع المال والذم. فقد اخترت أخسهما وأوضعهما. قال: وبينهما فرق. قلت: فهاته. قال: في قولهم بخيل تثبيت لإقامة المال في ملكه، وفي قولهم: سخي، أخبار عن خروج المال من ملكه. واسم البخيل اسم فيه حفظ وذم، واسم السخي اسم في تضييع وحمد. والمال زاهر نافع مكرم لأهله معز، والحمد ريحٌ وسخرية، واستماعك له ضعفٌ وفسولة[1]، وما أقل غناء الحمد، والله، عنه، إذا جاع بطنه، وعري جلده، وضاع عياله، وشمت به من كان يحسده.

لو ابتليت بأحدهما لم أقم له

وكنا عند داوود بن أبي داوود بواسط، أيام ولايته (كَسْكَر)، فأتته من البصرة هدايا فيها زقاق دبس، فقسمها بيننا، فكلنا أخذ ما أُعطِيَ غيره.

فأنكرت ذلك من مذهبه، ولم أعرف جهة تدبيره، فقلت للمكي: قد علمت أن الحزامي إنما يجزع من الإعطاء، وهو عدوه. فأما الأخذ فهو ضالته وأمنيته، وأنه لو أعطي أفاعي سجستان، وثعابين مصر، وحيات الأهواز، لأخذها، إذ كان اسم الأخذ واقعاً عليها، فعساه أراد التفضيل في القسمة.

قال: أنا كاتبه، وصداقتي أقدم، وما ذلك به، وإن هاهنا أمراً ما نقع عليه.

فلم يلبث أن دخل علينا، فسألته عن ذلك، فتعصَّر قليلاً، ثم باح بسره، قال: وضيعته أضعاف ربحه، وأخذه عندي من أسباب الإدبار. قلت: أول وضائعه احتمال الشكر. قال: هذا لم يخطر لي قط على بال. قلت: فهات إذاً ما عندك.

---

(1) الغسولة: الضعف والفتور في الأمر.

قال: أول ذلك كراء الحمال، ثم هو على خطر حتى يصير إلى المنزل، فإذا صار إلى المنزل، صار سبباً لطلب العصيدة[1] والأرزة، والبستندود[2]، فإن بعته فراراً من هذا، صيرتموني شهرة، وتركتموني عنده آية. وإن أنا حبسته، ذهب في العصائد وأشباه العصائد. وجذب ذلك شراء السمن، ثم جذب السمن غيره، وصار في هذا الدبس أضر علينا من العيال.

وإن أنا جعلته نبيذاً، احتجت إلى كراء القدور، وإلى شراء الحب، وإلى شراء الماء، وإلى كراء من يوقد تحته، وإلى التفرغ له. فإن وليت ذلك الخادم اسودّ ثوبها، وغرمنا ثمن الأشنان[3] والصابون، وازدادت في الطعم على قدر الزيادة في العمل، فإن فسد ذهبت النفقة باطلاً، ولم نستحلف منها عوضاً بوجه من جميع الوجوه؛ لأن خل الداذي يخضب اللحم، ويغيِّر الطعم، ويسوِّد المرق، ولا يصلح للاصطباغ، وهذا إذا استحال خلاً، وأكثر ذلك أن يحول عن النبيذ، ولا يصير إلى الخل. وإن سلم – وأعوذ بالله– وجاد وصفا، لم نجد بداً من شربه، ولم تطب أنفسنا بتركه، فإن قعدت في البيت أشرب منه، لم يمكن إلا بترك سلاف الفارسي المعسل، والدجاج المسمن، وجداء كسكر[4]، وفاكهة الجبل، والنقل الهش والريحان الغض، عند من لا يغيض ماله، ولا تنقطع مادته، وعند من لا يبالي على أي قطريه[5] سقط، مع فوت الحديث المؤنس والسماع الحسن.

---

(1) العصيدة: دقيق يلتُّ بالسمن ويطبخ.

(2) البستندود: نوع من الفطائر المحشوة. (والكلمة فارسية).

(3) الأشنان: ما تغسل به الأيدي من الحمض.

(4) جداء كسكر: أكثر ما تعرف به كسكر من هذا القبيل هو جدائها. ويقول المسعودي: (ومما ينسب إلى كسكر الجداء والسمك والصحناء). وقد كان للجدي مكان ممتاز في نظام المائدة في عهد الجاحظ.

(2) قطريه: جنبيه.

وعلى أني إن جلست في البيت أشربه، لم يكن لي بد من واحد، وذلك الواحد لا بد له من دريهم لحم، ومن طسُّوج[1] نقل، وقيراط ريحان، ومن أبزار للقدر، ومن حطب للوقود. وهذا كله غرم. وهو بعد هذا شؤم وحرفة وخروج من العادة الحسنة. فإن كان ذلك النديم غير موافق، فأهل الحبس أحسن حالاً مني. وإن كان – وأعوذ بالله– موافقاً، فقد فتح الله على مالي باباً من التلف؛ لأنه حينئذ يسير في مالي كسيري في مال من هو فوقي. وإذا علم الصديق أن عندي زائراً ونبيذاً، دقَّ الباب المدل. فإن حجبناه فبلاءٌ، وإن أدخلناه فشقاء!..

وإن بدا لي في استحسان حديث الناس كما يستحسنه مني من أكون عنده، فقد شاركت المسرفين، وفارقت إخواني من المصلحين، وصرت من إخوان الشياطين، فإذا صرت كذلك، فقد ذهب كسبي من مال غيري، وصار غيري يكسب مني، وأنا لو ابتليت بأحدهما لم أقم له، فكيف إذا ابتليت بأن أعطي ولا آخذ، أعوذ بالله من الخذلان بعد العصمة، ومن الحَوْر بعد الكَوْرِ[2]، لو كان هذا في الحداثة كان أهون.

هذا الدّوشاب[3] دسيسٌ من الحرفة، وكيد من الشيطان، وخدعة من الحسود، وهو الحلاوة التي تعقب المرارة، ما أخوفني أن يكون أبو سليمان قد ملّ منادمتي، فهو يحتال لي الحيل.

(1) طسوج: ربع الدانق، والدانق سدس الدرهم.

(2) الحور بعد الكور: أي النقصان بعد الزيادة.

(3) الدوشاب: الدبس الذي أهدي له.

تظلمون المصلح لماله باسم البخل

وكنا مرة في موضع حشمة، وفي جماعات كثيرة، والقوم سكوت، والمجلس كبير، وهو بعيد المكان مني، فأقبل عليّ المكيّ وقال، والقوم يسمعون، فقال: يا أبا عثمان، من أبخل أصحابنا؟

قلت: أبو الهذيل، قال: ثم من؟ قلت: صاحب لنا لا أسمّيه.

قال الحزامي من بعيد: إنما يعنيني. ثم قال: حسدتم للمقتصدين تدبيرهم، ونماء أموالهم، ودوام نعمته، فالتمستم تهجينهم[1] بهذا اللقب، وأدخلتم المكر عليهم بهذا النبز[2]، تظلمون المتلف لماله باسم الجود، إدارة له عن شيئه. وتظلمون المصلح لماله باسم البخل، حسداً منكم لنعمته، فلا المفسد ينجو ولا المصلح يسلم.

خالد القسري يدافع عن البخل

قال أبو عبيدة: بلغ خالد بن عبد الله القسري[3] أن الناس يرمونه بالبخل على الطعام، فتكلم يوماً، فما زال يدخل كلاماً في كلام، حتى أدخل الإعتذار من ذلك في عرض كلامه، فكان مما احتج به في شدة رؤية الأكيل عليه، وفي نفوره منه، أن قال: نظر خالد المهزول في الجاهلية يوماً إلى ناس يأكلون، وإلى إيل تجتر، فقال لأصحابه، أتروني بمثل هذه العين التي أرى بها الناس والإبل؟ قالوا: نعم، فحلف بإلهه ألا يأكل بقلاً، وإن مات هزلاً، فكان يغتذي اللبن، ويصيب من الشراب، فأضمره ذلك وأيبسه، فلما دقّ جسمه، واشتد هزاله، سمي المهزول.

---

(1) التهجين: التقبيح.

(2) النبز: اللقب.

(3) القسري: هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد البجلي القسري، أحد سادة العصر الأموي، ولي العراق في عهد هشام بن عبد الملك، كان موضع حملة منكرة من الشعراء والمتقولين.

ثم قال خالد: ها أنذا مبتلى بالمضغ، ومحمول على تحريك اللحيين، ومضطر إلى مناسبة البهائم، ومحتمل ما في ذلك من السخف والعجز. ما بالي احتملته فيمن لي منه بد، ولي عنه مذهب؟ ليأكل كل امرئ في منزله، وفي موضع أمنه وأنسه، ودون ستره وبابه.

هذا ما بلغنا عن خالد بن عبد الله القسري واحتجاجه.

فأما خالد المهزول فهو أحد الخالدين: وهما سيدا بني أسد، وفيه وفي خالد بن نضلة[1] يقول الأسود بن يعفر[2]:

وقبلكَ مات الخالِدَانِ كِلاهُما عَمِيدُ بني جَحْوانَ وابنُ المُضَلَّلِ

(1) خالد بن نضلة: سيد بني أسد في عصر المنذر بن ماء السماء. وكان أحد رجلين من بني أسد ينادمان المنذر، فأغضباه في بعض الحديث على الشراب، فأمر بقتلهما.

(2) الأسود بن يعفر: شاعر من شعراء الجاهلية، تميمي دارمي، جيد العبارة، ينزع في شعره إلى الحكمة، ليس بالمكثر.

قصة الحارثي

وقيل للحارثي بالأمس؛ والله إنك لتصنع الطعام فتجيده، وتعظم عليك النفقة وتكثر منه، وإنك لتغالي بالخباز والطباخ والشوّاء والخبّاص[1]، ثم أنت، مع هذا كله، لا تشهده عدواً لتغمّه، ولا ولياً فتسرّه، ولا جاهلاً لتعرفه، ولا زائراً لتعظمه، ولا شاكراً لتثبته، وأنت تعلم حين يتنحى من بين يديك، ويغيب عن عينيك، فقد صار نهباً مقسماً، ومتوزعاً مستهلكاً، فلو أحضرته من ينفع شكره، ويبقى على الأيام ذكره، ومن يمتعك بالحديث الحسن والاستماع، ومن يمتد به الأكل، ويقصر به الدهر، لكان ذلك أولى بك، وأشبه بالذي قدمته يدك.

وبعد، فَلِمَ تُبيح مصون الطعام لمن لا يحمدك، ومَن إن حمدك لم يحسن أن يحمدك، ومن لا يفصل بين الشهي القدي[2]، وبين الغليظ الزهم[3]. قال: يمنعني من ذلك ما قال أبو الفاتك. قالوا: ومَن أبو الفاتك؟ قال: قاضي الفتيان[4]. وإني لم آكل مع أحد قط، إلا رأيت منه بعض ما ذمه، وبعض ما شنعه وقبحه، فشيء يقبح بالشطّار[5]، فما ظنك به إذا كان في أصحاب المروءات وأهل البيوتات؟

قالوا: فما قال أبو الفاتك؟

قال: قال أبو الفاتك: الفتى لا يكون نشالاً، ولا نشافاً، ولا مرسالاً، ولا لكّاماً، ولا مصّاصاً، ولا نفّاضاً، ولا دلاكاً، ولا مُقوراً، ولا مغربلاً، ولا محلقماً،

---

(1) الخباص: صانع الخبيص، وهي الحلواء المخلوطة.

(2) القدي: الطعام الطيب الرائحة.

(3) الزهم: الطعام الكريه الرائحة.

(4) قاضي الفتيان: زعيم الشطّار كما يستفاد من سياق الكلام.

(5) الشطّار: جماعة الخبثاء والمتسكعين.

ولا مسوّغاً، ولا مُلغّماً، ولا مخضراً، فكيف لو رأى أبو الفاتك اللطاع والقطاع والنهاش والمدّاد، والدفّاع، والمحوّل.

والله إني لأفضل الدهاقين[1] حين عابوا الحسو[2]، وتقززوا من التعرق، وبهرجوا صاحب التشميش[3]، وحين أكلوا بالبارجين[4]، وقطعوا بالسكين، ولزموا عند السكتة: وتركوا الخوض، واختاروا الزمزمة[5].

أنا والله أحتمل الضيف والضّيْفَن[6]، ولا أحتمل اللعموظ ولا الجردبيل[7] والواغل[8] أهون عليَّ من الراشن[9].

ومن يشك أن الوحدة خير من جليس السوء، وأن جليس السوء خير من أكيل السوء؟ لأن كل أكيل جليس، وليس كل جليس أكيلاً، فإن كان لا بد من المؤاكلة، ولا بد من المشاركة، فمع من لا يستأثر عليَّ بالمخ، ولا ينتهز بيضة البقليّة[10]، ولا يلتهم كبد الدجاجة، ولا يبادر إلى دماغ رأس السلاءة[11]، ولا يختطف كلية الجدي، ولا يزدرد قانصة الكركي، ولا ينتزع شاكلة الحمل، ولا يقتطع سُرة الشيصان[12]، ولا يعرض لعيون الرؤوس، ولا

(1) الدهاقين: الرؤساء، واحدها دهقان.

(2) الحسو: الشرب.

(3) التمشيش: مص العظم لاستخراج مخه.

(4) البارجين: أداة لتناول الطعام تشبه الشوكة.

(5) الزمزمة: السرطانة عند الأكل خصوصاً. يستعملون الشفاه والخياشيم والحلوق فيفهم واحدهم الآخر.

(6) الضيفن: ضيف الضيف.

(7) الجردبيل: الذي يخفي شيئاً على المائدة حتى لا يراه غيره.

(8) الواغل: المتطفل الذي يدخل على الطعام دون دعوة.

(9) الراشن: الطفيلي.

(10) البقلية: يأتي عنها الحديث مع الأطعمة.

(11) السلاءة: نوع من الطيور.

(12) الشيصان: ربما يعني الظباء.

يستولي على صدور الدجاج، ولا يسابق إلى إسقاط الفراخ، ولا يتناول إلا ما بين يديه، ولا يلاحظ ما بين يدي غيره، ولا يتشهى الغرائب، ولا يمتحن الإخوان بالأمور الثمينة، ولا يهتك أستار الناس، بأن يتشهى ما عسى ألا يكون موجوداً.

وكيف تصلح الدنيا، وكيف يطيب العيش، مع من إذا رأى جزورية التقط الأكباد والأسنمة، وإذا عاين بقريّة استولى على العُراق والقطنة، وإن أتوا بجنب سواء اكتسح كل شيء عليه، لا يرحم ذا سن لضعفه، ولا يرق على حدث لحدة شهوته، ولا ينظر للعيال، ولا يبالي كيف دارت بهم الحال، وإن كان لا بد من ذلك، فمع من لا يجعل نصيبه في مالي أكثر من نصيبي.

وأشد من كل ما وصفنا، وأخبث من كل ما عددنا، أن الطباخ ربما أتى باللون الطريف وربما قدم الشيء الغريب، والعادة في مثل ذلك اللون أن يكون لطيف الشخص، صغير الحجم، وليس كالطفشيلية[1]، ولا كالهريسة[2]، ولا كالكرنبية[3]، وربما عجل عليه فقدمه حاراً ممتنعاً، وربما كان من جوهر بطيء الفتور، وأصحابي في سهولة إزدراد الحار عليهم في طباع النعام، وأنا في شدة الحار علي في طباع السباع، فإن انتظرت إلى أن يمكن أتوا على آخره، وإن بدرت مخافة الفوت، وأردت أن أشاركهم في بعضه، لم آمن من ضرره، والحار ربما قتل، وربما أعقم، وربما أبال الدم.

---

(1) الطفشيلية: نوع من المرق.

(2) الهريسة: أكلة معروفة.

(3) الفجلية والكرنبية: نوعان من الطعام يشتملان على الفجل والكرنب.

كنت أنا أسرع حركة

ثم قال: هذا علي الأسواري، أكل مع عيسى بن سليمان بن علي[1]، فوضعت قدامهم سمكة عجيبة، فائقة السمن، فجلط بطنها جلطة، فإذا هو يكتنز شحماً، وقد غص بلقمة، وهو المستسقي، ففرغ من الشراب، وقد غرف من بطنها كل إنسان منهم بلقمته غرفة، وكان عيسى ينتخب الأكلة، ويختار منهم كل منهوم فيه ومفتون به، فلما خاف عليّ الأسواري الإخفاق، وأشفق من الفوت، وكان أقربهم إليه عيسى، استلب من يده اللقمة بأسرع من خطفة البازي وانكدار العقاب[2] من غير أن يكون أكل عنده قبل مرّته. فقيل له: ويحك!.. استلبت لقمة الأمير من يده، وقد رفعها إليه وشَحَا لها فاه[3]، من غير مؤانسة ولا ممازحة سالفة. قال: لم يكن الأمر كذلك، وكذب من قال ذلك. ولكنا أهوينا أيدينا معاً، فوقعت يدي في مقدم الشحمة، ووقعت يده في مؤخر الشحمة معاً. والشحم ملتبس بالأمعاء. فلما رفعنا أيدينا معاً، كنت أنا أسرع حركة، وكانت الأمعاء متصلة غير متباينة، فتحول كل شيء كان في لقمته بتلك الجذبة إلى لقمتي، لاتصال الجنس بالجنس والجوهر بالجوهر.

وأنا كيف أؤاكل أقواماً يصنعون هذا الصنيع، ثم يحتجون له بمثل هذه الحجج؟!..

ثم قال: إنكم تشيرون عليّ بملابسة[4] شرار الخلق وأنذال الناس، وبكل عيّاب متعنت، ووثّاب على أعراض الناس متسرّع، وهؤلاء لم يرضوا أن

(1) عيسى بن سليمان بن علي: أحد أبناء سليمان بن عم أبي العباس السفاح، وكان أبو العباس قد ولاه على البصرة وأعمالها فأقام فيها هو وأولاده وبنوا فيها دورهم، وقد تعرض لهجاء أبي عبد الله بن أبي عيينة المهلبي.

(2) انكدار: انصباب. (3) شحا: فتح. (4) ملابسة: مخالطة.

يدعوهم الناس، ولا يدعوا الناس، وأن يأكلوا ولا يطعموا، وأن يتحدثوا عن غيرهم، ولا يبالون أن يتحدث عنهم، وهم شرار الناس.

لا جلست لك على مائدة ما حييت

ثم قال: أجلس معاوية، وهو في مرتبة الخلافة، وفي السطح[1] من قريش، وفي نبل الهمة، وأصالة الرأي، وجودة البيان، وكمال الجسم، وفي تمام النفس عند الجولة[2]، وعند تقصّف الرماح وتقطّع السيوف، رجلاً على مائدته، مجهول الدار، غير معروف النسب، ولا مذكور بيوم صالح، فأبصر في لقمته شعرة، فقال: خذ الشعرة من لقمتك. ولا وجهٌ لهذا القول منه إلا محض النصيحة وإلا الشفقة، فقال الرجل: وإنك لتراعيني مراعاة من يبصر معها الشعرة؟ لا جلست لك على مائدة ما حييت، ولا حكيتها عنك ما بقيت، فلم يدر الناس أي أمري معاوية كان أحسن وأجمل: تغافله عنه أم شفقته عليه. فكان جزاؤه منه، وشكره له.

إن قصر في الأكل لم أنشطه

ثم قال: وكيف أطعم مَن إن رأيته يقصر في الأكل فقلت له: كل ولا تقصر في الأكل، قال: ولِمَ فطن لفضل ما بين التقصير وغيره؟ وإن قصر فلم أنشطه ولم أحثه، قال: لولا أنه وافق هواه.

إنك لسريع إلى السقي

ثم قال: ومدّ رجل من بني تميم يده إلى صاحب الشراب يستسقيه وهو على خوان المهلب[3]، فلم يره الساقي ولم يفطن له. ففعل ذلك مراراً والمهلب

(1) السطح: الذروة والقمة.

(2) الجولة: التقاء الفرسان في الحرب.

(3) المهلب: هو المهلب بن أبي صفرة وكان والياً على البصرة ثم على خراسان.

يراه. وقد أمسك عن الأكل إلى أن يسيغ لقمته بالشراب، فلما طال ذلك على المهلب قال: اسقه يا غلام ما أحب من الشراب. فلما سقاه استقله وطلب الزيادة منه، وكان المهلب أوصاهم بالإقلال من الماء، والإكثار من الخبز. قال التميمي: إنك لسريع إلى السقي، سريع إلى الزيادة. وحبس يده عن الطعام. فقال المهلب: الهُ عن هذا أيها الرجل، فإن هذا لا ينفعك ولا يضرنا، أردنا أمراً وأردت خلافه.

* * *

وقد علمت أني دون معاوية ودون المهلب بن أبي صفرة، وأنهم إليّ أسرع[1]، وفي لحمي أرتع[2].

* * *

لكم واعظ وزاجر

ثم قال: وفي الجارود بن أبي سبرة[3] لكم واعظ، وفي أبي الحارث جُمّين زاجر. فقد كانا يدعيان إلى الطعام وإلى الإكرام، لظرفهما وحلاوتهما وحسن حديثهما وقصر يومهما، وكانا يتشهيان الغرائب، ويقترحان الطرائف، ويكلفان الناس المؤن الثقال، ويمتحنان ما عندهم بالكلف الشداد، فكان جزاؤهم من إحسانهم ما قد علمتم.

يلاحظ اللقم.. وينتهر السائل

قال: ومن ذلك أن بلال بن أبي بردة[4] كان رجلاً عياباً، وكان إلى

---

(1) أسرع: أي أسرع إلى ذمي.

(2) وفي لحمي أرتع: أي في اغتيابي.

(3) الجارود بن أبي سبرة: شخصية من الشخصيات الكبيرة في العراق في القرن الأول وأوائل الثاني، يكنى أبا نوفل. قال عنه الجاحظ: كان راوية علامة وشاعراً مغلقاً.

(4) بلال بن أبي بردة بن موسى الأشعري: كان قاضياً وأميراً.

أعراض الأشراف متسرعاً، فقال للجارود: كيف طعام عبد الله بن أبي عثمان؟ قال: يعرف وينكر[1]. قال: فكيف هو عليه؟ قال: يلاحظ اللقم، وينتهر السائل، قال: فكيف طعام مسلم بن قتيبة[2]؟ قال: طعام ثلاثة، فإن تركوا أربعة جاعوا. قال: فكيف طعام تَسنيم بن الحواري[3]؟ قال: نقط العروس.

قال: فكيف طعام المنجاب بن أبي عيينة؟ قال: يقول: لا خير في ثلاثة أصابع في صحفة. حتى أتى على عامة أهل البصرة، وعلى كل من كان يؤثره بالدعوة وبالأنسة والخاصة ويحكمه في ماله، فلم ينج منه إلا من كان يبعده، كما لم يبتل به إلا من كان يقربه.

لم يَرَ أشح منه على الطعام

وهذا أبو شعيب القلال[4]، في تقريب مويس له وأنسه به، وفي إحسانه إليه، مع سخائه على المأكول، وغض طرفه عن الأكيل، وقِلّة مبالاته بالحفظ وقلة مبالاته بجمع الكثير، سُئل عنه أبو شعيب فزعم أنه لم ير قط أشح منه على الطعام.

قيل: وكيف؟ قال: يدلّك على ذلك أنه يصنعه صنعةً، ويهيئه تهيئة من لا يريد أن يمس، فضلاً عن غير ذلك. وكيف يجترئ الضرس على إفساد ذلك الحسن، ونقض ذلك النظم، وعلى تفريق ذلك التأليف، وقد علم أن

---

(1) يعرف وينكر: يحب ويكره.

(2) مسلم بن قتيبة: هو مسلم بن قتيبة بن مسلم الباهلي، كان أبوه من أمراء الدولة المروانية وكبار الفاتحين فيها.

(3) تسنيم بن الحواري: هو تسنيم بن الحواري بن زياد بن عمرو بن الأشرف وكان من سراة البصرة وصديقاً لبشار.

(4) أبو شعيب القلال: هكذا جاء اسمه في البيان والتبيين وفي الحيوان وفي أخبار أبي نواس لابن منظور، وهو صفدي الأصل كان يصنع الجرار وكان عالماً شاعراً.

حسنه يحشم، وأن جماله يهيب منه، فلو كان سخياً لم يمنع بهذا السلاح، ولم يجعل دونه الجُنَن[1]، فحوّل إحسانه إساءة، وبذله منعاً، واستدعاءه إليه نهياً.

كيف وجهه على غدائه؟!

قال[2]: ثم قيل لأبي الحارث جُمين: كيف وجه محمد بن يحيى[3] على غدائه؟ قال: أما عيناه فعينا مجنون. وقال فيه أيضاً: لو كان في كفه كرّ[4] خردل، ثم لعب به لعب الأبلي[5] بالأكرة، لما سقطت من بين أصابعه حبة واحدة. وقيل له أيضاً: كيف سخاؤه على الخبز خاصة؟ قال: والله لو ألقي إليه من الطعام بقدر ما إذا جَدَسَ نَزَفَ السحاب لو ثرّ[6]، ما تجافى عن رغيف.

يرتعي على خوانه ويهجوه!

وكان أبو نواس يرتعي[7] على خوان إسماعيل بن نيبخت[8]، كما ترتعي الإبل في الحمض بعد طول الخلة، ثم كان جزاؤه منه أنه قال:

خُبزُ إسماعيل كالوشـ ـي إذا ما شُقَّ يُرْفا[9]

---

(1) الجنن: مفردها جنة وهي الوقاية والحفظ.

(2) قال: أي الحارثي.

(3) محمد بن يحيى: هو أحد أبناء يحيى بن خالد البرمكي، تولَّى الكتابة لمحمد بن الرشيد.

(4) الكر: مكيال عراقي.

(5) الأبلي: نسبة إلى الأبلة وهي موضع في البصرة، له شهرة بخفة اليدين.

(6) هذه العبارة »ما إذا جدس نزف السحاب لوثر« هكذا في الأصل ربما طرأ تحريف على بعض كلماتها.

(7) يرتعي: يأكل.

(8) إسماعيل بن نيبخت: هو إسماعيل بن أبي سهل بن نوبخت (كما ذكره ابن منظور). وقد كان آل نوبخت من سراة البصرة ومن أكبر الأسر التي كانت مألفاً للشعراء والأدباء فيها. وكان أبو نواس من أخص الأصدقاء.

(9) الوشي: الثوب المزخرف، والمراد أنه يحافظ على خبزه كما يحافظ بالرفو على الثوب المزخرف.

وقال:

وما خُبْزُهَ إلا كُلَيْبُ بنُ وائل ليالِيَ يَحمي عِزُّهُ منبتَ البقْلِ[1]

أبو الشمقمق

وكان أبو الشمقمق[2] يُعيب في طعام جعفر بن أبي زهير، وكان له ضيفان في ضيافة جعفر، وهو مع ذلك يقول:

رأيتُ الخبزَ عَزَّ لديكَ حتى حَسِبْتُ الخبزَ في جَوِّ السَّحابِ

وما رَوَّحْتَنا لِتَذُبَّ عَنّا ولكنْ خِفتَ مَرْزِئَةَ الذّبابِ[3]

أي شيء في القصعة؟

وقيل للجمّاز[4]: رأيناك في دهليز فلان، وبين يديك قصعة، وأنت تأكل، فمن أي شيء كانت القصعة؟ وأي شيء كان فيها؟ قال: قيء كلب في قحف خنزير.

جوع.. وكلام

وقيل لرجل من العرب: قد نزلت بجميع القبائل، فكيف رأيت خزاعة؟ قال: جوع.. وأحاديث؟!..

إن ذلك لشبعة

ونزل عمرو بن معدي كرب برجل من بني المغيرة، وهم أكثر قريش طعاماً، فأتاه بما حضر، وقد كان فيما أتاه به فضل، فقال لعمر بن الخطاب وهم أخواله: لئام بني المغيرة يا أمير المؤمنين. قال: وكيف؟ قال: نزلت بهم

---

(1) كان كليب بن وائل يحمي منابت العشب.

(2) أبو الشمقمق: لقب الشاعر المغمور (مروان بن محمد) من أعظم شعراء عصره تعبيراً عن الفقر وتسجيلاً لصور الجماعات الدنيا.

(3) روحتنا: جليت لنا الهواء بالمروحة لتذب عنا: لتطرد عنا الذباب.

(4) الجمّاز: هو أبو عبد الله محمد بن عمرو، ماجن من أصحاب النادرة.

فما قروني[1] غير قوس وكعب ثور[2]. قال عمر: إن ذلك لشبعة.

وكم قد رأينا من الأعراب من نزل بريّ صِرمة[3] فأتاه بلبن وتمر وحَيْس[4] وخبز ويمن سلاء، فبات ليلته ثم أصبح يهجوه، كيف لم ينحر له وهو لا يعرفه، بعيراً من ذوده[5] أو من صِرمته؟

ولو نحر هذا البائس لكل كلب مرّ به بعيراً من مخافة لسانه، لما دار الأسبوع إلا وهو يتعرض للسابلة، يتكفف الناس، ويسألهم العُلق[6].

تشبه زياد بعمر فافرط

وسأل زياد[7] عن رجل من أصحابه فقيل: إنه لملازم، وما يغبّ[8] غداء الأمير.

فقال زياد: فليغبه، فإن ذلك مما يضر بالعيال. فألزموه الغِبّ. فعابوا زياداً بذلك. وزعموا أنه استثقل حضوره في كل يوم، وأراد أن يزجر به غيره، فيسقط عن نفسه وعن ماله مؤونة عظيمة.

وإنما كان ذلك من زياد على وجهة النظر للعيالات[9]، وكما ينظر الراعي للرعية، على مذهب عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وقد قال الحسن: تشبّه زياد بعمر فأفرط، وتشبّه الحجاج بزياد فأهلك الناس، فجعلهم ذلك عنتاً منه.

---

(1) قروني: أي قدموا لي القرى وهو الطعام الذي يقدم للضيف.

(2) كعب ثور: الكعب كل مفصل للعظام.

(3) الصرمة: من الإبل ما بين العشرة والأربعين.

(4) الحيس: تمر ينزع منه النوى، ويدق مع الأقط، ويعجنان بالسمن.

(5) الذود: من الإبل لا يقل عددها عن ثلاثة ولا يزيد عن الثلاثين.

(6) العلق: مفردها علقة: وهو ما يتبلغ به من العيش.

(7) زياد: هو زياد بن أبيه. (8) يغب: ينقطع. (9) للعيالات: أي مراعاة لمصلحة العيال.

سيد الطعام الثريد

وقال يوسف بن عمر[1] لقُوّام[2] موائده: أعظموا الثريدة، فإنها لقمة الدرداء[3]، فقد يحضر طعامكم الشيخ الذي قد ذهب فمه، والصبي الذي لم ينبت فمه، وأطعموهم ما يعرِفون، فإنه أنجع[4] وأشفى للقرم[5]. فقلتم: إنما أراد العجلة والراحة بسرعة الفراغ، وأن يكيدهم بالثريد، ويملأ صدورهم بالعُراق[6]، وقد قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (سيد الطعام الثريد، ومثل عائشة في النساء مثل الثريد في الطعام)، ولعظم صفة الثريد في أعين قريش سَمّوا عمرو بن عبد مناف بهاشم، حين هشم الخبز واتخذ منه الثريد، حتى غلب عليه الاسم المشتق له من ذلك.

إن التُّرْفَة تفسدهم

وقال عوْفُ بن القعقاع[7] لمولاه: اتخذ لنا طعاماً يشبع فضله أهل الموسم، قلتم: فلما رأى الخبز الرقاق والغلاظ، والشواء والألوان، واستطرف الناس للون بعد اللون، ودوام أكلهم لدوام الطُّرف، وأن ذلك لو كان لوناً واحداً لكان أقل لأكلهم، قال: فهلا جعلته طعام يد، ولم تجعله طعام يدين. فقلتم: اتسع ثم ضاق. حين أراد إطعامهم الثريد والحيس، وكل ما يؤكل بيد دون

---

(1) يوسف بن عمر: أحد ولاة بني أمية الذين عرفوا بالعنف والعتو والقسوة، وهو يوسف بن عمر بن محمد بن أبي عقيل الثقفي، ابن ابن عم الحجاج بن يوسف الثقفي وكان يضرب فيه المثل بالتيه والحمق.

(2) قوم: المسؤولون عن الموائد.

(3) الدرداء: التي ذهبت أسنانها.

(4) أنجع: أكثر فائدة.

(5) أشفى للقرم: أشفى لشدة الشهوة للحم.

(6) العراق: العظم عليه بعض اللحم.

(7) عوف بن القعقاع: هو عوف بن القعقاع بن معبد بن زرارة بن عدس، تميمي دارمي، عداده في أعراب البصرة، ويعد في الصحابة، لأنه وفد مع أبيه على النبي صلى الله عليه وسلم.

يدين.

وابن القعقاع عربي كره لمولاه أن يرغب عن طعام العرب إلى طعام العجم، وأراد دوام قومه على مثل ما كانوا عليه، وعلى أن التُّرفة[1] تُفنّخهم[2] وتفسدهم، وأن الذي فتح عليهم من باب الترفة أشد عليهم مما أغلق عليهم من باب فضول اللذة، وقد فعل عمر من جهة التأديب أكثر من ذلك حين دُعي إلى عرس، فرأى قدراً صفراء وأخرى حمراء، وواحدة مرة وأخرى حلوة، وواحدة محمضة، فكدّرها[3] في قدر عظيمة وقال: إن العرب إذا أكلت هذا قتل بعضها بعضاً.

تفسير كلام أبي فاتك

أما قوله: الفتى لا يكون نشالاً، فالنشّال عنده: الذي يتناول من القدر، ويأكل قبل النضج، وقبل أن تنزل القدر ويتتام القوم.

والنشّاف: الذي يأخذ حرف الجردقة[4]، فيفتحه، ثم يغمسه في رأس القدر، ويُشرّبه الدسم، يستأثر بذلك دون أصحابه.

والمرسال: رجلان، أحدهما إذا وضع في فيه لقمة هريسة أو ثريدة أو حيسة أو أرزة، أرسلها في جوف حلقه إرسالاً. والوجه الآخر: هو الذي إذا مشى في أشب[5] من فسيل[6] أو شجر، قبض على رأس السعفة[7]، أو على رأس الغصن، لينحّيها عن وجهه، فإذا قضى وطره أرسلها من يده، فهي لا

(1) الترفة: النعيم.

(2) تفنّخهم: تذلهم وتفسدهم.

(3) كدرها: صبها.

(4) الجردقة: الرغيف.

(5) أشب: شجر ملتف.

(6) فسيل: صغار الشجر من النخيل. (7) السعفة: غصن النخيل.

محالة تصكّ وجه صاحبه الذي يتلوه، لا يحفل بذلك، ولا يعرف ما فيه.

وأما اللكّام: فالذي في فيه اللقمة، ثم يَلكُمُهَا بأخرى قبل إجادة مضغها أو ابتلاعها.

والمصّاص: الذي يمصّ جوف قصبة العظم، بعد أن استخرج مخّه، واستأثر به دون أصحابه.

وأما النقّاض: فالذي إذا فرغ من غسل يده في الطّست نفض يديه من الماء فنضح على أصحابه.

وأما الدلاّك: فالذي لا يجيد تنقية يديه بالأشنان، ويجيد دلكها بالمنديل، وله أيضاً تفسير آخر، ليس هو الذي تظنه، وهو مليح، وسيقع في موضعه إن شاء الله.

والمقوِّر: الذي يقوِّر الجرداق، ويستأثر بالأوساط، ويدع لأصحابه الحروف.

والمغربل: الذي يأخذ وعاء الملح، فيديره إدارة الغربال ليجمع أباريزه، يستأثر به دون أصحابه، لا يبالي أن يدع ملحهم بلا أبزار.

والمحلقم: الذي يتكلم واللقمة قد بلغت حلقومه، تقول لهذا: قبيح!.. دع الكلام إلى وقت إمكانه.

والمسوِّغ: الذي يعظّم اللقم، فلا يزال قد غصّ، ولا يزال يسيغه بالماء.

والملغم: الذي يأخذ حروف الرغيف، أو يغمز ظهر التمرة بإبهامه، ليحملا له من الزبد والسمن، ومن اللبأ[1] واللبن، ومن البيض النيمبرشت[2] أكثر.

والمخضِّر: الذي يدلك يده بالأشنان من الغَمر[3] والوَدَك[4]، حتى إذا

(1) اللبأ: أول ما تدر البهيمة من اللبن عند الولادة.

(2) نيمبرشت: نصف مستوي أي ما نسميه برشت.

(3) الغَمر: ريح اللحم.

(4) الودك: الدهن، دسم الشحم واللحم.

اخضر واسود من الدرن[1] دلك به شفته!..

هذا تفسير ما ذكر الحارثي من كلام أبي فاتك، فأما ذكره هو:

فإن اللطّاع معروف، وهو الذي يلطع[2] إصبعه، ثم يعيدها في مرق القوم أو لبنهم أو سويقهم، وما أشبه ذلك.

والقطّاع: الذي يعض على اللقمة، فيقطع نصفها، ثم يغمس النصف الآخر في الصباغ.

والنهّاش: هو معروف، وهو الذي ينهش اللحم كما ينهش السَّبُع.

والمدّاد: الذي ربما عض على العَصَبَة التي لم تنضج، وهو يمدها بفيه، ويده توترها له، فربما قطعتها بنترة، فيكون لها انتضاح على ثوب المؤاكل، وهو الذي إذا أكل مع أصحابه الرطب أو التمر أو الهريسة أو الأرزة، فأتى على ما بين يديه، مد ما بين أيدهم إليه.

والدفّاع: الذي إذا وقع في القصعة عظم، فصار مما يليه، نحاه بلقمة من الخبز حتى تصير مكانة قطعة من لحم، وهو في ذلك كأنه يطلب بلقمته تشريب المرق دون إراغة اللحم.

والمحوّل: هو الذي إذا رأى كثرة النوى بين يديه احتال له حتى يخلطه بنوى صاحبه.

وأما ما ذكره من الضيف والضَّيْفَن، فإن الضَّيْفن ضيف الضيف، وأنشد أبو زيد:

إذا جاءَ ضيفٌ جاء للضيف   فأودى بما يُقْرى الضيوفُ

(1) الدرن: الوسخ.

(2) يلطع: يلحس.

يقول:

الأكيل لا يكون إلا بالمعاينة، وقد يكون الضيف، وإن كان معه الضيفن، لا يؤاكل من أضافه. يقول:

فأكل الكثير من حيث لا أراه أهون عليَّ.

وأما قوله: الواغل[1] أهون علي من الراشن[2]، فإنه يزعم أن طفيلي الشراب أهون عليّ من طفيلي الطعام.

وقول الناس: فلان طفيلي، ليس من أصول كلام العرب، ليس كالرّاشن واللُّعموط[3]، وأهل مكة يسمونه البُرقيّ.

كان أبعد الناس في طلب الولائم

كان بالكوفة رجل من بني عبد الله بن غطفان يسمى طُفيلاً[4]، وكان ابعد الناس نجعة في طلب الولائم والأعراس، فقيل له لذلك: طفيل العرائس، وصار ذلك نبزاً له، ولقباً لا يُعرف بغيره، فصار كل من كانت تلك طعمته يقال له: طفيلي، هذا من قول أبي اليقظان[5].

تحلبون حلباً لكم شطره

ثم قال الحارثي: وأعجب من كل عجب، وأطرف من كل طريف، أنكم تشيرون عليّ بإطعام الأكلة، ودفعي إلى الناس مالي، وأنتم أترك لهذا مني، فإن زعمتم أني أكثر مالاً، وأعدّ عدّة، فليس بين حالي وحالكم في التقارب

(1) الواغل: طفيلي الشراب.

(2) الراشن: طفيلي الطعام.

(3) اللعموظ: الشهوان.

(4) طفيل: كان يتبع الأعراس من غير أن يدعى إليها، وهو أول من فعل ذلك، ويقول ياقوت: اسمه (طفيل بن زلال).

(5) أبو اليقظان: هو سحيم بن خلص راوية أخباري، عالم بالأخبار والأنساب والمآثر والمثالب:

أن أطعم أبداً، وأنتم تأكلون أبداً. فإذا أتيتم في أموالكم من البذل والإطعام على قدر احتمالكم عرفتُ بذلك أن الخير أردتم، وإلى تزييني ذهبتم، وإلا فإنكم إنما تحلبون حلباً لكم شطره، بل أنتم كما قال الشاعر:

يُحِبّ الخمرَ من مالِ النّدامى ويَكرهُ أن تُفارِقَهُ الفُلوسُ

إذا أكل ذهب عقله

ثم قال: والله إني لو لم أترك مؤاكلة الناس وإطعامهم إلا لسوء رِعَةٍ[1] عليّ الأسواريّ لتركته. وما ظنكم برجل نهش بضعة لحم تعرقاً، فبلع ضرسّه وهو لا يعلم. فعل ذلك عند إبراهيم بن الخطاب مولى سليم، وكان إذا أكل ذهب عقله، وجحظت عينه، وسكر وسدر[2] وانبهر[3] وتربد[4] وجهه، وعصِبَ[5]، ولم يسمع، ولم يبصر، فلما رأيت ما يعتريه، وما يعتري الطعام منه، صرت لا آذن إلا ونحن نأكل التمر والجوز والباقلّى. ولم يفجأني قط وأنا آكل تمراً إلا استفّه سفاً، وحساه حسواً، وذرا به ذرواً[6]، ولا وجده كنيزاً إلا تناول القطعة كجمجمة الثور، ثم يأخذ بحضنيها، ويُقلها[7] من الأرض، ثم لا يزال ينهشها طولاً وعرضاً، ورفعاً وخفضاً، حتى يأتي عليها جميعاً، ثم لا يقع غضبه إلا على الأنصاف والأثلاث، ولم يفصل تمرة قط، ولا رمى بنواة قط، ولا نزع قمعاً، ولا نفى عنه قشراً، ولا فتشه مخافة السوس والدود،

---

(1) رعة: ورع.

(2) سدر: اضطراب.

(3) انبهر: تتابع نفسه.

(4) تربد: اكفهر وجهه .

(5) عصب: جف ريقه.

(6) ذرا به ذرواً: أي نسفه، أطار به عن المائدة.

(7) يقلها: يحملها، يرفعها.

ثم ما رأيته قط إلا وكأنه طالب ثأر، وشحشحان[1] صاحب طائلة[2]، وكأنه عاشق مُغتَلِمِ، أو جائع مقرورٌ[3].

* * *

والله يا إخوتي لو رأيت رجلاً يفسد طين الرَّدغة، ويضيع ماء البحر، لصرفت عنه وجهي، فإذا كان أصحاب النظر وأهل الديانة والفلسفة، هذه سيرتهم، وهكذا أدبهم، فما ظنكم بمن لا يُعدّ ما يُعدّون، ولا يبلغ من الأدب حيث يبلغون.

---

(1) شحشحان: غيور على حق يطلبه.

(2) طائلة: ثأر.

(3) مقرور: أصابه البرد.

قصة الكندي

إذا طبختم فردوا شهوتها

حدثني عمرو بن نهيويّ قال: كان الكندي لا يزال يقول للساكن، وربما قال للجار: (إن في الدار امرأة بها حمل، والوحمى ربما أسقطت من ريح القدر الطيبة، فإذا أطبختم فردوا شهوتها ولو بغرفة أو لعقة، فإن النفس يردها اليسير، فإن لم تفعل ذلك بعد إعلامي إياك، فكفارتك إن أسقطت غُرة: عبد أو أمة، ألزمت ذلك نفسك شئت أم أبيت).

قال: فكان ربما يُوافي إلى منزله من قِصاع السكان والجيران ما يكفيه الأيام، وكان أكثرهم يفطن ويتغافل. وكان الكندي يقول لعياله: أنتم أحسن حالاً من أرباب هذه الضياع، إنما لكل بيت منهم لون واحد وعندكم ألوان.

ما بعد الله شيء

قال: وكنت أتغدى عنده يوماً، إذ دخل عليه جار له، وكان الجار لي صديقاً، فلم يعرض عليه الغداء، فاستحييت أنا منه فقلت: لو أصبت معنا مما نأكل. قال: قد، والله، فعلت. قال الكندي: ما بعد الله شيء.

قال: فكتفه، والله، يا أبا عثمان، كتفاً لا يستطيع معه قبضاً ولا بسطاً، وتركه، ولو أكل لشهد عليه بالكفر، ولكان عنده قد جعل مع الله شيئاً.

بئر وحياتك

قال عمرو: بينما أنا ذات يوم عنده؛ إذ سمع صوت انقلاب جرة من الدار الأخرى، فصاح: أي قصاف[1]!.. فقالت، مجيبة له: بئر وحياتك[2]!.. فكانت الجارية في الذكاء، أكثر منه في الاستقصاء.

---

(1) قصاف: اسم جارية الكندي. (2) بئر وحياتك: أي صوت جرة بئر.

شروط الكندي على المستأجرين

قال معبد[1]: نزلنا دار الكنديّ أكثر من سنة، نروّج له الكراء، ونقضي له الحوائج، ونفي له بالشرط.

قلت: قد فهمت ترويج الكراء، وقضاء الحوائج، فما معنى الوفاء بالشرط؟

قال: في شرطه على السكان أن يكون له روث الدابة، وبعر الشاة، ونشوار العلوفة[2]، وألا يلقوا عظماً، ولا يخرجوا كساحة[3]، وأن يكون له نوى التمر، وقشور الرّمان، والغَرفَة من كل قدر تطبخ للحُبلى في بيته، وكان في ذلك يتنزل عليهم[4]، فكانوا لطيبه وإفراط بخله وحسن حديثه يحتملون ذلك.

قال معبد: فبينما أنا كذلك، إذ قدم ابن عم لي ومعه ابن له، وإذا رقعة منه قد جاءتني: إن كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين، احتملنا ذلك، وإن كان إطماعُ السكان في الليلة الواحدة يجر علينا الطمع في الليالي الكثيرة.

فكتب إليه: ليس مقامهما عندنا إلا شهراً أو نحوه.

فكتب إليَّ: إن دارك بثلاثين درهماً، أنتم ستة، لكل رأس خمسة، فإذ قد زدت رجلين، فلا بد من زيادة خمستين، فالدار عليك من يومك هذا بأربعين.

فكتبت إليه: وما يضرك في مقامهما، وثقل أبدانهما على الأرض التي تحمل الجبال، وثقل مؤونتهما عليّ دونك، فاكتب إليَّ بعذرك لأعرفه، ولم أدر أني أهجم على ما هجمت، وأني أقع منه فيما وقعت. فكتب إليّ:

الخصال التي تدعو إلى ذلك كثيرة، وهي قائمة معروفة. من ذلك

---

(1) معبد: يصفه الجاحظ والنظام بأنه من علية المتكلمين، ومن الجلة المتقدمين، وأنه من جلة المعتزلة، ومن أشراف أهل الحكمة. (2) نشوار العلوفة: ما تبقيه الدابة من العلوفة.

(3) كساحة: كناسة. (4) يتنزل عليهم: يتدرج في شروطه عليهم.

سرعة امتلاء البالوعة، وما في أنقيتها من شدة المؤونة، ومن ذلك أن الأقدام إذا كثرت، كثر المشي على ظهور السطوح المطينة، وعلى أرض البيوت المجصصة، والصعود على الدرج الكثيرة، فينقشر لذلك الطين، وينقلع الجصّ، وينكسر العتب[1]، مع انثناء الأجذاع[2] لكثرة الوطء وتكسرها لفرط الثقل. وإذا كثر الدخول والخروج والفتح والإغلاق والإقفال وجذب الأقفال، تهشمت الأبواب، وتقلعت الرزّات، وإذا كثر الصبيان، وتضاعف البَوْش[3] نزعت مسامير الأبواب، وقلعت كل ضبّة[4]، ونزعت كل رزّة، وكسرت كل جوزة[5]، وحفر فيها آبار الزدو[6]، وهشموا بلاطها بالمداحي[7]، هذا مع تخريب الحيطان بالأوتار وخشب الرفوف..

* * *

وإذا كثر العيال والزوار، والضيفان والندماء، احتيج من صب الماء واتخاذ الحِببَةَ[8] القاطرة، والجرار الراشحة، إلى أضعاف ما كانوا عليه. فكم من حائط قد تأكل أسفله، وتناثر أعلاه، واسترخى أساسه، وتداعى بنيانه من قطر حُبّ ورشح جرة، ومن فضل ماء البئر، ومن الوقود والتسخين. والنار لا تبقي ولا تذر، وإنما الدور حطب لها، وكل شيء فيها متاع فهو أكل لها،

---

(1) العتب والعتبة: الغليظ من الأرض.

(2) الأجذاع: جمع جذع وهي حطب السقف.

(3) البوش: العيال.

(4) ضبة: ضرب من المغاليق.

(5) جوزة: كل ما هو مصنوع من خشب الجوز.

(6) الزدو: لعبة للأولاد تتطلب حفائر في الأرض.

(7) المداحي: واحدتها مدحاة: خشبة يدحى بها الصبي فتقشر وجه الأرض.

(8) الحببة: مفردها حب: جرة، خابية.

فكم من حريق قد أتى على أصل الغلة، فكلفتم أهلها أغلظ النفقة. وربما كان ذلك عند غاية العسرة، وشدة الحال، وربما قعدت تلك الجناية إلى دور الجيران، وإلى مجاورة الأبدان والأموال، فلو ترك الناس حينئذ رب الدار وقدر بليته ومقدار مصيبته، لكان عسى ذلك أن يكون محتملاً. ولكنهم يتشاءمون به، ولا يزالون يستثقلون ذكره، ويكثرون من لائمته وتعنيفه.

نعم، ثم يتخذون المطابخ في العلالي على ظهور السطوح، وإن كان في أرض الدار فضل وفي صحنها متسع، مع ما من ذلك من الخطار[1] بالأنفس، والتغرير بالأموال [2]، وتعرض الحرم ليلة الحريق لأهل الفساد، وهجومهم، مع ذلك، على سرّ مكتوم، وخبيءٍ مستور: من ضيف مُستَخْفٍ، وربّ مُتوارٍ، ومن شراب مكروه، ومن كتاب متهم، ومن مال جم أريد دفنه، فأعجل الحريق أهله عن ذلك فيه. ومن حالات كثيرة وأمور لا يحب الناس أن يعرفوا بها، ثم لا ينصبون التنانير، ولا يمكنون للقدور إلا على متن السطح، حيث لا بينها وبين القصب والخشب إلا الطين الرقيق والشيء لا يقي. هذا مع خفة المؤونة في إحكامها وأمن القلوب من المتالف بسببها. فإن كنتم تقدمون على ذلك منا ومنكم وأنتم ذاكرون، فهذا عجب، وإن كنتم لم تحلفوا بما عليكم في أموالنا ونسيتم ما عليكم في أموالكم، فهذا أعجب.

* * *

ثم إن كثيراً منكم يدافع بالكراء، ويماطل بالأداء، حتى إذا اجتمعت أشهر عليه، فرّ وخلى أربابها جياعاً، يتندمون على ما كان من حسن تقاضيهم وإحسانهم، فكان جزاؤهم وشكرهم اقتطاع حقوقهم، والذهاب بأقواتهم.

---

[1]الخطار: الخوف على الأنفس. (2) التغرير: المخاطرة.

ويسكنها الساكن حين يسكنها، وقد كسحناها ونظفناها، لتحسن في عين المستأجر، وليرغب فيها الناظر، فإذا خرج ترك فيها مزبلة وخراباً لا تصلحه إلا النفقة الموجعة، ثم لا يدع مترساً[1] إلا سرقه، ولا سلماً إلا حمله، ولا نقضاً[2] إلا أخذه، ولا برادة إلا مضى بها معه، وبدع دق الثوب، والدق[3] في الهاون والمنحاز[4]، في أرض الدار ويدق على الأجذاع[5] والحواضن[6] والرواشن[7]، وإن كانت الدار مقرمدة، أو بالآجر مفروشة، وقد كان صاحبها جعل في ناحية منها صخرة ليكون الدق عليها، ولتكون واقية دونها، دعاهم التهاون والقسوة والغش والغسولة[8] إلى أن يدقوا حيث جلسوا، وإلى ألا يحفلوا بما أفسدوا. لم يعط قط لذلك أرشاً[9]، ولا استحل[10] صاحب الدار، ولا استغفر الله منه في السر، ثم يستكثر من نفسه في السنة إخراج عشرة دراهم، ولا يستكثر من رب الدار ألف دينار في الشهر، أيذكر ما يصير إلينا مع قلته، ولا يذكر ما يصير إليه مع كثرته؟!

* * *

هذا والأيام التي تنقض المبرم، وتبلي الجدة، وتفرق الجميع المجتمع،

---

(1) مترس: المترس والمترسة: خشبة توضع خلف الباب لتدعمه.

(2) نقضاً: منقوض مهدوم.

(3) الدق: ضرب الثوب حتى يبيض.

(4) المنحاز: الهاون.

(5) الأجذاع: قطع الحطب الكبيرة يدق عليها.

(6) الحواضن: أحجار منقوشة تستعمل للماء وغيره.

(7) الرواشن: الرفوف. (8) الغسولة: النذالة.

(9) الأرش: الدية. (10) استحل الشيء: سأله أن يحله له.

عاملة في الدور، كما تعمل في الصخور، وتأخذ من المنازل كما تأخذ من كل رطب ويابس، وكما تجعل الرطب يابساً، واليابس هشيماً، والهشيم مضمحلاً.

ولا نهدام المنازل غاية قريبة، ومدة قصيرة، والساكن فيها هو كان المتمتع بها، والمنتفع بمرافقها، وهو الذي أبلى جدتها وذهب بحلاها، وبه هرمت وذهب عمرها، لسوء تدبيره.

فإذا قسنا العزم عند انهدامها بإعادتها وبعد ابتدائها، وعزم ما بين ذلك من مرمتها واصلاحها، ثم قابلنا بذلك ما أخذنا من غلاتها، وارتفقنا[1] به من اكرائها، خرج على المسكن من الخسران، بقدر ما حصل للساكن من الربح، إلا أن الدراهم التي أخرجناها من النفقة كانت جملة، والتي أخذناها على جهة الغلة جاءت مقطعة، وهذا مع سوء القضاء، والأحواج إلى طول الاقتضاء، ومع بغض الساكن للمسكن وحب المسكن للساكن. لأن المسكن يحب صحة بدن الساكن، ونفاق سوقه إن كان تاجراً، وتحرك صناعته إن كان صانعاً. ومحبة الساكن أن يشغل الله عنه المسكن كيف شاء، إن شاء شغله بعينه، وإن شاء بزمانه، وإن شاء بحبس، وإن شاء بموت، ومدار مناه أن يشغل عنه، ثم لا يبالي كيف كان ذلك الشغل، إلا أنه كلما كان أشد، كان أحب إليه، وكان أجدر أن يأمن، وأخلق لأن يسكن، وعلى أنه إن فترت سوقه، أو كسدت صناعته، ألح في طلب التخفيف من أصل الغلة والحَطيطة[2] مما حصل عليه من الأجرة. وعلى أنه إن أتاه الله بالأرباح في تجارته، والنفاق في صناعته، لم ير أن يزيد قيراطاً في ضريبته، ولا أن

---

(1) ارتفقنا: انتفعنا.

(2) الحطيطة: أن يحط ما يحصل عليه من الأجرة.

يعجل فلساً قبل وقته.

ثم إن كانت الغلة صحاحاً[1]، دفع أكثرها مقطعة[2]، وإن كانت أنصافاً وأرباعاً دفعها قُراضة[3] مفتّتة، ثم لا يدع مزبَّقاً[4] ولا مكحلاً[5] ولا زائفاً ولا ديناراً بهرجاً[6] إلا دسّه فيه ودلّسه[7] عليه، واحتال بكل حيلة وتأتّى له بكل سبب. فإن ردوا عليه بعد ذلك شيئاً، حلف بالغموس[8] أنه ليس من دراهمه ولا من ماله، ولا رآه قط، ولا كان في ملكه. فإن كان الرسول جارية رب الدار أفسدها وربما أحبلها، وإن كان غلاماً خدعه وربما شطر[9] به، هذا مع التشرّف[10] على الجيران والتعرّض للجارات، ومع اصطياد طيورهم، وتعريضنا لشكاياتهم. وربما استضعف عقولهم، وطمع في فسادهم وعيبهم، فلا يزال يضرب لهم بالإسْلاف[11]، ويغريهم بالشهوات، ويفتح لهم أبواباً من النفقات، ليعييهم ويربح عليهم، حتى إذا استوثق منهم، أعجلهم وحَزَق[12] بهم، حتى يتقوُه ببيع بعض الدار، أو باسترهان الجميع، ليربح، مع الذهاب بالأصل، السلامة مع طول مقامه من الكراء. وربما جعله بيعاً في الظاهر،

(1) صحاحاً: أي دراهم صحاحاً.

(2) مقطعة: مجزأة.

(3) قراضة: ما سقط بالقرض، ومنه قراضة الذهب والمعادن الأخرى.

(4) مزبقاً: مطلي بالزئبق ليوهمه بأنه فضة.

(5) مكحلاً: ظاهر الزيف.

(6) بهرجاً: لماعاً، براقاً ولكنه رديء الذهب.

(7) دلسه عليه: كتم عيبه عنه.

(8) الغموس: هي اليمين التي تغمس صاحبها بالإثم.

(9) شطر به: أعطاه شطراً.

(10) التشرف: الأشراف والظهور.

(11) الإسلاف: التسليف.

(12) حزق بهم: أوقعهم، أحاطت بهم مكايده.

ورهناً في الباطن، فحينئذ يقتضيهم دون المهلة، ويدعيها قبل الوقت.

* * *

وربما بلغ من استضعافه واستثقاله لأداء الكراء، أن يدّعي أن له شَقيصاً[1]، وأن له يداً، ليصير خصماً من الخصوم، ومنازعاً غير غاصب، وربما أخذهم ومعه امرأة يفجر بها، فيجعل استئجار البيوت وتصفّح المنازل، علة لدخولها والمقام ساعة فيها. فإذا استقر في المنزل، قضى حاجته منها، وردّ المفتاح.

وربما اكترى المنزل وفيه مرمّة[2]، فاشترى بعض ما يصلحها، ثم يتوخى عاملاً جيد الكسوة، وجيراناً أصحاب آنية وآلة، فإذا شغل العامل وغفل، اشتمل على كل ما قدر عليه، وتركهم يتسكعون[3].

وربما استأجر إلى جنب سجن لينقب أهله إليه، وإلى جنب صراف لينقب عليه، طلباً لطول المهلة والستر، ولطول المدة والأمن.

وربما جنى[4] الساكن ما يدعو إلى هدم دار المسكن، بأن يقتل قتيلاً أو يجرح شريفاً، فيأتي السلطان الدار، وأربابها إما غيب، وإما أيتام، وإما ضعفاء، فلا يصنع شيئاً دون أن يسوّيها بالأرض.

* * *

وبعد فالدور مُلقّاة[5]، وأربابها منكوبون مُلقّون، وهم أشد الناس اغتراراً

---

(3) شقيص: نصيب، حصة.

(4) مرمه: ما يحتاج إلى ترميم وإصلاح.

(5) يتسكعون: أي تركهم في حيرة من أمرهم لا يدرون ما يفعلون.

(1) جنى: ارتكب جناية.

(2) ملقاة: أي تتلقى الشر.

بالناس، وأبعدهم غاية من سلامة الصدور، وذلك أن من دفع دارَه ونِقْضَها[1] وسَاجَها[2] وأبوابها، مع حديدها وذَهَب سقوفها، إلى مجهول لا يعرف، فقد وضعها في مواضع الغَرَر[3]، وعلى أعظم الخطر. وقد صار في معنى المودع.

ثم ليست الخيانة وسوء الولاية إلى شيء من الودائع أسرع منها إلى الدور. وأيضاً أصلح السكان حالاً من إذا وجد في الدار مرمّة فَفَوَّضوا إليه النفقة، وأن يكون ذلك محسوباً عند الأهلّة، الذي يشفّف[4] في البناء ويزيد في الحساب، فما ظنك بقوم هؤلاء أصلحهم وهم خيارهم.

وأنتم أيضاً ربما أكْرَيتُم مستغلاّت غيركم، بأكثر مما اكتريتموها منه، فسيروا فينا كسيرتكم فيهم، وأعطونا من أنفسكم مثل ما تريدونه منهم، وربما بنيتم في الأرض، فإذا صار البنيان بنيانكم.. وإن كانت الأرض لغيركم ادعيتم الشركة، وجعلتموه كالإجَارَة، وحتى تصيّروه كَتِلاد[5] مال أو مُوَرث سَلَف.

وجُرْمٌ آخر، وهو أنكم أهلكتم أصول أموالنا، وأخربتم غلاّتنا، وحططتم بسوء معاملتكم أثمان دورنا ومستغلاتنا، حتى سقطت غلات الدور من أعين المياسير وأهل الثروة، ومن أعين العوام والحشوة[6]، وحتى تدافعوا بكل حيلة، وصرفوا أموالهم في كل وجه، وحتى قال عبيد بن الحسن[7] قولاً أرسله مثلاً،

(1) نقضها: المهدوم منها.

(2) الساج: نوع من الخشب الهندي.

(3) الغرر: الخطر.

(4) يشفّف: ينقص.

(5) التلاد من المال: هو المال الموجود من قديم.

(6) الحشوة: الحشوة والحِشوة (بكسر الحاء وضمها): هو الرديء من الشي، والحشوة من الناس: هو من رذالتهم.

(7) عبيد الله بن الحسن العنبري: قاض وخطيب فصيح.

وعاد علينا حجة وضرراً، وذلك أنه قال:

(غلّة الدار مُسْكَة[1] وغَلّة النخل كَفاف[2]، وإنما الغلّة غلّة الزرع والنَّسُولَتَيْنِ[3]).

وإنما جرّ ذلك علينا حسن اقتضائنا، وصبرنا على سوء قضائكم، وأنتم تقطعونها علينا، وهي عليكم مجملة، وتُلوونا[4] بها وهي عليكم حالّة. فصارت كذلك غلّات الدور وإن كانت أكثر ثمناً ودخلاً أقل ثمناً وأخبث أصلاً من سائر الغلاّت. فأنتم شر علينا من الهند والروم ومن الترك والديلم[5]، إذ كنتم أحضر أذى وأدّوم شراً. ثم كانت هذه صفتكم وحليتكم ومعاملتكم في شيء لا بدّ لكم منه، فكيف كنتم لو امتحنتم بما لكم عنه مندوحة، والوجوه لكم فيه مُعرِضة، وأنتم فيه بالخيار، وليس عليكم طريق للاضطرار.

وهذا مع قولكم: إن نزول دور الكراء أصوب من نزول دور الشراء.

وقلتم: لأن صاحب الشراء قد أغلق رهنه وأشرط نفسه، وصار بها ممتحناً، وبثمنها مرتهناً. ومن اتخذ داراً، فقد أقام كفيلاً لا يخفر، وزعيماً[6] لا يغرم. وإن غاب عنها حن إليها، وإن أقام فيها ألزمته المؤن وعرضته للفتن، إن أساؤوا جواره، وأنكر مكانه، وبعد مصلاّه، ونأتْ عنه سوقُه، وتفاوتت حوائجه، ورأى أنه قد أخطأ في اختيارها على سواها، وأنه لم يوفق لرشده

---

(1) مسكة: ما يمسك الرمق من الطعام والشراب.

(2) كفاف: أي ما كفى عن الناس.

(3) النسولتين: الواحدة نسولة وهم ما تقتنى لأجل النسل.

(4) تلووننا: تماطلوننا.

(5) الديلم: شعب من الترك.

(6) زعيم: كفيل.

حين آثرها على غيرها، وإن من كان كذلك فهو عبد داره وخَوَل[1] جاره، وإن صاحب الكراء الخيار في يده والأمر إليه. فكل دار هي له متنزه إن شاء، ومتجر إن شاء. ومسكن إن شاء. لم يحتمل فيها اليسير من الذل، ولا القليل من الضيم، ولا يعرف الهوان، ولا يسأم الخسف[2]، ولا يحترس من الحساء، ولا يداوي المتعللين.

وصاحب الشراء يُجرّع المُرار، ويُسقى بكأس الغيظ، ويكدّ بطلب الحوائج، ويحتمل الذلة وإن كان ذا أَنَفَة. إن عفا عفا على كَظْم، ولا يوجه ذلك منه إلا على العجز، وإن رام المكافأة تعرض لأكثر مما أنكره. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق).

* * *

وزعمتم أن تسقّط الكراء أهون، إذ كان شيئاً بعد شيء. وإن الشدائد إذا وقعت جملة، جاءت غامرة للقوة، فأما إذا تَقَطّع وتَفَرّق، فليس يُكترث لها إلا من تفقدها وتذكرها. ومال الشراء يخرج جملة، وثلمتُه[3] في المال واسعة، وطعنته نافذة. وليس كل خرق يرقع، ولا كل خارج يرجع، وأنه قد أمن من الحرق والغرق وميل أسطوان[4] وانقصاف سهم، واسترخاء أساس، وسقوط سترة، وسوء جوار، وحسد مشاكل. وأنه إما لا يزال في بلاء، وإما أن يكون متوقعاً لبلاء.

وقلتم: إن كان تاجراً فتصريف ثمن الدار في وجوه التجارات أربح، وتحويله في أصناف البياعات أكيس، وإن لم يكن تاجراً، ففي ما وصفناه له

---

(1) خول: خدم.

(2) يسام الخسف: يولى الذل.

(3) ثلمته: الثلمة هي الشق والخلل.

(4) أسطوان: الأعمدة.

ناهٍ وفي ما عددنا له زاجر، فلم تمنعكم حرمة المساكنة، وحق المجاورة، والحاجة إلى السكنى وموافقة المنزل، أن أشرتم على الناس بترك الشراء.

وفي كساد الدور فساد لأثمان الدور، وجرأة للمستأجر، واستحطاط من الغلّة، وخسران في أصل المال.

وزعمتم أنكم قد أحسنتم إلينا حين حثثتم الناس على الكراء، لما في ذلك من الرخاء والنماء، فأنتم لم تريدوا نفعنا بترغيبهم في الكراء، بل إنما أردتم أن تضرونا بتزهيدكم في الشراء، وليس ينبغي أن يحكم على كل قوم إلا بسبيلهم، وبالذي يغلب عليهم من أعمالهم.

فهذه الخصال المذمومة كلها فيكم، وكلها حجة عليكم، وكلها داعية إلى تهمتكم وأخذ الحذر منكم، وليست لكم خصلة محمودة، ولا خلة فيما بيننا وبينكم مرضية.

وقد أريناكم أن حكم النازلين كحكم المقيمين، وأن كل زيادة فلها نصيب من الغلة، ولو تغافلت لك يا أخا أهل البصرة عن زيادة رجلين لم أبعدك على قدر ما رأيت منك أن تلزمني ذلك، فيما يتبين، حتى يصير كراء الواحد ككراء الألف، وتصير الإقامة كالظعن والتفريغ كالشغل. وعلى أني لو كنتُ أمسكتُ عن تقاضيك، وتغافلتُ عن تعريفك ما عليك، لذهب الإحسان إليك باطلاً، إذ كنتَ لا ترى للزيادة قدراً، وقد قال الأول:

والكُفْرُ مَخْبَثَةٌ لِنَفْسِ المُنْعِمِ[1]

وقال الآخر:

تَبَدَّلْتُ بِالمَعْرُوفِ نُكْراً وَرُبَّمَا ... تَنَكَّرَ لِلْمَعروفِ مَنْ كَانَ يُكَفرُ[2]

---

(1) البيت لعنترة، وصدره: نبئت عمراً غير شاكر نعمتي.

(2) يكفر: يجحد معروفه.

أنت تطالبني ببغض المعتزلة للشيعة، وبما بين أهل الكوفة والبصرة، وبالعداوة التي بين أسد وكندة، وبما في قلب الساكن من استثقال المسكن، وسيعين، الله عليك، والسلام.

* * *

مدحتم من مدح صنوف الخطأ

قال إسماعيل بن غزوان: لله در الكندي ما كان أحكمه وأحضر حجته، وأنصح جيبه وأدوم طريقته!..

رأيته وقد أقبل على جماعة ما فيها إلا مفسد، أو من يزين الفساد لأهله، من شاعر بوده أن الناس كلهم قد جاوزوا حدّ المسرفين إلى حدود المجانين. ومن صاحب تنقيع[1] واستئكال[2]، ومن ملاّقٍ مُتَقرّب، فقال:

تسمّون من منع المال من وجوه الخطأ، وحصّنه خوفاً من الغِيلَة[3]، وحفظه إشفاقاً من الذلة بخيلاً، تريدون بذلك ذَامَه[4] وشَينه؟

وتسمّون من جهل فضل الغنى، ولم يعرف ذلة الفقر، وأعطى في السرف، وتهاون بالخطأ، وابتذل النعمة، وأهان نفسه بإكرام غيره جواداً، تريدون حمده ومدحه؟

فاتهموا على أنفسكم من قدّمكم على نفسه، فإن من الخطأ على نفسه، فهو أجدر أن يخطئ على غيره، ومن الخطأ في ظاهر دنياه، وفيما يوجد في العين، كان أجدر أن يخطئ في باطن دينه، وفيما يوجد بالعقل، فمدحتم

---

(1) تنقيع: من نقع له الشر أي أدامه.

(2) استئكال: أكل أموال الناس.

(3) الغيلة: الاغتيال.

(4) ذام: ذم.

من مدح صنوف الخطأ، وذممتم من جمع صنوف الصواب، فاحذروهم كل الحذر، ولا تأمنوهم على حال.

لحفظ المال بنيت الحيطان

قال إسماعيل: وسمعت الكندي يقول: إنما المال لمن حفظه، وإنما الغنى لمن تمسّك به، ولحفظ المال بنيت الحيطان، وغلقت الأبواب، واتخذت الصناديق، وعملت الأقفال، ونُقشت الرُّشوم[1] والخواتيم، وتُعُلّم الحساب والكتاب. فَلِمَ يَتّخذون هذه الوقايات دون المال؟ وأنتم آفته وأنتم سوسه وقادحه؟ وقد قال الأول:

(أُحْرُس أَخاكَ إلاّ مِنْ نَفْسه).

ولكن أحسبُ أنك قد أخذته في الجواسق[2]، وأودعته الصخور، ولم يشعر به صديق ولا رسول ولا معين، من لك بألا تكون أشد عليه من السارق وأعدى عليه من الغاصب؟ وأجعلك قد حصّنته من كل يد ولا تملكه، كيف لك من أن تحصّنه من اليد التي تملكه؟ وهي عليه أقدر، ودواعيها أكثر، وقد علمتنا أن حفظ المال أشد من جَمْعه؟ وهل أُتِيَ الناس إلا من أنفسهم، ثم ثقاتهم؟ فالمال لمن حفظه، والحسرة لمن أتلفه، وإنفاقه هو تلافه، وإن حسنتموه بهذا الاسم وزينتموه بهذا اللقب.

ابدأ بمن تَعُول

وزعمتم أنما سَمَّينا البخل إصلاحاً والشح اقتصاداً، كما سمَّى قوم الهزيمة انحيازاً، والبذاء عارضة، والعزم عن الولاية صرفاً، والجائر على أهل الخراج مستقصياً، بل أنتم الذين سميتم السرف جوداً، والنفجَ[3] أريحية[4]،

---

(1) الرشوم: مفردها رشم وهو العلامة. (2) الجواسق: واحدها جوسق: وهو الحصن.

(3) النفج: الافتخار بأكثر مما يملك الإنسان. (4) أريحية: سخاء وبذل.

وسوء نظر المرء لنفسه ولعقبه كرماً. قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (ابدأ بمن تعول). وأنت تريد أن تغني عيال غيرك بإفقار عيالك، وتسعد الغريب بشقوة القريب، وتتفضل على من لا يعدل عنك، ومن لو أعطيته أبداً لأخذ أبداً.

قد علمتم ما قال صاحبنا لأخي تغلب، فإنه قال: يا أخا تغلب إني والله كنت أجري ما جرى هذا الغَيْل[1]، وأُجري وقد انقطع النَّيل[2]. إني والله لو أعطيتك، لما وصلت إليك، حتى أتجاوز من هو أحق بذلك منك. إني لو أمكنت الناس من مالي لنزعوا داري طوبة طوبة. إنه والله ما بقي معي منه إلا ما منعته الناس. ولكني أقول: والله إني لو أمكنت الناس من نفسي لادّعوا رقِّي، بعد سلب نعمتي.

عجبت لمن قلَّت دراهمه كيف ينام

قال إسماعيل؛ وسمعته يقول: عجبت لمن قلَّت دراهمه كيف ينام. ولكن لا يستوي من لم ينم سروراً، ومن لم ينم غمّاً. ثم قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصيته المرء يوم فقره وحاجته، وقبل أن يغرغر[3]: (الثلث، والثلث كثير). فاستحسنت الفقهاء، وتمنى الصالحون أن نغض من الثلث شيئاً لاستكثار رسول الله صلى الله عليه وسلم الثلث، ولقوله: (إنك أن تدع عيالك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس). ورسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يرحم عيالنا إلا بفضل رحمته لنا. فكيف تأمرونني أن أوثر أنفسكم على نفسي، وأقدم عيالكم على

(1) الغيل: الماء الجاري على وجه الأرض.

(2) النيل: من نال الشيء: حصل عليه، المراد.

(3) يغرغر: يجود بروحه عند الموت.

عيالي، وأن أعتقد الثناء بدلاً من الغنى، وأن أكنز الريح وأصطنع السراب بدلاً من الذهب والفضة.

إن للنفس عند كل طارف نزوة

قال إسماعيل: وسمعته يقول لعياله وأصحابه: اصبروا عن الرطب عند ابتدائه وأوائله، وعن باكورات الفاكهة، فإن للنفس عند كل طارف نزوة، وعند كل هاجم بدوة، وللقادم حلاوة وفرحة، وللجديد بشاشة وغِرّة، فإنك متى رددتها ارتدت، ومتى ردعتها ارتدعت، والنفس عزوف[1] ونفور ألوف، وما حملتها احتملت وإن أهملتها فسدت، فإن لم نكف عن جميع دواعيها، وتحسم جميع خواطرها في أول ردة، صارت أقل عدداً، وأضعف قوة. فإذا أثر ذلك فيها، فعظها في تلك الباكورة[2] بالغلاء والقلة. فإن ذِكر الغلاء والقلة حجّةٌ صحيحة وعلّة عاملة في الطبيعة، فإذا أجابتك في الباكورة، فسمّها[3] مثل ذلك في أوائل كثرتها. واضرب نقصان الشهوة ونقصان قوة الغلبة بمقدار ما حدث لها من الرخص والكثرة، فلست تلقى على هذا الحساب من معالجة الشهوة في غدك، إلا مثل ما لقيت منها في يومك، حتى تنقضي أيام الفاكهة وأنت على مثل ابتداء حالك وعلى أول مجاهدتك لشهوتك.

ومتى لم تعد أيضاً الشهوة فتنة والهوى عدواً، اغتررت بهما، وضعفت عنهما، وائتمنتهما على نفسك، وهما أحضر عدو وشر دخيل. فاضمنوا لي النزوة الأولى، أضمن لكم تمام الصبر وعاقبة اليسر، وثبات العز في قلوبكم، والغنى في أعقابكم، ودوام تعظم الناس لكم، فإنه لو لم يكن من منفعة الغنى إلا أنك لا تزال معظماً عند من لم ينل منك قط درهماً، لكان

---

(1) عزوف: أي تزهد بالشيء وتتصرف عنه.

(2) الباكورة: البدء من كل شيء. (3) فسمها: أي فاعرض عليها.

الفضل في ذلك بيّناً، والربح ظاهراً.

ولو لم يكن من بركة الثروة ومن منفعة اليسر، إلا أن رب المال الكثير، لو اتصل بملك كبير وفي جلسائه من هو أوجب حرمة وأقدم صحبة وأصدق محبة وأمتع إمتاعاً وأكثر فائدة وصواباً، إلا أنه خفيف الحال قليل ذات اليد، ثم أراد ذلك الملك أن يقسم مالاً أو يوزع بينهم طرفاً، لجعل حظ الموسر أكثر وإن كان في كل شيء دون أصحابه، وحظ المخف أقل وإن كان في كل شيء فوق أصحابه.

* * *

قد ذكرنا رسالة سهل بن هارون[1]، ومذهب الحزامي، وقصص الكندي، وأحاديث الحارثي، واحتجاجاتهم، وطرائف بخلهم، وبدائع حيلهم.

(1) حذفت رسالة سهل بن هارون من هذه النسخة لأسباب فنية فقط.

قصة محمد بـن أبـي المؤمل

إذا كثر الخبز ورث النفس صدوداً

قلت لمحمد بن أبي المؤمل: أراك تطعم الطعام وتتخذه، وتنفق المال عليه وتجوده. وليس بين قلّة الخبز وكثرته كثير ربح. والناس يبخلون من قلَّ عدد خبزه، ورأوا أرض خوانه، وعلى أني أرى جماجم من يأكل معك أكثر من عدد خبزك. وأنت لو لم تتكلَّف، ولم تحمل على مالك بإجادته والتكثير منه، ثم أكلت وحدك، لم يلمك الناس، ولم يكترثوا لذلك منك، ولم يقضوا عليك بالبخل ولا بالسخاء، وعشت سليماً موفوراً، وكنت كواحد من عرض[1] الناس، وأنت لو لم تنفق الحرائب[2] وتبذل المصون، إلا وأنت راغب في الذكر والشكر، وإلا لتحرز الأجر، فقد صرنا لقلة عدد خبزك من بين الأشياء، نرضى لك من الغنيمة بالإياب، ومن غنم الحمد والشكر بالسلامة من الذم واللوم. فزد في عدد خبزك شيئاً، فإن بتلك الزيادة القليلة ينقلب ذلك اللوم شكراً وذلك الذم حمداً. أعلمت أنك لست تخرج من هذا الأمر بعد الكلفة العظيمة سالماً، لا لك ولا عليك؟ فانظر في الأمر، رحمك الله.

قال: يا أبا عثمان، أنت تخطئ، وخطأ العاقل أبداً يكون عظيماً، وإن كان في العذر قليلاً، لأنه إذا أخطأ أخطأ بتفقّهٍ وإحكامٍ. فعلى قدر التفكُّر والتكلُّف يبعد من الرشاد ويذهب عن سبل الصواب، وما أشك أنك قد نصحت بمبلغ الرأي منك، ولكن خف ما خوفتك، فإنه مخوف.

بل الذي أصنع أدلّ على سخاء النفس بالمأكول، وأدلّ على الاحتيال

(1) من عرض الناس: من وسطهم.

(2) الحرائب: مفردها حريبة: وهو مال الرجل الذي يقوم به أمره.

ليبالغوا[1]؛ لأن الخبز إذا كثر على الموائد ورث ذلك النفس صدوداً، وكل شيء من المأكول وغير المأكول إذا ملأ العين ملأ الصدر. وفي ذلك موت الشهوة، وتسكين الحركة، ولو أن رجلاً جلس على بيدر تمر فائق، وعلى كدس[2] كمثرى منعوت، وعلى مئة قنو[3] موز موصوف، لم يكن أكله إلا على قدر استطرافه[4]، ولم يكن أكله على قدر أكله إذا أتي بذلك في طبق نظيف، مع خادم نظيف، عليه منديل نظيف.

وبعد فأصحابنا آنسون واثقون مسترسلون[5]، يعلمون أن الطعام لهم اتخذ، وأن أكلهم له أوفق من تمزيق الخدم والاتباع له، ولو احتاجوا لدعوا به ولم يحتشموا منه، ولكان لا أقل من أن يجربوا ذلك المرة والمرتين، وأن لا يقضوا علينا بالبخل دون أن يرونه. فإن كانوا محتشمين وقد بسطناهم[6]، وساء ظنهم بنا مع ما يرون من الكلفة لهم، فهؤلاء أصحاب تجن وتنزع[7]، وليس في طاقتي إعتاب المتجني ولا رد المتنزع.

قلت له: إني رأيت أكلهم في منازلهم وعند إخوانهم، وفي حالات كثيرة ومواضع مختلفة، ورأيت أكلهم عندك، فرأيت شيئاً متفاوتاً وأمراً متفاقماً[8]، فأحسب أن التجني عليهم غالب، وأن الضعف لهم شامل، وأن سوء الظن

(1) ليبالغوا: ليكثروا من الأكل.

(2) كدس: أكوام.

(3) قنو موز: عنقود موز.

(4) استطرافه: استحسانه.

(5) مسترسلون: مستأنسون.

(6) بسطناهم: سررناهم.

(7) تنزع: تسرع.

(8) متفاقماً: عظيماً.

يسرع إليهم خاصة. لِمَ لا تداوي هذا الأمر بما لا مؤونة فيه وبالشيء الذي لا قدر له، أو تدع دعاءهم[1] والإرسال إليهم والحرص على إجابتهم؟ والقوم ليس يلقون أنفسهم عليك، وإنما يجيئونك بالاستحباب منك، فإن أحببت أن تمتحن ما أقول، فدع مواترة[2] الرسل والكتب، والتغضب عليهم إذا أبطؤوا، ثم انظر.

قال: فإن الخبز إذا كثر على الخوان، فالفاضل مما يأكلون لا يسلم من التلطيخ والتغمير[3]، والجردقة الغمرة والرقاقة المتلطخة، لا أقدر أن أنظر إليها، وأستحيي أيضاً من إعادتها، فيذهب ذلك الفضل باطلاً، والله لا يحب الباطل.

قلت: فإن ناساً يأمرون بمسحه، ويجعلون الثريدة منه، فلو أخذت بزيهم وسلكت سبيلهم، أتى ذلك على ما تريد ونريد.

قال: أفلست أعلم كيف الثريدة، ومن أي شيء هي؟ وكيف أمنع نفسي التوهم وأحول بينها وبين التذكر؟ ولعل القوم أن يعرفوا ذلك على طول الأيام، فيكون هذا قبيحاً.

قلت: فتأمر به للعيال، فيقوم الحُواري[4] المتلطخ مقام الخُشْكار[5] النظيف. وعلى أن المسح والدلك يأتي على ما تعلق به من الدسم.

قال: عيالي – يرحمك الله – عيالان: واحد أعظّمه هذا وأرفعه عنه، وآخر لم يبلغ عندي أن يُنْزَفَ بالحُوّاري.

---

(1) دعائهم: دعوتهم.

(2) مواترة: متابعة.

(3) التغمير: التلوث بالدسم.

(4) الحواري: الدقيق الأبيض.

(5) الخُشكار: الدقيق الخشن مع النخالة.

قلت: فاجعل إذاً جميع خبزك الخشكار، فإن فضل ما بينه وبين الحواري في الحسن والطيب، لا يقوم بفضل ما بين الحمد والذم.

قال: فهاهنا رأي هو أعدل الأمور وأقصدها، وهو أنَّ نحضر هذه الزيادة من الخبز على طبق، ويكون قريباً حيث تناوله اليد، فلا يحتاج أحد مع قربه منه إلى أن يدعو به، ويكون قربه من يده كثرة على مائدته.

قلت: فالمانع من طلبه هو المانع من تحويله، فأطعني وأخرج هذه الزيادة من مالك كيف شئت. واعلم أن هذه المقايسة[1] وطول هذه المذاكرة أضرَّ علينا مما نهيتك عنه وأردتك على خلافه.

فلما حضر وقت الغداء، صوَّت[2] بغلامه، وكان ضخماً جهير الصوت صاحب تقعير[3] وتفخيم[4] وتشديق[5] وهمز[6] وجزم[7]: يا مبشّر، هات من الخبز تمام عدد الرؤوس.

قلت: ومن فرض لهم هذه الفريضة؟ ومن جزم عليهم هذا الجزم؟ أرأيت إن لم يشبع أحدهم رغيفه، أليس لا بد له من أن يعول على رغيف صاحبه، أو يتنحى وعليه بقية، ويعلق يده منتظراً للعادة؟ فقد عاد الأمر وبطل ما تناظرنا فيه.

قال: لا أعلم إلا ترك الطعام البتة، أهون علينا من هذه الخصومة.

قلت: هذا ما لا شك فيه، وقد علمتَ عندي بالصواب، وأخذتَ لنفسك

---

(1) المقايسة: الموازنة.

(2) صوَّت بغلامه: دعاه، ناداه.

(3) تقعير: أن يتكلم بأقصى قعر الفم.

(4) تفخيم: تعظيم للحروف والكلمات.

(5) تشديق: فتح الفم وتوسيعه.

(6) همز: ضغط الكلمات للتأثير في السامع.

(7) جزم: قطع.

بالثقة، إن وفيت بهذا القول.

قد تغير كل شيء من أمر الدنيا

وكان كثيراً ما يقول: يا غلام، هات شيئاً من قليّة وأقلّ منها، وأهد لنا ماءً بارداً وأكثر منه.

وكان يقول: قد تغير كل شيء من أمر الدنيا، وحال عن أمره وتبدل، حتى المؤاكلة، قاتل الله رجالاً كنا نؤاكلهم، ما رأيت قصعة قط رفعت من بين أيديهم إلا وفيها فضل، وكانوا يعلمون أن إحضار الجدي إنما هو شيء من آيين[1] الموائد الرفيعة، وإنما جعل كالعاقبة والخاتمة، وكالعلامة لليسر وللفراغ، وأنه لم يحضر للتمزيق والتخريب، وأن أهله لو أرادوا به السوء لقدموه قبل كل شيء لتقع الحدّة به. بل ما يأكل منه إذا جيء به إلا العابث، وإلا الذي لو لم يره لقد كان رفع يده ولم ينتظر غيره. ولذلك قال أبو الحارث جمّين، حين رآه لا يمس: هذا المدفوع عنه. ولولا أنه على ذلك شاهد الناس، لما قال ما قال. ولقد كانوا يتحامون بيضة البقيلة[2]، ويدعها كل واحد منهم لصاحبه، حتى إن القصعة لقد كانت ترفع وإن البيض خاصة لعلى حاله. وأنت اليوم إذا أردت أن تمتع عينيك بنظرة واحدة منها ومن بيض السُّلاءة[3] لم تقدر على ذلك. لا جزم لقد كان تركه ناس كثير، ما بهم إلا أن يكونوا شركاء من ساءت رِعَتُه[4].

(1) آيين: عادة.

(2) بيضة البقيلة: قطعة لحم كالبيضة يوضع عليها البقل والزيت والخضر.

(3) السلاءة: طائر طويل الساقين.

(4) الرعة: الحالة والشأن.

لو شرب الماء ما أتخم

وكان يقول: الآدام أعداء للخبز، وأعداها له المالح، فلولا أن الله انتقم منه وأعان عليه بطلب صاحبه الماء وإكثاره منه، لظننت أنه سيأتي على الحرث والنسل، وكان مع هذا يقول: لو شرب الناس الماء على الطعام ما أتخموا، وأقلهم عليه شرباً أكثرهم منه تخماً، وذلك أن الرجل لا يعرف مقدار ما أكل حتى ينال من الماء، وربما كان شبعان وهو لا يدري، فإذا ازداد على مقدار الحاجة بشم، وإذا نال من الماء شيئاً بعد شيء، عرفه ذلك مقدار الحاجات، فلم يزد إلا بقدر المصلحة. والأطباء يعلمون أن ما أقول حق، ولكنهم يعلمون أنهم لو أخذوا بهذا الرأي لتعطلوا، ولذهب المكسب. وما حاجة الناس إلى المعالجين إذا صحت أبدانهم؟

وفي قول جميع الناس أن ماء دجلة أمرأ[1] من الفرات، وأن ماء مهران[2] أمرأ من ماء نهر بلخ[3]، وفي قول العرب: هذا ماء نمير يصلح عليه المال، دليل على أن الماء يمرئ، حتى قالوا: إن الماء يكون عليه النفّاطات[4] أمرأ من الماء الذي يكون عليه القيّارات[5]، فعليكم بشرب الماء على الغداء، فإن ذلك أمرأ.

الطعام والشراب أخوان متحالفان

وكان يقول: ما بال الرجل إذا قال: يا غلام اسقني ماءً أو اسق فلاناً

---

(1) أمرأ: أهنأ.

(2) مهران: نهر بالسند.

(3) بلخ: مركز خراسان.

(4) النفاطات: الأمكنة التي يخرج منها النفط.

(5) القيارات: الأمكنة التي يخرج منها القار.

ماء، آتاه بقلّة على قدر الري. فإذا قال: أطعمني شيئاً، أو قال: هات لفلان طعاماً، أتاه من الخبز بما يفضل عن الجماعة، والطعام والشراب أخوان متحالفان ومتوازران.

وكان يقول: لولا رخص الماء وغلاء الخبز، لما كلبوا[1] على الخبز وزهدوا في الماء، والناس أشد شيء تعظيماً للمأكول إذا كثر ثمنه، أو كان قليلاً في أصل منبته وموضع عنصره[2].

هذا الجزر الصافي، وهذا الباقلي الأخضر العباسي، أطيب من كمثرى خراسان، ومن الموز البستاني، ولكنهم لقصر همتهم لا يشتهون إلا على قدر الثمن، ولا يحنون إلى الشيء إلا على قدر القلة، وهذه العوام في شهوات الأطعمة إنما تذهب مع التقليد، أو مع العادة، أو على قدر ما يعظم عندها من شأن الطعام.

وأنا لست أطعم الجزر المسلوق بالخل والزيت والمُرّي[3]، دون الكمأة بالزبد والفلفل، لمكان الرخص، أو لموضع الاستفضال، ولكن لمكان طيبه في الحقيقة، ولأنه صالح للطبيعة، علم ذلك من علم، وجهل ذلك من جهل.

يحتال.. إذا دخل عليه الصديق

وكان، إذا كان في منزله، فربما دخل عليه صديق له، وقد كان تقدمه الزائر أو الزائران، وكان يستعمل على خوانه من الخدع والمكايد والتدبير ما لم يبلغ بعضه قيس[4] بن زهير، والمهلب بن أبي صفرة، وخازم بن خزيمة[5]

(1) كلبوا: حرصوا.

(2) عنصره: أصله.

(3) المري: ما يؤتدم به.

(4) قيس بن زهير العبسي: هو ابن زهير العبسي أمير عبس وسيد العرب وهوازن. وقيس: هو بطل يوم داحس والغبراء.

وهرثمة بن أعين(1)، وكان عنده فيه من الاحتيال ما لا يعرفه عمرو بن العاص ولا المغيرة بن شعبة(2).

وكان كثيراً ما يمسك الخلال بيده ليوئس الداخل عليه من غدائه، فإذا دخل عليه الصديق له، وقد عزم على إطعام الزائر أو الزائرين قبله، وضاق صدره بالثالث، وإن كان قد دعاه وطلب إليه، أراد أن يحتال له، أو الرابع إن ابتلي كل واحد منهما بصاحبه فيقول عند أول دخوله، وخلع نعله – وهو رافع صوته بالتنويه وبالتشنيع: هات يا مبشر لفلان شيئاً يطعم منه، هات له شيئاً ينال منه، هات له شيئاً، اتكالاً على خجله أو غضبه أو أنفته، وطمعاً في أن يقول: قد فعلت!..

فإن أخطأ ذلك الشقي، وضعف قلبه وحصر (3) وقال: قد فعلت، وعلم أنه قد أحرزه وحصله وألقاه وراء ظهره، لم يرض أيضاً بذلك حتى يقول: بأي شيء تغديت؟ فلا بد له من أن يكذب، أو ينتحل المعاريض(4)، فإذا استوثق منه رباطاً، وتركه لا يستطيع أن يترمرم(5)، لم يرض بذلك حتى يقول في حديث له: كنا عند فلان، فدخل عليه فلان فدعاه إلى غدائه فامتنع. ثم بدا له فقال: في طعامكم بقيلة أنتم تجيدونها، ثم تناوله، فلا يزال يزيد في وثاقه، وفي سدّ الأبواب عليه، وفي منعه البَدَوات(6)، حتى إذا بلغ الغاية قال: يا

---

(5) خازم بن خزيمة: هو خازم بن خزيمة النهشلي وهو أحد الجبابرة والقواد المشهورين.

(1) هرثمة بن أعين: من قواد الرشيد والمأمون، وهو خراساني.

(2) المغيرة بن شعبة الثقفي: أحد الصحابة.

(3) حصر: ضعف عن إبداء الحقيقة.

(4) المعاريض: ادعاء شيء غير حقيقي.

(5) يترمرم: يتحرك.

(6) البدوات: ما يبدو من الرأي.

مبشر أما إذ تغدى فلان واكتفى، فهات لنا شيئاً نعبث به.

فإذا وضعوا الطعام، أقبل على أشدهم حياء، أو على أشدهم أكلاً، فسأله عن حديث حسن، أو عن خبر طويل، ولا يسأل إلا عن حديث يحتاج فيه إلى الإشارة باليد والرأس، كل ذلك ليشغله. فإذا هم أكلوا صدراً[1] أظهر الفتور والتشاغل والتنقر كالشبعان الممتلئ، وهو في ذلك غير رافع يده، ولا قاطع أكله، إنما هو النَّتْف بعد النَّتْف، وتعليق اليد في خلل ذلك، فلا بد من أن ينقبض بعضهم ويرفه يده، وربما شمل جماعتهم. فإذا علم أنه قد أحرزهم واحتال لهم، حتى يقلعهم من مواضعهم من حول الخوان، ويعيدهم إلى مواضعهم من مجالسهم، ابتدأ الأكل، فأكل أكل الجائع المقرور وقال: إنما الأكل تارات والشرب تارات.

الشراب على الملأة بلاء

وكان كثيراً ما يقول لأصحابه، إذا بكروا عليه: لم لا نشرب أقداحاً على الريق؟ فإنها تقتل الديدان، وتحفش[2] لأنفسنا قليلاً، فإنها تأتي على جميع الفضول، وتشهي الطعام بعد ساعة، وسكره أطيب من سكر الكظّة[3]، والشراب على الملأة[4] بلاء، وهو بعد ذلك دليل على أنك نبيذي خالص، ومن لم يشرب على الريق، فهو نكس في الفتوة ودعيّ في أصحاب النبيذ. وإنما يخاف على كبده من سورة الشراب على الريق من بُعْدِ عهده باللحم. وهذه الصبحة تغسل عن الأوضار[5]، وتنفى التخم، وليس دواء الخمار[6] إلا

---

(1) صدر: أي كمية منه.

(2) تحفش: تريح من العضلات.

(3) الكظة: الشبع، الامتلاء.

(4) الملأة: الامتلاء.

(5) الأوضار: مفردها وضر: وهو الوسخ. (6) الخمار: صداع الخمرة.

الشرب بالكبار. والأعشى كان أعلم به حيث يقول:

وكأسٍ شربتُ عَلى لَذَّةٍ وأُخرى تداويتُ مِنْها بِهَا

وهذا، حفظك الله، هو اليوم الذي كانوا لا يعاينون فيه لقمة واحدة، ولا يدخل أجوافهم من النقل ما يزن خردلة، وهو يوم سروره التام، لأنه قد ربح المرزئة[1]، وتمتع بالمنادمة.

ابن أبي المؤمل والشبوطة

واشترى مرة شبوطة[2]، وهو ببغداد، وأخذها فائقة عظيمة، وغالى بها وارتفع في ثمنها، وكان قد بَعُدَ عهده بأكل السمك، وهو بصري لا يصبر عنه. فكان قد أكبر أمر هذه السمكة لكثرة ثمنها ولسمنها وعظمها ولشدة شهوته لها، فحين ظن عند نفسه أنه قد خلا بها، وتفرد بأطايبها، وحسر عن ذراعيه وصمد صمدها[3]، هجمتُ عليه ومعي السّدري[4]. فلما رآه رأى الموت الأحمر والطاعون الجارف، ورأى الحتم المقضي، ورأى قاصمة الظهر، وأيقن بالشر، وعلم أنه قد ابتلي بالتنّين.

فلم يُلبثه السدري حتى قَوَّر السرة بالمبال، فأقبل عليّ فقال: يا أبا عثمان، السدري يعجبه السُّرَر[5].

فما فصلت الكلمة من فيه، حتى قبض على القفا فانتزع الجانبين جميعاً. فأقبل عليّ فقال: والسدري يعجبه الأقفاء.

---

(1) المرزئة: من رزء: أي أصاب منه خيراً.

(2) الشبوط: نوع من السمك.

(3) صمد صمدها: قصد إليها.

(4) السدري: من أصحاب الجاحظ وهو من الشعراء المغمورين.

(5) السرر: مفردها سرة، منفذ الغذاء إلى الجنين.

فما فرغ من كلامه إلا والسدري قد اجترف المتن كله، فقال: يا أبا عثمان، والسدري يعجبه المتون.

ولم يظن أن السدري يعرف فضيلة ذنب الشموط وعذوبة لحمه، وظن أنه سيسلم له، وظن معرفة ذلك من الغامض. فلم يدر إلا والسدري قد اكتسح ما على الوجهين جميعاً، ولولا أن السدري أبطره وأثقله وأكمده، وملأ صدره، وملأه غيظاً، لقد كان أدرك معه طَرَفاً، لأنه كان من الأكلة. ولكن الغيظ كان من أعوان السدري عليه.

فلما أكل السدري جميع أطايبها، وبقي هو في النظارة، ولم يبق في يده مما كان يأمله في تلك السمكة إلا الغيظ الشديد والغرم الثقيل، ظن أن في سائر السمكة ما يشبعه ويشفي من قرمه، فبذلك كان عزاؤه. وذلك هو الذي كان يمسك بأرماقه[1] وحشاشات نفسه[2].

فلما رأى السدري يفري الفَرِيّ[3] ويلتهم التهاماً، قال: يا أبا عثمان، السدري يعجبه كل شيء. فتولد الغيظ في جوفه، وأقلته الرعدة، فَخَبُثَت نفسه، فما زال يقيء ويسلح، ثم ركبته الحمى.

وصحت توبته، وتم عزمه في ألا يؤاكل رغيباً أبداً ولا زهيداً، ولا يشتري سمكة أبداً رخيصة ولا غالية، وإن أهدوها إليه أن لا يقبلها، وإن وجدها مطروحة لا يمسها.

فهذا ما كان حضرني من حديث ابن أبي المؤمل، وقد مات، عفا الله عنا وعنه.

---

(1) الأرماق: مفردها رمق: وهو بقية الحياة.

(2) حشاشات: مفردها حشاشة: وهي روح القلب.

(3) يفري الفري: يأتي بالعجب في عمله.

قصة أسد بن جاني

فأما أسد بن جاني، فكان يجعل سريره في الشتاء من قصب مقشر، لأن البراغيث تزلق عن ليط[1] القصب، لفرط لينه وملاسته.

ماء خيشتي من بئري

وكان إذا دخل الصيف، وحرّ عليه بيته، أثاره[2] حتى يغرّق المسحاة[3]، ثم يصب عليه جراراً كثيرة من ماء البئر ويتوطؤه حتى يستوي. فلا يزال ذلك البيت بارداً ما دام ندياً. فإذا امتد به الندى ودام برده بدوامه، اكتفى بذلك التبريد صيفته. وإن جف قبل انقضاء الصيف وعاد عليه الحر، عاد عليه بالإثارة والصب.

وكان يقول: خيشتي أرض، وماء خيشتي من بئري[4]، وبيتي أبرد، ومؤونتي أخف، وأنا أفضلهم أيضاً بفضل الحكمة وجودة الآلة.

السنة وبئة والأمراض فاشية

وكان طبيباً فأكسد[5] مرة، فقال له قائل: السنة وبئة والأمراض فاشية، وأنت عالم، ولك صبر وخدمة، ولك بيان ومعرفة، فمن أين تُؤتى في هذا الكساد؟ قال: إما واحدة فإني عندهم مسلم، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبّب،

---

(1) ليط: قشرة القصب.

(2) أثاره: حفر أرض البيت وقلبها.

(3) المسحاة: المجرفة، ويغرقها: أي يحفر قدر طولها.

(4) الخيشة: في الأصل هي مروحة الخيش وكانت تستعمل في بلاد العراق، وتكون شبه الشراع للسفينة، وتعلق من سقف البيت، ويشد بها حبل، ويدار بها وتبل بالماء وترش بماء الورد، فحين ينام الرجل في القائلة أو الليل جذبها بحبلها، فتذهب بطول البيت وتجيء فيهب على الرجل منها نسيم طيب الريح بارد. وكلام أسد بن جاني هنا، يشبه أرضه المنداة بماء البئر بتلك المروحة دون أن يتكلف ما تكلفه هذه المروحة.

(5) أكسد: أي كسدت سوقه.

لا بل قبل أن أُخلق، أن المسلمين لا يفلحون في الطب. واسمي أسد، وكان ينبغي أن يكون اسمي صليبا وجبرائيل ويوحنا وبيرا. وكنيتي أبو الحارث، وكان ينبغي أن تكون أبو عيسى، أو أبو زكريا، وأبو إبراهيم[1]. وعليّ رداء قطن أبيض، وكان ينبغي أن يكون ردائي حريراً أسود. ولفظي لفظ عربي، وكان ينبغي أن تكون لغتي لغة أهل جندي سابور.

(1) رفعت كلمة (أبو) في الكنى الثلاث على الحكاية.

قصة الثوري

كلوا الباقلى بقشوره

قال الخليل السلولي: أقبل عليّ يوماً الثوري – وكان يملك خمسمئة جريب، ما بين كرسي الصدقة إلى نهر مرة – ولا يشتري إلا كل غرة، وكل أرض مشهورة بكريم التربة وشرف الموضع والغلة الكثيرة. قال:

فأقبل علي يوماً، فقال لي: هل اصطبغت بماء الزيتون قط؟ قال: قلت: لا والله، قال: أما والله لو فعلته ما نسيته. قال: قلت: أجل إني والله لو فعلته ما نسيته[1].

وكان يقول لعياله: لا تلقوا نوى التمر والرطب، وتعودوا ابتلاعه، وخذوا حلوقكم بتسويغه[2]، فإن النوى يعقد الشحم في البطن، ويدفئ الكليتين بذلك الشحم. واعتبروا ذلك ببطون الصفايا[3]، وجميع ما يعتلف النوى.

والله لو حملتم أنفسكم على البزر والنوى، وعلى قضم الشعير واعتلاف القت[4]، لوجدتموها سريعة القبول. وقد يأكل الناس القت قداحاً[5]، والشعير فريكاً، ونوى البسر الأخضر، ونوى العجوة.

فإنما بقيت الآن عليكم عقبة واحدة. لو رغبتم في الدفء لالتمستم الشحم، وكيف لا تطلبون شيئاً يغنيكم عن دخان الوقود، وعن شناعة السكر، وعن ثقل الغرم والشحم يفرج القلب، ويبيض الوجه، والنار تسود الوجه. أنا أقدر أن أبتلع النوى وأعلفه الشاء، ولكني أقول ذلك بالنظر مني لكم.

---

(1) لما نسيته: أي لكراهته.

(2) التسويغ سهولة ابتلاعه.

(3) الصفايا: مفردها صفي: وهي الناقة الكثيرة اللبن.

(4) القت: نبات يطعم للحيوانات.

(5) قداحاً: رطباً. (انظر ترجمة الثوري في الصفحات التالية).

وكان يقول: كلوا الباقلى[1] بقشوره، فإن الباقلى يقول: من أكلني بقشوري فقد أكلني، ومن أكلني بغير قشوري فأنا الذي آكله. فما حاجتكم إلى أن تصيروا طعاماً لطعامكم، وأكلاً لما جُعل أكلاً لكم.

هذا المال لفلان

كان يعين مالاً عظيماً، ولم يكن له وراث، فكان يسخر ببعضهم، فيقول عند الأشهاد: قد علمتم أنه لا وارث لي، فإذا مت فهذا المال لفلان، فكان قوم كثير يحرصون على مبايعته لهذا.

نعله في يده

وقد رأيته أنا زماناً من الدهر، ما رأيت قط إلا ونعله في يده، أو يمشي طول نهاره في نعل مقطوعة العقب، شديدة على صاحبها. قال: فهؤلاء المجوس يرتعون البصرة وبغداد وفارس والأهواز والدنيا كلها بنعال سندية. فقيل له: إن المجوسي لا يستحل في دينه المشرّكة[2]، فأنت لا تجده أبداً إلا حافياً أو لابساً نعلاً سندية[3]، وأنت مسلم ومالك كثير. قال: فمن كان ماله كثيراً فلا بد له من أن يفتح كيسه للنفقات وللسرَاق؟! قالوا: فليس بين هاتين منزلة.

بطنوا كل شيء لكم

قال الخليل: جلس الثوري[4] إلى حلقة المصلحين في المسجد، فسمع رجلاً من مياسيرهم يقول: بطنوا كل شيء لكم، فإنه أبقى. ولأمر، جعل الله دار الآخرة باقية ودار الدنيا فانية. ثم قال: ربما رأيت المبطنة الواحدة تقطع أربعة أقمصة، والعمامة الواحدة تقطع أربعة أزر، ليس ذلك إلا لتعاون

(1) الباقلي: الفول.

(2) المشركة: النعال التي لها سير على ظهر القدم.

(3) النعال السندية: صنف خاص من النعال وهي ثخينة، ولها صرير عند المشي بها وغير مشركة.

(4) الثوري: هو أبو عبد الرحمن الثوري كان متأدباً يروي الآثار المختلفة مثقفاً بثقافة عصره.

الطي، وترافد الأثناء، فبطنوا البواري[1]، وبطنوا الحصر، وبطنوا البسط، وبطنوا الغداء بشربة باردة.

قال: فقال له الثوري: لم أفهم مما قلت إلا هذا الحرف وحده.

فرح بالمرض لتوفير الدقيق

قال الخليل: حُمَّ الثوري، وحُمَّ عياله وخادمه، فلم يقدروا مع شدة الحمى على أكل الخبز، فربح كيلة تلك الأيام من الدقيق، ففرح بذلك وقال: لو كان منزلي سوق الأهواز أو نطاة خيبر[2] أو وادي الجحفة[3] لرجوت أن أستفضل كل سنة مئة دينار. فكان لا يبالي أن يحم هو وأهله أبداً، بعد أن يستفضل كفايتهم من الدقيق.

إذا اشترى الجدي رحمته

وكان يقول: إذا رأيت الرجل يشتري الجدي رحمته فإن رأيته يشتري الدجاج حقرته، فإن رأيته يشتري الدراج لم أبايعه ولم أكلمه.

نصيحته لابنه

وأبو عبد الرحمن هذا، هو الذي قال لابنه: (أي بني إن إنفاق القراريط يفتح عليك أبواب الدوانيق[4]، وإنفاق الدوانيق يفتح عليك أبواب الدراهم، وإنفاق الدراهم يفتح عليك أبواب الدنانير، والعشرات تفتح عليك أبواب المئات، والمئات تفتح عليك أبواب الألوف، حتى يأتي ذلك على الفرع والأصل، ويطمس على العين والأثر، ويحتمل[5] القليل والكثير.

---

(1) البواري: حصر من القصب.

(2) نطاة خيبر: حصن في الأهوار.

(3) الجحفة: قرية على طريق مكة، والأمكنة الثلاثة المذكورة لا تفارقها الحمى.

(4) الدوانيق: مفردها دانق: وهو سدس الدرهم.

(5) يحتمل: يأخذ معه.

أي بنيّ، إنما صار تأويل الدرهم، دار الهم. وتأويل الدينار: يدني إلى النار. فالدرهم إذا خرج إلى غير خلف، وإلى غير بدل، دارَ الهمُّ على دانِقِ مُخرجه.

وقيل: إن الدينار يدني إلى النار، لأنه إذا أنفقه في غير خلف، وأخرج إلى غير بدل، بقي مخفقاً معدماً، وفقيراً مبلطاً[1]، متحرج المخارج، وتدعوه الضرورة إلى المكاسب الرديئة والطعم الخبيثة، والخبيث من الكسب يسقط العدالة، ويذهب بالمروءة، ويوجب الحد، ويدخل النار.

عبد الأعلى وتأويل الأسماء

وهذا التأويل الذي تأوله للدرهم والدينار ليس له، إنما هذا شيء كان يتكلم به عبد الأعلى القاصّ، فكان عبد الأعلى إذا قيل له: لم سمي الكلب قلطيّاً[2]؟ قال: لأنه قلَّ[3] ولطى[4].

وإذا قيل له: لم سمي الكلب سلوقياً؟ قال: لأنه يستل ويلقي.

وإذا قيل له: لم سمي العصفور عصفوراً؟ قال: لأنه عصى وفرّ.

وعبد الأعلى هذا هو الذي كان يقول في قصصه: الفقير رداؤه علقة[5]، ومرقته سلقة، وجردقته فلقة، وسمكته شلقة[6]، في طيب له كثير.

وبعض المفسرين يزعم أن نوحاً النبي، صلى الله عليه وسلم، إنما سمي نوحاً لأنه كان ينوح على نفسه، لأنه حذي من أديم الأرض، وقالوا: كان لونه في أدم لون الأرض، وأن المسيح عليه السلام، إنما سمي المسيح

---

(1) مبلطاً: أي على الأرض (كما يقولون): لا شيء لديه.

(2) قلطي: نوع من الكلاب، قصير مجتمع.

(3) قل: صغر.

(4) لطى: لزق بالأرض.

(5) علقة: قميص بدون كمين.

(6) شلقة: بيض الضبة.

لأنه مسح بدهن البركة وقال بعضهم: لأنه كان لا يقيم في البلد الواحد، وكان كأنه ماسح يمسح الأرض.

معجب بالرؤوس.. ويحمدها

ثم رجع الحديث إلى أعاجيب أبي عبد الرحمن[1]، وكان أبو عبد الرحمن يعجب بالرؤوس ويحمدها ويصفها. وكان لا يأكل اللحم إلا يوم أضحى أو من بقية أضحيته[2]، أو يكون في عرس أو دعوة أو سفرة[3]، وكان سمى الرأس عرساً لما يجتمع فيه من الألوان الطيبة، وكان يسميه مرة الجامع، ومرة الكامل.

وكان يقول: الرأس شيء واحد، وهو ذو ألوان عجيبة وطعوم مختلفة، وكل قدر وكل سواء فإنما هو شيء واحد. والرأس فيه الدماغ فطعم الدماغ على حدة، وفيه العينان شيء على حدة. وفيه الشحمة التي بين أصل الأذن ومؤخر العين، وطعمها على حدة. على أن هذه الشحمة خاصة أطيب من المخ وأنعم من الزبد، وأدسم من السلاء.

وفي الرأس اللسان وطعمه شيء على حدة وفيه الخيشوم والغضروف الذي في الخيشوم وطعمها شيء على حدة. وفيه لحم الخدين وطعمه شيء على حدة، حتى يقسم أسقاطه[4] الباقية.

ويقول: الرأس سيد البدن، وفيه الدماغ، وهو معدن العقل، ومنه يتفرق العصب الذي فيه الحسن، وبه قوام البدن. وإنما القلب باب العقل، كما أن النفس هي المدركة، والعين هي باب الألوان، والنفس هي السامعة الذائقة.

---

(1) أب أبو عبد الرحمن الثوري.

(2) الأضحية: الشاة تذبح يوم الأضحى.

(3) سفرة: طعام السفر. (4) أسقاطه: الأشياء الصغيرة التي لا تذكر.

وإنما الأنف والأذن بابان. ولولا أن العقل في الرأس لما ذهب العقل من الضربة تصيبه. وفي الرأس الحواس الخمس وكان ينشد قول الشاعر:

إذا ضَرَبُوا رَأسِي وفي الرَّأْسِ أَكْثَرِي
وغُودِرَ عِنْدَ المُلْتَقَى ثَمَّ سَائِرِي[1]

وكان يقول: الناس لم يقولوا: هذا رأس الأمر، وفلان رأس الكتيبة، وهو رأس القوم، وهم رؤوس الناس وخراطيمهم وأنفهم، واشتقوا من الرأس الرياسة والرئيس، وقد رأس القوم فلان، إلا والرأس هو المثل وهو المقدم.

وكان إذا فرغ من أكل الرأس، عمد إلى القِحف[2] وإلى اللحيين فوضعه بقرب بيوت النمل والذر، فإذا اجتمعن فيه أخذه فنفضه في طست فيها ماء، فلا يزال يعيد ذلك في تلك المواضع، حتى يقلع أصل النمل والذر من داره. فإذا فرغ من ذلك ألقاه في الحطب، ليوقد به سائر الحطب.

وكان إذا كان يوم الرؤوس أقعد ابنه معه على الخوان، إلا أن ذلك بعد تشرط طويل، وبعد أن يقف به على ما يريده. وكان فيما يقول له:

(إياك ونهم الصبيان، وشره الزراع وأخلاق النوائح، ودع عنك خبط الملاحين والفعلة، ونهش الأعراب والمهنة[3]، وكلّ من بين يديك، فإنما حظك الذي وقع وصار أقرب إليك.

واعلم أنه إذا كان في الطعام شيء طريف، ولقمة كريمة ومضغة شهية، فإن ذلك للشيخ المعظم والصبي المدلل، ولست واحداً منهما، فأنت قد تأتي الدعوات وتجيب الولائم، وتدخل منازل الإخوان، وعهدك باللحم قريب،

---

(1) الملتقي: مكان التقاء المتحاربين.

(2) القحف: العظم فوق الدماغ.

(3) المهنة: الخدام والعبيد، مفردها ماهن.

وإخوانك أشد قرباً إليك منك، وإنما هو رأس واحد، فلا عليك أن تتجافى عن بعض وتصيب بعضاً.

وأنا بعد أكره لك الموالاة[1] بين اللحم، فإن الله، سبحانه، يبغض أهل البيت اللحمين[2]. وكان عمر يقول: إياكم وهذه المجازر، فإن لها ضراوة[3] كضراوة الخمر. وكان يقول: مدمن اللحم كمدمن الخمر.

وقال المسيح عليه السلام، و قد رأى رجلاً يأكل اللحم، فقال: لحم يأكل لحماً، أف لهذا عملاً.

وذكر هرم بن قطبة[4] اللحم، فقال: وإنه ليقتل السباع.

وقال المهلب[5]: لحم وارد على غير قرم، هذا الموت الأحمر. وقال الأول: أهلك الرجال الأحمران: اللحم والخمر. وأهلك النساء الأحمران: الذهب والزعفران.

أي بني، عود نفسك الأثرة[6]، ومجاهدة[7] الهوى والشهوة، ولا تنهش نهش الأفاعي، ولا تخضم[8] خضم البراذين[9]، ولا تُدِم الأكل إدامة النعاج، ولا تلقم لقم الجمال.

---

(1) الموالاة: المتابعة.

(2) اللحميين: الذين يكثرون أكل اللحم.

(3) ضراوة: عادة، ولع بالشيء، من ضري به: أوله به.

(4) هرم بن قطبة: هو هرم بن قطبة بن سنان: الصحابي المعروف.

(5) المهلب: هو المهلب بن أبي صفرة، وقد تقدم ذكره.

(6) الأثرة: أن تؤثر غيرك على نفسك.

(7) مجاهدة: مقاومة، مخالفة.

(8) تخضم: الخضم هو الأكل بجمع الفم. (9) البراذين: واحدها برذون وهو من الخيل العظيمة الخلقة.

قال أبو ذر[1]، رضي الله عنه، لمن بدل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: تَخْضِمون ونَقْضِم، والموعد الله.

إن الله قد فضّلك فجعلك إنساناً، فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سبعاً، واحذر سرعة الكظة وسرف البطنة، وقد قال بعض الحكماء: إذا كنت بطيناً فعد نفسك في الزّمنى. وقال الأعشى:

وَالبِطْنَةُ مِمَّا تُسَفِّه الأحْلاَمَا

واعلم أن الشبع داعية البشم[2]، وأن البشم داعية السقم، وأن السقم داعية الموت، ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لئيمة، وهو قاتل نفسه، وقاتل نفسه ألوم من قاتل غيره، وأعجب أن أردت العجب، وقد قال الله جل ذكره: ولا تقتلوا أنفسكم، وسواء قتلنا أنفسنا، أو قتل بعضنا بعضاً كان ذلك للآية تأويلاً.

أي بني، إن القاتل والمقتول في النار، ولو سألت حذاق الأطباء لأخبروك أن عامة أهل القبور إنما ماتوا بالتخم، واعرف خطأ من قال: أكلة وموتة!.. وخذ بقول من قال: رب أكلة منعت أكلات. وقد قال الحسن[3]: يا ابن آدم، كل في ثلث بطنك، واشرب في ثلث بطنك، ودع الثلث للتفكر والتنفس.

وقال بكر بن عبد الله المزني[4]: ما وجدت طعم العيش حتى استبدلت

(1) أبو ذر الغفاري: جندب بن جنادة، صحابي من اقدم المؤمنين، روى الكثير من أحاديث الرسول.

(2) البشم: التخمة.

(3) الحسن: أي الحسن البصري.

(4) بكر بن عبد الله المزني: من أفاضل التابعين.

الخمص بالكظة[1]، وحتى لم ألبس من ثيابي ما يستخدمني، وحتى لم آكل مالا أغسل يدي منه.

يا بني، والله ما أدى حق الركوع ولا وظيفة السجود ذو كظة، ولا خشع لله ذو بطنة، والصوم مصحة، والوجبات عيش الصالحين.

ثم قال: لأمر ما طالت أعمار الهند، وصحت أبدان الأعراب، فلله در الحارث بن كلدة[2] حين زعم أن الدواء هو الأزم[3]، وأن الداء هو إدخال الطعام في إثر الطعام.

أي بني، لِمَ صَفَتْ أذهان العرب؟ ولِمَ صَدَقَت أحساس العرب؟ ولِمَ صحَّت أبدان الرهبان مع طول الإقامة في الصوامع، وحتى لَمْ تعرف النقرس[4]، ولا وجع المفاصل، ولا الأورام، إلا لقلة الرزء من الطعام، وخفة الزاد والتبلّغ باليسير؟

أي بني، إن نسيم الدنيا وروح الحياة[5]، أفضل من أن تبيت كظيظاً، وأن تكون بقصر العمر خليقاً، وكيف لا ترغب في تدبير يجمع لك صحة البدن، وذكاء الذهن، وصلاح المعاد، وكثرة المال، والقرب من عيش الملائكة.

أي بني، لِمَ صار الضب أطول شيء عمراً، إلا لأنه إنما يعيش بالنسيم؟ ولِمَ زعم الرسول، صلى الله عليه وسلم، أن الصوم وِجاء[6]، إلا ليجعل الجوع حجازاً دون الشهوات؟ أفهم تأديب الله، فإنه لم يقصد به إلا إلى مثلك.

---

(1) الكظة: الامتلاء.

(2) الحارث بن كلدة: طبيب عربي مشهور.

(3) الازم: الإمساك عن الطعام والشراب.

(4) النقرس: ورم يصيب مفاصل القدم. (5) روح الحياة: راحتها. (6) وِجاء: مانع الشهوات.

أي بني، قد بلغت تسعين عاماً، ما نغض[1] لي سن، ولا تحرك لي عظم، ولا انتشر[2] لي عصب، ولا عرفت دنين أذن، ولا سيلان عين، ولا سلس بول[3] ما لذلك علة إلا التخفيف من الزاد، فإن كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة، وإن كنت تحب الموت، فلا يبعد الله إلا من ظلم،هذه كانت وصيته في يوم الرؤوس وحده.. فلم يكن لعياله إلا التقمم[4] ومص العظم).

وكان لا يشتري الرأس إلا في زيادة الشهر[5]، لمكان زيادة الدماغ، وكان لا يشتري إلا رأس فتي لوفارة الدماغ؛ لأن دماغ الفتي أوفر ويكون مخه أنقص، ومخ المسن أوفر، ودماغه أنقص.

ويزعمون أن للأهلة والمحاق في الأدمغة والدماء عملاً معروفاً. وبينهما في الربيع والخريف فضلاً بيّناً.

وتزعم الأعراب والعرب أن النطفة إذا وقعت في الرحم في أول الهلال، خرج الولد قوياً ضخماً، وإذا كان في المحاق خرج ضئيلاً شختاً[6]، وأنشد قول الشاعر:

لَقَحَتْ في الهلالِ عَن قبل الطّهْـــر وقَـدْ لاحَ للـضيـاءِ بشـيـرُ[7]

ثمَّ نـمَّـى[8] ولَـمْ يُـراضِعْ فُلُوّا[9] وَرَضَاعُ المُحِجِّ عَيْبٌ كبيرُ

---

(1) نغض: تحرك.

(2) انتشر: انتفخ.

(3) سلس: استرسال.

(4) التقمم: التقاط البقايا والقمامات.

(5) زيادة الشهر: أي في وقت زيادة الهلال.

(6) شختا: الشخت هو الضامر خلقة.

(7) عن قبل: أي في أول طهرها.

(8) نمى: زاد نموه.

(9) الفلو: المهر.

وكان أبو عبد الرحمن يشتري ذلك الرأس من جميع رآسي بغداد، إلا من رآسي مسجد ابن رغبان[1]، وكان لا يشتريه إلا يوم سبت. واختلط عليه الأمر فيما بين الشتاء والصيف، فكان مرة يشتريه في هذا الزمان، ومرة يشتريه في هذا الزمان.

وأما زهده في رؤوس مسجد ابن رغبان، فإن البصريين يختارون لحم الماعز الخصي على الضأن كله، ورؤوس الضأن أشحم وألحم وأرخص رخصاً وأطيب، ورأس التيس أكثر لحماً من رأس الخصي؛ لأن الخصي من الماعز يعرق جلده، ويقل لحم رأسه، ولا يبلغ جلده –وإن كان ماعزاً– في الثمن عشر ما يبلغ جلد التيس، ولا يكون رأسه إلا دوناً، ولذلك تخطَّاه إلى غيره.

وأما اختياره شراء الرؤوس يوم السبت، فإن القصابين يذبحون يوم الجمعة أكثر، فتكثر الرؤوس يوم السبت على قدر الفضل فيما يذبحون، ولأن العوام والتجار والصناع لا يقرمون[2] إلى أكل الرؤوس يوم السبت مع قرب عهدهم بأكل اللحم يوم الجمعة، ولأن عامتهم قد بقيت عنده فضلة، فهي تمنعه من الشهوة، ولأن الناس لا يكادون يجمعون على خوان واحد من الرؤوس واللحم.

وأما اختلاط التدبير عليه في فرق ما بين الشتاء والصيف، فوجه ذلك أن العلل[3] كانت تتصور له، وتعرض له الدواعي على قدر قرمه وحركة شهوته، صيفاً وافق ذلك أم شتاء. فإن اشتراه في الصيف، فلأن اللحم في

---

(1) مسجد ابن رغبان: أحد مساجد بغداد وهو منسوب إلى عبد الرحمن بن رغبان.

(2) لا يقرمون: لا يشتهون اللحم.

(3) العلل: مفردها علة: وهو السبب.

الصيف أرخص، والرؤوس تابعة اللحم، ولأن الناس في الشتاء لها آكَلُ، وهم لها في القيظ أَترَكُ، فكان يختار الرخص على حسن الموقع، فإذا قويت دواعيها في الشتاء قال: (رأس واحد شتوي كرأسين صيفيين؛ لأن المعلوفة غير الراعية، وما أكل الكسب في الحبس موثقاً، غير ما أكل الحشيش في الصحراء مطلقاً[1] وكان على ثقة أنه سيأتي عليه في الشتاء مع صحته وبدنه[2]، وفي شك من استبقائه في الصيف، لنقصان شهوات الناس للرؤوس في الصيف، فكان يخاف جريرة تلك البقية وجناية تلك الفضلة. وكان يقول: (إن أكلتها بعد الشبع لم آمن العطب، وإن تركتها لهم[3] في الصيف، طلبوا ذلك مني في الشتاء).

(1) مطلقاً: بالمرة، بتاتاً.

(2) صحته وبدنه: أي صحة الرأس وسلامته.

(3) لهم: يعني العيال.

طُرَفٌ شتّى

عن العنبري وأبي قطبة وفيلويه

شيء بشيء

حدثني المكي[1] قال: كنت يوماً عند العنبري[2]، إذ جاءت جارية أُمّه، ومعها كوز فارغ، فقالت: قالت أمك: (بلغني أن عندك مُزمَّلة[3]، ويومنا يوم حار، فابعث إليَّ بشربة منها في هذا الكوز) قال: كذبتِ، أمي أعقل من أن تبعث بكوز فارغ ونرده ملآن. اذهبي فاملئيه من ماء حبكم[4]، وفرغيه في حبنا، ثم املئيه من ماء مزملتنا، حتى يكون شيء بشيء.

قال المكي: فإذا هو يريد أن تدفع جوهراً بجوهر وعَرَضاً[5] بِعَرَضٍ، حتى لا تربح أمه إلا صرْفَ ما بين العَرَضيْن الذي هو البرد والحر، فأما عدد الجواهر والأعراض، فمثلاً بمثل[6].

---

(1) المكي: سبق التعريف به.

(2) العنبري: هو عامر بن عبد الله بن عبد قيس من بني العنبر، وهو أحد الرجال الذين يكثر الجاحظ من ذكرهم وترديد أسمائهم، وكان زاهداً ينكر المنكر.

(3) المزملة: جرة أو خابية لتبريد الماء.

(4) الحب: الجرة أو الخابية.

(5) العرض: العطاء أو الغنيمة.

(6) مثلاً بمثل: أي مقداراً بمقدار.

لاكت نواة بعد أن مصتها

وقال المكي: دخلت عليه يوماً، وإذا عنده جُلّة[1] تَمْرٍ، وإذا ظِئِر[2] جالسة قبالته، فكلما أكل ثمرة رمى بنواتها إليها، فأخذتها فمصتها ساعة ثم عزلتها[3]، فقلت للمكي: أكان يدع على النواة من جسم التمر شيئاً؟

قال: والله لقد رأيتها لاكت نواة مرة بعد أن مصتها، فصاح بها صيحة، لو كانت قتلت قتيلاً ما كان عنده أكثر من ذلك، وما كانت إلا في أن تبادله الأعراض[4] وتسلم إليه الجوهر، وكانت تأخذ حلاوة النواة، وتودعها ندوة[5] الريق.

بالوعة أبي قطبة

قال الخليل[6]: كان أبو قطبة يستغل ثلاثة آلاف دينار، وكان من البخل يؤخر تنقية بالوعته إلى يوم المطر الشديد وسيل المثاعب[7]، ليكتري رجلاً واحداً فقط، يخرج ما فيها، ويصبه في الطريق، فيجترفه السيل، ويؤديه إلى القناة، وكان بين موضع بئره والصب قدر مئتي ذراع. فكان لمكان زيادة درهمين يحتمل الانتظار شهراً أو شهرين، وإن هو جرى في الطريق، وأذى به الناس. قال: ونظر يوماً إلى الكسّاحين[8] – وهو معنا جالس في رجال

---

(1) الجلة: القفة الكبيرة.

(2) الظئر: المرضعة لولد غيرها.

(3) عزلتها: وضعتها جانباً.

(4) الأعراض: مفردها عرض: وهو المتاع الزائل.

(5) ندوة الريق: بلل الريق.

(6) الخليل: هو الخليل السلولي راوي أخبار أبي عبد الرحمن الثوري.

(7) المثاعب: مفردها مثعب: وهو مسيل الماء.

(8) الكساحون: منظفو البالوعات.

من قريش – وهم يخرجون ما في بالوعته، ويرمون به في الطريق، وسيل المثاعب يحتمله فقال: أليس البط والجداء والدجاج والفراخ والدراج[1] وخبز الشعير والصحناء[2] والكراث[3] والجواف[4] جميعاً يصير إلى ما ترون؟ فلِمَ يُغالى بشيء يصير هو والرخيص واحد؟

إياكم والفساء في ثيابكم

قال الخليل: وسمعته يقول: إياكم والفساء في ثيابكم التي تخرجون فيها، وفي لحفكم التي تنامون فيها، فإن الفساء يدر القمل. إني والله ما أقول إلا بعلم.

ثم قال: علمتم أن الصوت يدبغ؟

قلنا: وكيف صار الصوت يدبغ؟

قال: الفسوة هي الضرطة بلا صوت، وإنما تخرجان جميعاً من قارورة واحدة، فكيف تكون واحدة طيبة وأخرى نتنة؟ فهذا الذي يدلكم أن الصوت هو الذي يدبغها.

الثلاثي الذكي

قال: وهم ثلاثة إخوة: أبو قطبة والطيل وباني، من ولد عتاب بن أسيد[5]. واحد منهم كان يحج عن حمزة، ويقول: (استشهد قبل أن يحج).

---

(1) الدراج: طائر يشبه الحجل وأكبر منه.

(2) الصحناء: إدام يؤخذ من السمك.

(3) الكراث: بقل خبيث الرائحة شبيه بالثوم تؤكل سوقه مطبوخة.

(4) الجواف: نوع من السمك.

(5) عتاب بن أسيد: هو عتاب بن أبي العيص بن أمية، صحابي أموي، أسلم يوم فتح مكة، فاستعمله رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على مكة، وظل والياً فيها إلى خلافة أبي بكر فأقره (فماتا جميعاً لم يعلم واحد منهما بموت صاحبه).

والآخر كان يضحي عن أبي بكر وعمر، ويقول (أخطأ السنة في ترك الضحية). وكان الآخر يفطر عن عائشة أيام التشريق[2] ويقول: (غلطت، رحمها الله، في صومها أيام العيد، فمن صام عن أبيه وأمه، فأنا أفطر عن عائشة).

قطع الدرهم عن أمه

حدثتني امرأة تعرف الأمور، قالت: كان في الحي مأتم اجتمع فيه عجائز من عجائز الحي، فلما رأين أن أهل المأتم قد أقمن المناحة، اعتزلنَ وتحدثْنَ. فبينا هُنَّ في حديثهن، إذ ذكرْنَ بر الأبناء بالأمهات، وإنفاقهم عليهن. وذكرت كل واحدة منهن ما يوليها ابنها.

فقالت واحدة منهن – وأُمّ فيلّوَيْهِ ساكتة – وكانت امرأة صالحة، وابنها يظهر النسك ويدين بالبخل، وله حانوت في مقبرة بني حصن يبيع فيها الأسقاط[1].

قالت: فأقبلت على أم فيلويه، قالت لها: ما لك لا تحدّثين معنا عن ابنك، كما يتحدثْنَ؟ وكيف صنع فيلويه فيما بينك وبينه؟ قالت: كان يجري عليَّ في كل أضحى درهماً. ثم قالت: وقد قطعه أيضاً.

فقالت لها المرأة: وما كان يجري عليك إلا درهماً؟ قالت: ما كان يجري عليَّ إلا ذاك. ولقد ربما أدخل أضحى في أضحى.

فقالت: يا أم فيلويه، وكيف يدخل أضحى في أضحى؟ قد يقول الناس: إن فلاناً أدخل شهراً في شهر، ويوماً في يوم، فأما أضحى في أضحى فهذا شيء لابنك لا يشركه فيه أحد.

---

(1) أيام التشريق: هي الأيام الثلاثة التي بعد يوم النحر.

(2) الأسقاط: الأمتعة القديمة البالية.

قصة تمام بن جعفر

كان تمام بن جعفر رجلاً بخيلاً على الطعام، وكان يقبل على كل من أكل خبزه بكل علة[1]، ويطالبه بكل طائلة[2]، وحتى ربما استخرج عليه أنه كان حلال الدم. وكان إن قال له نديم له: ما في الأرض أحد أمشى مني، ولا على ظهرها أحد أقوى على الحُضْرِ مني، قال:

(وما يمنعك من ذلك، وأنت تأكل أكل عشرة؟ وهل يحمل الرجل إلا البطن؟ لا حمد الله من يحمدك).

فإن قال: لا والله إن[3] أقدر أن أمشي، لأني أضعف الخلق عنه، وإني لأنبهر من مشي ثلاثين خطوة، قال:

(وكيف تمشي، وقد جعلت في بطنك ما يحمله عشرون حمّالاً؟ وهل ينطلق الناس إلا مع خفة الأكل؟ وأي بطين يقدر على الحركة؟ وإن الكظيظ ليعجز الركوع والسجود، فكيف بالمشي الكثير؟)

فإن شكا ضرسه وقال: ما نمت البارحة مع وجعه وضربانه.

فقال: عجبت كيف اشتكيت واحداً، وكيف لم تشتك الجميع؟ وكيف بقيت إلى اليوم في فك حاكّة[4]؟ وأي ضرس يقوى على الضرس والطحن؟ والله إن الأرحاء[5] السورية لتكلّ، وإن المنحاز[6] الغليظ ليتعبه الدق، ولقد استبطأت لك هذه العلة، ارفق فإن الرفق يُمْنٌ، ولا تخرق بنفسك فإن الخرق

(1) علة: عيب، أي كان يرميه بالمعايب والنقائص.

(2) طائلة: ثأر، أي كان له ثأر عنده.

(3) إن: بمعنى لا.

(4) حاكّة: سن.

(5) الأرحاء: مفردها رحى (مؤنثة) وهي الطاحون.

(6) المنحاز: الهاون.

شؤم.

وإن قال: لا والله إن اشتكيت ضرساً لي قط، ولا تحلحلت لي سن عن موضعها، منذ عرفت نفسي.

قال: يا مجنون، لأن كثرة المضغ تشد العمور[1]، وتقوي الأسنان، وتدبغ اللثة وتغدو أصولها، وإعفاء الأضراس من المضغ يُريخها[2]، وإنما الفم جزء من الإنسان، وكما أن الإنسان نفسه إذا تحرك وعمل قوي، وإذا طال سكونه تفتخ[3] واسترخى، فكذلك الأضراس، ولكن رفقاً، فإن الأتعاب ينقض القوة، ولكل شيء مقدار ونهاية، فهذا ضرسك لا تشتكيه، بطنك أيضاً لا تشتكيه.

فإن قال:(والله إن أروى من الماء، وما أظن أن في الدنيا أحداً أشرب مني للماء، قال: (لا بد للتراب من ماء، ولا بد للطين من ماء يبله ويرويه، أو ليست الحاجة على قدر كثرته وقلته؟ والله لو شربت ماء الفرات ما استكثرته لك، مع ما أرى من شدة أكلك، وعظم لقمك. تدري ما قد تصنع؟ أنت والله تلعب، أنت لست ترى نفسك، فسلْ عنك من يصدقك، حتى تعلم أن ماء دجلة يقصر عما في جوفك).

فإن قال: (ما شربت اليوم ماء البتة، وما شربت أمس بمقدار نصف رطل، وما في الأرض إنسان أقل شرباً مني للماء).

قال: (لأنك لا تدع لشرب الماء موضعاً، ولأنك تكنز في جوفك كنزاً لا يجد الماء معه مدخلاً، والعجب ألا تتخم؛ لأن من لا يشرب الماء على

(1) العمور: جمع عمر.

(2) يريخها: يضعفها.

(3) تفتخ: استرخى.

الخوان، لا يدري مقدار ما أكل، ومن جاوز مقدار الكفاية، كان حرياً بالتخمة).

فإن قال: (ما أنام الليل كله، وقد أهلكني الأرق).

قال: (وتدعك الكظة والنفخة والقرقرة[1] أن تنام؟ والله لو لَمْ يكن إلا العطش الذي ينبه الناس لما نمت، ومن شرب كثيراً بال كثيراً، ومن كان الليل كله بين شرب وبول، كيف يأخذه النوم؟)

فإن قال: (ما هو إلا أن أضع رأسي، فإنما أنا حجر ملقى إلى الصبح).

قال: (ذلك لأن الطعام يسكر ويخدر ويختّر[2] ويبل الدماغ، ويبل العروق ويسترخي عليه جميع البدن، ولو كان في الحق لكان ينبغي أن تنام الليل والنهار).

فإن قال: (أصبحت وأنا لا أشتهي شيئاً).

قال: (إياك أن تأكل قليلاً ولا كثيراً، فإن أكل القليل على غير شهوة أضرّ من الكثير مع الشهوة).

قال الخوان[3]: (ويل لي ممن قال: لا أريد).

وبعد فكيف تشتهي الطعام اليوم وأنت قد أكلت بالأمس طعام عشرة؟!

ونصيحته لندمائه

كان كثيراً ما يقول لندمائه: (إياكم والأكل على الخُمار[4]، فإن دواء

---

(1) القرقرة: صوت البطن.

(2) يختر: يفسد.

(3) قال الخوان: جعل الخوان ينطق بلسان حاله.

(4) الخمار: صداع الخمر.

الخُمار الشراب، والخُمار تخمة، والمتخم إذا أكل مات لا محالة. وإياكم والإكثار في عقب الحِجامة[1]، والفَصْد والحَمّام. وعليكم بالتخفيف في الصيف كله. واجتنبوا اللحم خاصة).

ليس يفسد الناس إلا بالناس

وكان يقول: ليس يفسد الناس إلا الناس. هذا الذي يضرط ويتكلم بالكلام البارد وبالطرف المستنكرة، لو لم يصب من يضحك له، وبعض من يشكره ويتضاحك له، أو ليس هو عنده إلا أن يظهر العجب به، لما ضَرَط الضارط، ولما تكلف النوادر إلا أهله.

قول الناس للأكول النهم، وللرغيب[2] الشره: فلان حسن الأكل، هو الذي أهلكه وزاد في رغبه، حتى جعل ذلك صناعة، وحتى ربما أكل لمكان قولهم وتقريبهم وتعجبهم ما لا يطيقه فيقتله. فلا يزال قد هجم على قوم فأكل زادهم وتركهم بلا زاد. فلو قالوا، بدل قولهم: (فلان حسن الأكل)، فلان أقبح الناس أكلاً، كان ذلك صلاحاً للفريقين.

ولا يزال البخيل على الطعام قد دعا الرغيب البطن، واتخذ له الطعام الطيب، لينفي عن نفسه المقالة، وليكذب عن نفسه تلك الظنون.

ولو كان شدة الضرس يعد في المناقب ويمدح صاحبه به في المجالس، لكانت الأنبياء آكَلُ الخلق، ولخصَّهم الله –جل ذكره– من الرغب بما لم يعطه أحداً من العالمين. وكيف وفي مأثور الحديث: (إنَّ المؤمن يأكلُ في مِعى واحدٍ، وإنَّ المنافق يأكل في سبعة أمعاء).

---

(1) الحجامة: المداواة بالمحجم، وهو ما يشبه الكأس يفرغ من الهواء بإحراق ورق بداخله ويوضع على الجلد فيجذب الدم بقوة.

(2) الرغيب: الأكول.

أو لسنا قد نراهم يشتمون بالنهم وبالرغب وبكثرة الأكل، ويمدحون بالزهادة وبقلة الطعم؟ أو ليس قد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من أدلّه على الحسناء القتين؟)

وقد سبَّ رجل أيوب بن سليمان بن عبد الملك، فقال في بعض ما يسبه: (ماتت أمك بَغَراً[1]، وأبوك بَشَماً[2]).

وبعد، فهل سمعتم بأحد قط فخِر بشدة أكل أبيه، فقال: أنا ابن آكَلُ العرب؟!.. بل قد رأينا أصحاب النبيذ والفتيان[3] يمتدحون بكثرة الشرب، كما يمتدحون بقلةِ الرزء، وكذلك قالت العرب. قال الشاعر:

تَكْفِيهِ فِلْذَةُ كِبْدٍ إنْ أَلَمَّ بِهَا
مِنَ الشّواءِ وَيَكْفي شربَه الغُمَر[4]

وقال:

لاَ يَتَأَرَّى[5] لِمَا في القِدْرِ يَطْلُبُهُ
ولا تَرَاهُ أمام القَوْمِ يَقْتَفِرُ[6]
لاَ يَغْمُرُ السَّاقَ مِنْ أَيْنٍ[7] ولا وَصَمٍ[8]
ولا يعضّ عَلى شَرْسُوفِهِ[9] الصَّفَرُ[10]

(والصفر): هي حيات البطون، إنما تكون من الفضول، ومن الفساد والبشم.

---

(1) البغر: كثرة شرب الماء.
(2) البشم: كثرة الأكل.
(3) الفتيان المستهترون في لهوهم.
(4) الغمر: القدح الصغير.
(5) يتأرى: يحتبس. (6) يقتفر: يتعرق العظم. (7) الأين: التعب.
(8) الوصم: المرض. (9) الشرشوف: طرف الضلع المشرف على البطن.
(10) الصفر: حيات البطن.

المحلول لم يشق قميصه

وشرب مرة النبيذ، وغناه المغني، فشقّ قميصه من الطرب، فقال لمولى له، يقال له المحلول[1]، وهو إلى جنبه: (شق أيضاً أنت، ويلك، قميصك، والمحلول هذا من الآيات[2]، قال: لا والله لا أشقه، وليس لي غيره. قال: فشقه، وأنا أكسوك غداً. قال: فأنا أشقه غداً. قال: أنا ما أصنع بشقك له غداً؟ قال: وأنا ما أرجو من شقه الساعة؟)

فلم أسمع بإنسان قط يقايس[3] ويناظر[4] في الوقت الذي إنما يشق فيه القميص من غلبة الطرب، غيره وغير مولاه محلول.

---

(1) المحلول: يذكر هنا أنه مولى تمام بن جعفر، وقد جاء ذكره في الحيوان وفي البيان والتبيين بما لا طائل فيه، ويؤخذ من خبر البيان والتبيين أنه كان صيرفياً.

(2) الآيات: العجائب. (3) يقايس: يوازن. (4) يناظر: يناقش.

طرف شتى

ليس من أبي الحسن حشمة

دخل (علي الأعمى) على (يوسف ابن كل خير)، وقد تغدَّى، فقال: يا جارية، هاتي لأبي الحسن غداء.

قالت: لم يبق عندنا شيء.

قال: هاتي، ويلك، ما كان، فليس من أبي الحسن حشمة(1).

ولم يشك (عليّ) أنه سيؤتى برغيف ملطخ(2)، وبرقاقة ملطخة، وبسكر وبقية مرق، وبعرق(3)، وبفضلة شواء، وببقايا ما يفضل في الجامات(4) والسُّكُرَّجَات(5).

فجاءت بطبق ليس عليه إلا رغيف قاحل(6)، لا شيء معه غيره.

فلما وضعوا الخوان بين يديه، فأجال يده فيه – وهو أعمى– فلم يقع إلا على ذلك الرغيف، وقد علم أن قوله: (ليس منه حشمة) لا يكون إلا مع القليل. فلم يظن أن الأمر بلغ ذلك. فلما لم يجد غيره قال: ويلكم، ولا كل هذا بمرّة، رفعتم الحشمة كلها. والكلام لم يقع إلا على هذا.

الغزّال والجوافة

حدثني (محمد بن حسان الأسود) قال: أخبرني (زكريا القطان) قال: كان (للغزّال) قطعة أرض قدام حانوتي، فأكرى نصفها إلى سمّاك يسقط عنه

---

(1) حشمة: حياء.

(2) ملطخ: أي عليه آثار الغداء.

(3) العرق: العظم أخذ عنه أكثر اللحم.

(4) الجامات: أوان من الفضة.

(5) السكرجات: صحون الطعام.

(6) قاحل: جاف.

ما استطاع من مؤونة الكراء.

قال: وكان الغزّال أعجوبة في البخل، وكان يجيء من منزله ومعه رغيف في كمه، فكان أكثر دهره يأكله بلا أدم. فإذا أعيا عليه الأمر أخذ من ساكنه جوافة[1] بحبة[2]، وأثبت عليها فلساً في حسابه.

فإذا أراد أن يتغدى أخذ الجوافة، فمسحها على وجه الرغيف ثم عضَّ عليه، وربما فتح بطن الجوافة، فبطن جنبيها وبطنها باللقمة بعد اللقمة، فإذا خاف أن ينهكها ذلك وينضمّ بطنها، طلب من ذلك السمّاك شيئاً من ملح السمك، فحشا جوفها لينفخها، وليوهم أن هذا هو ملحها الذي ملحت به. ولربما غلبته شهوته، فكدم[3] طرف أنفها، وأخذ من طرف الأرنبة ما يسيغ به لقمته. وكان ذلك منه لا يكون إلا في آخرها لقمة، ليطيب فمه بها، ثم يضعها في ناحية. فإذا اشترى من امرأة غزلاً أدخل تلك الجوافة في ثمن الغزل، من طريق إدخال العروض، وحسبها عليها بفلس، فيسترجع رأس المال ويفضل الأدم.

أطعمونا مما تأكلون

وروى أصحابنا عن عبد الله بن المقفع قال: كان (ابن جذام الشبي) يجلس إليّ، وكان ربما انصرف معي إلى المنزل، فيتغدى معنا ويقيم إلى أن يبرد، وكنت أعرفه بشدة البخل وكثرة المال، فألح عليّ في الاستزارة، وصممت عليه في الامتناع. فقال: جعلت فداك!.. أنت تظن أني ممن يتكلم وأنت تشفق علي؟ لا والله إن هي إلا كسيرات يابسة، وملح، وماء الحب.

(1) الجوافة: نوع من السمك.

(2) الحبة: جزء من ستة عشر جزءاً من الدرهم الإسلامي.

(3) كدم: عض.

فظننت أنه يريد اختلابي[1] بتهوين الأمر عليه وقلت:

إن هذا كفول الرجل يا غلام أطعمنا كسرة، وأطعم السائل خمس تمرات. ومعناه أضعاف ما وقع اللفظ عليه. وما أظن أن أحداً يدعو مثلي إلى الخريبة[2] من الباطنة[3]، ثم يأتيه بكسرات وملح.

فلما صرت عنده، وقرّبه إليّ، إذ وقف سائل بالباب فقال: أطعمونا مما تأكلون، أطعمكم الله من طعام الجنة. قال: بورك فيك!.. فأعاد الكلام، فأعاد عليه مثل ذلك القول.

فأعاد عليه السائل. فقال: اذهب، ويلك، فقد ردوا عليك.

فقال السائل: سبحان الله، ما رأيت كاليوم أحداً يردّ من لقمة، والطعام بين يديه..

قال: اذهب ويلك، وإلا خرجت إليك، والله، فدققت ساقيك.

قال السائل: سبحان الله!.. ينهى الله أن ينهر السائل، وأنت تدق ساقيه؟

فقلت للسائل: اذهب وأرح نفسك، فإنك لو تعرف من صدق وعيده مثل الذي أعرفه لما وقفت طرفة عين، بعد رده إياك.

طبخة واحدة لأسبوع كامل

وكان أبو يعقوب الذقناني يقول: ما فاتني اللحم منذ ملكت المال. وكان إذا كان يوم الجمعة اشتري لحم بقر بدرهم، واشتري بصلاً بدانق[4]،

---

(1) اختلابي: خداعي.

(2) الخريبة: وردت هذه الكلمة في بعض الطبقات باسم (الحربية) وهذا خطأ محض (فالخريبة) في البصرة، (والحربية) في بغداد، ولم تكن بغداد أسست بعد في زمن هذه القصة التي حدثت لابن المقفع، وقد قتل سنة 142 هـ.

(3) الباطنة: من البصرة والكوفة مجتمع الدور والأسواق.

(4) دانق: سدس الدرهم.

وباذنجاناً بدانق، وقرعة بدانق، فإذا كان أيام الجزر فجزراً بدانق، وطبخه كله سِكْباجاً[1]، فأكل وعياله يومئذ خبزهم بشيء من رأس القدر. وما ينقطع في القدر من البصل والباذنجان والجزر والقرع والشحم واللحم.

فإذا كان يوم السبت ثردوا خبزهم في المرق. فإذا كان يوم الأحد أكلوا البصل. فإذا كان يوم الإثنين أكلوا الجزر، فإذا كان يوم الثلاثاء أكلوا القرع. فإذا كان يوم الأربعاء أكلوا الباذنجان فإذا كان يوم الخميس أكلوا اللحم، فلهذا كان يقول: ما فاتني اللحم منذ ملكت المال.

دخان الطرفاء يهضم الطعام

قال أصحابنا: نزلنا بناس من أهل الجزيرة، وإذا هم في بلاد باردة، وإذا حطبهم شر حطب، وإذا الأرض كلها غابة واحدة طرفاء[2].

فقلنا: ما في الأرض أكرم من الطرفاء. قالوا: هو كريم، ومن كرمه نفرّ.

قالوا: فقلنا: وما الذي تفرون منه؟

قالوا: دخان الطرفاء يهضم الطعام، وعيالنا كثير.

* * *

نصيحة النقاش للجاحظ

صحبني (محفوظ النقاش) من مسجد الجامع ليلاً، فلما صرت قرب منزله، وكان منزله أقرب إلى مسجد الجامع من منزلي، سألني أن أبيت عنده وقال: أين تذهب في هذا المطر والبرد، ومنزلي منزلك، وأنت في ظلمة وليس معك نار، وعندي لِبَأ[3] لم ير الناس مثله، وتمر ناهيك به جودة، لا

---

(1) السكباج: مرق يعمل من اللحم والخل، وقد سبق ذكره.

(2) طرفاء: نوع من الشجر.

(3) اللبأ: أول الحليب عند الولادة.

تصلح إلاّ لَهُ.

فملت معه، فأبطأ ساعة ثم جاءني بجام لِبَأ، وطبق تمر، فلما مددت يدي قال: (يا أبا عثمان، إنه لِبَأ وغِلَظُه[1]، وهو والليل وركوده، ثم ليلة مطر ورطوبة. وأنت رجل قد طعنت في السن، ولم تزل تشكو من الفالج طرفاً، وما زال الغليل[2] يسرع إليك، وأنت في الأصل لست صاحب عشاء، فإن أكلت اللِّبَأ ولم تبالغ، كنت لا آكلاً ولا تاركاً، وحرشت طباعك[3]، ثم قطعت الأكل أشهى ما كان إليك، وإن بالغت بتنا في ليلة سوء، من الاهتمام بأمرك، ولمْ نعدّ لك نبيذاً ولا عسلاً، وإنما قلت هذا الكلام، لئلا تقول غداً: كان وكان. والله قد وقعت بين نابي أسد؛ لأني لو لم أجئك به، وقد ذكرته لك، قلتَ: بخل به وبدا له فيه، وإن جئتُ به؛ ولم أحذرك منه، ولم أذكرك كل ما عليك فيه، قلتَ: لم يشفق عليَّ ولم ينصح، فقد برئت إليك من الأمرين جميعاً، فإن شئت فأكلة ومَوْتَة، وإن شئت فبعض الاحتمال، ونوم على سلامة).

فما ضحكت قط كضحكي تلك الليلة، ولقد أكلته جميعاً فما هضمه إلا الضحك والنشاط والسرور، فيما أظن. ولو كان معي من يفهم طيب ما تكلم به لأتَى عليّ الضحك، أو لَقُضِيَ عَليَّ. ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب.

من الغم أكل الرغيف

قال أبو القماقم: أول الإصلاح ألا يرد ما صار في يد لك، فإن كان

---

(1) غلظه: ثقله على المعدة.

(2) الغليل: شدة العطش.

(3) حرشت طباعك: أي هيجت شهوة الأكل في نفسك.

ما صار في يدي لي فهو لي. وإن لم يكن لي فأنا أحق به ممن صيَّره في يدي. ومن أخرج من يده شيئاً إلى يد غيره، من غير ضرورة، فقد أباحه لمن صيَّره إليه وتفريقك إياه مثل إباحته.

وقالت له امرأة: ويحك يا أبا القماقم إني قد تزوجت زوجاً نهارياً[1]، والساعة وقته، وليست علي هيئة، فاشتر لي بهذا الرغيف آساً[2]، وبهذا الفلس دهناً، فإنك تؤجر، فعسى الله أن يلقي محبتي في قلبه، فيرزقني على يدك شيئاً أعيش به، فقد والله ساءت حالي، وبلغ المجهود مني.

فأخذهما وجعله وجهه[3]. فرأته بعد أيام، فقالت: سبحان الله!.. أما رحمتني مما صنعت بي؟ قال: ويحك!.. سقط، والله، مني الفلس، فمن الغم أكلت الرغيف.

عاشق في معدته!..

وتعشَّق واحدة، فلم يزل يتبعها، ويبكي بين يديها، حتى رحمته، وكانت مكثرة، وكان مقلاً، فاستهداها هريسة، وقال: أنتم أحذق بها، فلما كان بعد أيام تشهّى عليها رؤوساً، فلما كان بعد قليل طلب منها حَيْسة[4]، فلما كان بعد ذلك تشهّى عليها طَفَيْشيلَة[5].

قالت المرأة: رأيت عشق الناس يكون في القلب وفي الكبد وفي الأحشاء، وعشقك أنت ليس يجاوز معدتك!..

---

(1) زوج نهاري: أي يأتي منزل زوجته في النهار.

(2) الآس: نوع من الرياحين معروف.

(3) جعله وجهه: جعل الرغيف والفلس وجهته التي يسير إليها.

(4) حيسة: الحيس والحيسة واحد: أقط يخلط بالتمر والسمن.

(5) طفيشيلة: نوع من المرق.

يسأل عن مال الخطيبة

وقال أبو الإصبغ: ألح أبو القماقم على قوم عند الخطبة إليهم، يسأل عن مال المرأة ويحصيه، ويسأل عنه. فقالوا: قد أخبرناك بمالها.. فأنت أي شيء مالك؟ قال: وما سؤالكم عن مالي؟ الذي لها يكفيني ويكفيها.

البخيل والذباب

كان أحمد بن الخاركي[1] بخيلاً، وكان نفّاجاً[2]، وهذا أغيظ ما يكون، وكان يتخذ لكل جبة أربعة أزرار، ليرى الناس أن عليه جبتين. ويشتري الأعذاق[3] والعراجين[4] والسعف من الكلاء، فإذا جاء به الحمال إلى بابه تركه ساعة يوهم الناس أن له من الأرضين ما يحتمل أن يكون ذلك كله منها. وكان يكتري قدور الخمَّارين التي تكون للنبيذ، ثم يتحرى أعظمها، ويهرب من الحمالين بالكراء، كي يصيحوا بالباب: (يشربون الداذي[5] والسكر[6]، ويحبسون الحمالين بالكراء؟) وليس له في منزله رطل دبس، وسمع قول الشاعر:

رَأَيْتَ الخُبْزَ عَزَّ لَدَيْكَ حَتَّى حَسِبْتُ الخُبْزَ في جَوِّ السَّحَابِ

وَمَا رَوَّحْتَنَا لِتَذُبَّ عَنَّا وَلكِنْ خِفْتَ مَرْزِئَةَ الذّباب

(1) أحمد بن الخاركي: هو أحمد بن إسحاق، بصري شاعر، منسوب إلى خارج، جزيرة من جزر البحر الفارسي.

(2) نفّاج: متفاخر بما ليس عنده.

(3) الأعذاق: عناقيد النخل.

(4) العراجين: الأعذاق إذا يبست.

(5) الداذي: الخمرة.

(6) السكر: الخمرة.

فقال:

(ولم ذبَّ عنهم لعنه الله؟ والله ما أعلم إلا أنه شهَّى إليهم الطعام، ونظف لهم القصاع، وفرّغهم له، وسحرهم عليه. ثم ألا تركها تقع في قصاعهم، وتسقط على آنافهم وعيونهم؟ هو والله أهل لما هو أعظم من هذا. كم ترون من مرةٍ قد أمرتُ الجاريةَ أن تُلقي في القصعة الذبابة والذبابتين والثلاث، حتى يتقزز بعضهم، ويكفي الله شره.

قال: وأما قوله:

رَأَيْتَ الخُبْزَ عَزَّ لَدَيْكَ حَتَّى

قال: فإذا لم أعز هذا الشيء الذي هو قِوام أهل الأرض، وأصل الأقوات، وأمير الأغذية، فأي شيء أعز؟!.. أي والله، إني أعزه وأعزه وأعزه وأعزه، مدى النفس، ما حملت عيني الماء.

النبيذ هو السبب

حدثني المكي قال: بتُّ عند إسماعيل بن غزوان، وإنما بَيَّتني عنده حين علم أني تعشَّيت عند (مُوَيْس)، وحملت معي قربة نبيذ، فلما مضى من الليل أكثره، وركبني النوم جعلت فراشي البساط، ومرفقتي[1] يدي، وليس في البيت إلا مُصلّى له، ومرفقة ومخدة، فأخذ المخدة فرمى بها إلي، فأبيتها ورددتها عليه، وأبى وأبيت. فقال: سبحان الله!.. يكون أن تتوسد مرفقك، وعندي فضل مخدة؟ فأخذتها فوضعتها تحت خدي، فمنعني من النوم إنكاري للموضع، ويبس فراشي. وظن أني قد نمت، فجاء قليلاً قليلاً حتى سَلَّ المخدة من تحت رأسي، فلما رأيته قد مضى بها، ضحكت وقلت: قد كنت عن هذا غنياً!.. قال: إنما جئت لأسوي رأسك. قلت: إني لم أكلمك حتى

(1) المرفقة: المتكأ.

وليت بها. قال: كنت لهذا جئت، فلما صارت المخدة في يدي نسيت ما جئت له، والنبيذ، ما علمت، والله يذهب بالحفظ أجمع.

من يطيع النساء شر منهن

حدثني تمام بن أبي نعيم قال: كان لنا جار، وكان له عرس. فجعل طعامه كله فالوذق[1]، فقيل له: إن المؤونة تعظم. قال: أحتمل ثقل الغرم بتعجيل الراحة، لعن الله النساء، وما أشك أن من أطاعهن شر منهن.

خطاب إلى الدرهم

وحديث سمعناه على وجه الدهر[2]: زعموا أن رجلاً قد بلغ في البخل غايته، وصار إماماً، وأنه كان إذا صار في يده الدرهم، خاطبه وناجاه وفداه[3] واستبطأه[4]، وكان مما يقول له: كم من أرض قد قطعت! وكم من كيس قد فارقت!.. وكم من خامل رفعتَ! ومن رفيع قد أخملت!.. لك عندي أن لا تُعرى ولا تضحى! ثم يلقيه في كيسه ويقول له: اسكن على اسم الله، في مكان لا تهان ولا تذل ولا تزعج منه، وأنه لم يُدخِل فيه درهماً قط فأخرجه.

كانوا يتمنون موته

وأن أهله ألحوا في شهوة[5]، وأكثروا عليه في إنفاق درهم، فدافعهم ما أمكن ذلك، ثم حمل درهماً فقط. فبينما هو ذاهب إذ رأى حوّاءً[6] قد أرسل

---

(1) فالوذق: الفالوذق والفالوذج واحد: حلواء تصنع من الحنطة.

(2) على وجه الدهر: أي قديم.

(3) فداه: أي قال: جعلت فداك.

(4) استبطأه: استبطأ وصوله إليه.

(5) في شهوة: أي في شيء يشتهونه.

(6) حواء: الحاوي، الذي يجمع الحيات.

على نفسه أفعى لدرهم يأخذه. فقال في نفسه: أتلف شيئاً تبذل فيه النفس، بأكلة أو شربة؟! والله ما هذا إلا موعظة لي من الله)، فرجع إلى أهله. ورد الدرهم إلى كيسه. فكان أهله منه في بلاء، وكانوا يتمنون موته والخلاص بالموت أو الحياة.

الولد سرُّ أبيه

فلما مات وظنوا أنهم قد استراحوا منه، قدم ابنه، فاستولى على ماله وداره، ثم قال: ما كان أَدَمُ أبي؟ فإن أكثر الفساد إنما يكون في الآدام، قالوا: كان يتأدم بجبنة عنده.

قال: أرونيها، فإذا فيها حَزّ كالجدول من أَثَرِ مَسْحِ اللقمة.

قال: ما هذه الحفرة؟

قالوا: كان لا يقطع الجبن، وإنما كان يمسح على ظهره، فيحفر كما ترى.

قال: فهذا أهلكني، وبهذا أقعدني هذا المقعد[1]!.. لو علمت ذلك لما صليت عليه.

قالوا: فأنت كيف تريد أن تصنع؟ قال: أضعها من بعيد، فأشير إليها باللقمة.

الكرم بالنبيذ

قال ابن جهانة الثقفية: عجبت ممن يمنع النبيذ طالبه؛ لأن النبيذ إنما يطلب ليوم فَصْد، أو يوم حِجَامة، أو يوم زيارة زائرٍ، أو يوم أكل سمك طري، أو يوم شربة دواء، ولم نر أحداً طلبه وعنده نبيذ ولا ليدّخره ويحتكره

---

(1) أقعدني هذا المقعد: أي أوصلني إلى هذه الحالة من القعر.

ولا ليبيعه ويعتقد منه[1]، وهو شيء يحسن طلبه، وتحسن هبته، ويحسن موقعه. وهو في الأصل كثير رخيص. فما وجه منعه؟ ما يمنعه عندي إلا من لا حظَّ له في أخلاق الكرام. وعلى أني لست أوجل[2]، بما أهب منه، على نبيذي النقصان، لأني إذا احتجبت عن ندمائي، بقدر ما أخرجت من نبيذي، رجع إليَّ نبيذي على حاله، وكنت قد تحمّدت بما لا يضرّني. فم ترك التحمد بما لا يضره كان من التحمد بما يضره أبعد.

فذكر ابن جهانة ما له من الكرم بِهِبةِ نبيذه، ولم يذكر ما عليه بحجب ندمائه.

بِعْهُ.. وإلاّ فاذبحه

قال الأصمعي أو غيره: حمل بعض الناس مدينياً على برْذَوْن فأقامه على الأري[3]. فانتبه من نومه فوجده يعتلف، ثم نام فانتبه فوجده يعتلف، فصاح بغلامه: يا ابن أمّ بِعْه وإلا فَهَبْهُ، وإلا فَرُدَّهُ، وإلا فاذبحه، أنام ولا ينام؟ يذهب بِحُرّ مالي؟ ما أراد إلا استئصالي!..

التَّمَّارُ.. والقطنة

قال أبو الحسن المدائني: كان بالمدائن[4] تَمَّار، وكان غلامه إذا دخل الحانوت يحتال فربما احتبس[5]، فاتهمه بأكل التمر، فسأله يوماً فأنكر، فدعا بقطنة بيضاء، ثم قال: امضغها.. فمضغها.. فلما أخرجها وجد فيها حلاوة وصُفرة. قال: هذا دأبك كل يوم، وأنا لا أعلم؟ أخرج من داري.

---

(1) يعتقد منه: يقتني.

(2) أوجل: أخاف.

(3) الأري: ما يوضع فيه علف الدابة.

(4) المدائن: هي مدائن كسرى القريبة من بغداد.

(5) احتبس: غاب فيه.

لو قدروا على داري لهدموها

وحدثني المصري، وكان جار الدّار دريشي، وماله لا يُحصى، قال: فانتهر سائلاً ذات يوم وأنا عنده، ثم وقف عليه آخر فانتهره إلا أن ذلك بغيظ وحنق. قال: فأقبلتُ عليه فقلت له: ما أبغض إليك السؤال؟

قال: أجل، عامة من ترى منهم أيسر مني.

قال: فقلت: ما أظنك أبغضتهم إلا لهذا.

قال: كل هؤلاء لو قدروا على داري لهدموها، وعلى حياتي لنزعوها. أنا لو طاوعتهم فأعطيتهم كلما سألوني، كنت قد صرت مثلهم منذ زمان، فكيف تظن بغضي يكون لمن أرادني على هذا؟

تَسَلَّمْ تَسْلَمْ

وكان أخوه شريكه في كل شيء، وكان في البخل مثله. فوضع أخوه في يوم جمعة بين أيدينا، ونحن على بابه، طبق رُطَب يساوي بالبصرة دانقين. فبينما نحن نأكل إذ جاء أخوه، فلم يسلّم ولم يتكلم حتى دخل الدار، فأنكرنا ذلك، وكان يفرط في إظهار البِشْر، ويجعل البِشْر وقاية دون ماله. وكان يعلم أنه إن جمع بين المنع والكِبَر قتل. قال: ولم نعرف علته، ولم يعرفها أخوه.

فلما كان الجمعة الأخرى، دعا أيضاً أخوه بطبق رطب، فبينما نحن نأكل، إذ خرج من الدار ولم يسلّم ولم يقف. فأنكرنا ذلك. ولم ندر أيضاً ما قصته. فلما أن كان في الجمعة الثالثة، ورأى مثل ذلك، كتب إلى أخيه:

(يا أخي كانت الشركة بيني وبينك حين لم يكثر الولد، ومع الكثرة يقع الاختلاف، ولست آمَنُ أن يخرج ولدي وولدك إلى مكروه، وها هنا أموال

باسمي ولك شطرها، وأموال باسمك ولي شطرها، وصامتٌ[1] في منزلي وصامِتٌ في منزلك. لا نعرف فضل بعض ذلك على بعض، وإن طرقنا أمر الله، ركدت[2] الحرب بين هؤلاء الفتية، وطال الصخب بين هؤلاء النسوة، فالرأي أن تتقدم اليوم فيما يحسم عنهم هذا السبب).

فلما قرأ أخوه كتابه، تعاظمه ذلك وهاله، وقلب الرأي ظهراً لبطن، فلم يزده التقليب إلا جهلاً، فجمع ولده وغلظ عليهم، وقال: عسى أن يكون أحد منكم قد أخطأ بكلمة واحدة، أو يكون هذا البلاء من جرائر[3] النساء.

فلما عرف براءة ساحة القوم، تمشّى إليه حافياً راجلاً، فقال: ما يدعوك إلى القسمة والتمييز؟ ادْعُ صلحاء أهل المسجد الساعة، حتى أشهدهم بأني وكيل لك في هذه الضياع، وحوّل كل شيء في منزلي إلى منزلك، وجرّب ذلك مني الساعة. فإن وجدتني أروغ وأعتل، فدونك. فحاجتي الآن أن تخبرني بذنبي.

قال: مالك من ذنب، وما من القسمة من بد. فأقام عنده يناشده إلى نصف النهار، ثم أقام يومه ذلك إلى نصف الليل يناشده ويطلب إليه.

فلما طال عليه الأمر، وبلغ منه الجهد، قال له:

(حدثني عن وضعك أطباق الرُّطب وبسطك الحُصُر في السكك، وإحضارك الماء البارد، وجمعك الناس على بابي في كل جمعة، كأنك ظننت أنا كنا عن هذه المكرمة عُمياً. إنك إذا أطعمتهم اليوم البُرْني[4] أطعمتهم غداً

(1) الصامت من المال: الذهب والفضة.

(2) ركدت الحرب: استقرت.

(3) جرائر: ذنوب، واحدها جريرة.

(4) البرني: نوع من الرطب.

السكَّر، وبعد غد الهِلْباثا[1]، ثم يصير ذلك بعد أيام الجمع في سائر أيام الأسبوع، ثم يتحول الرطب إلى الغداء، ثم يؤدي الغداء إلى العشاء، ثم تصير إلى الكساء ثم الأجداء ثم الحُملان، ثم اصطناع الصنائع[2] والله إني لأرثي لبيوت الأموال، ولخراج المملكة من هذا، فكيف بمال تاجر جمعه من الحبات والقراريط والدوانيق والأرباع والأنصاف؟!).

قال: جُعلت فداك!.. تريد أن لا آكل رُطبة أبداً فضلاً على غير ذلك؟ وأخرى فلا والله لا كلمتهم أبداً.

قال: إياك أن تخطئ مرتين: مرة في إطماعهم فيك، ومرّة في اكتساب عداوتهم، اخرج من هذا الأمر على حساب ما دخلت فيه. وتسلَّمْ تسلَمْ.

دجاجة أبي الهذيل

كان (أبو الهذيل) أهدى إلى (مويس) دجاجة، وكانت دجاجته التي أهداها دون ما كان لمويس، ولكنه بكرمه وبحسن خلقه أظهر التعجب من سمنها وطيب لحمها. وكان يعرفه بالإمساك الشديد. فقال: (وكيف رأيت يا أبا عمران تلك الدجاجة؟ قال: كانت عجباً من العجب. فيقول: وتدري ما جنسها؟ وتدري ما سنها؟ فإن الدجاجة إنما تطيب بالجنس والسن. وتدري بأي شيء كنا نسمنها؟ وفي أي مكان كنا نعلفها؟ فلا يزال في هذا، والآخر يضحك ضحكاً نعرفه نحن، ولا يعرفه أبو الهذيل.

وكان أبو الهذيل أسلم الناس صدراً، وأوسعهم خلقاً، وأسهلهم سهولة، فإن ذكروا دجاجة قال: أين كانت يا أبا عمران من تلك الدجاجة؟

---

(1) الهلباثا: نوع آخر من الرطب.

(2) الصنائع: مفردها صنيعة وهي المعروف.

فإن ذكروا بطة أو عناقاً[1] أو جزوراً[2] أو بقرة قال: فأين كانت هذه الجزور في الجزر من تلك الدجاجة في الدجاج؟

وإن استسمن أبو الهذيل شيئاً من الطير والبهائم قال: لا والله ولا تلك الدجاجة.

وإن ذكروا عذوبة الشحم قال: عذوبة الشحم في البقر والبط: بطون السمك والدجاج، ولا سيما ذلك الجنس من الدجاج.

وإن ذكروا ميلاد شيء أو قدوم إنسان، قال: كان ذلك بعد أن أهديتها لك بسنة. وما كان بين قدوم فلان وبين البعثة بتلك الدجاجة إلا يوم. وكانت مثلاً في كل شيء وتاريخاً في كل شيء.

---

(1) العناق: الأنثى من أولاد الماعز.

(2) الجزور: ما يجزر (يذبح) من النوق والغنم.

قصة أبـي سعيـد المدانـي

اللئيم.. والملأم

كان أبو سعيد المدائني إماماً في البخل عندنا بالبصرة، وكان من كبار المعينين[1] ومياسيرهم، وكان شديد العقل، شديد العارضة[2]، حاضر الحجة، بعيد الروية.

وكنت أتعجب من تفسير أصحابنا لقول العرب في لؤم اللئيم الراضع.

قال أصحابنا: كل لئيم بخيل، وليس كل بخيل لئيماً، لأن اسم اللئيم يقع على البخل، وعلى قلة الشكر، وعلى مهانة النفس، وعلى أن له في ذلك عرقاً متقدماً.

قال أبو زيد: هو لئيم وملأم. فاللئيم ما فسرت، والملأم الذي يقوم بعذر اللئيم. فأما اللئيم الراضع، فالذي لا يحلب في الإناء، ويرضع من الخلف، مخافة أن يضيع من اللبن شيء. قال ثوب بن شحمة العنبري[3] في امرأته الهمدانية:

وحديثُ مالجةَ التي حَدَثتني تَدَعُ الإناءَ تَشَرُّباً للقادِمِ[4]

(القادمان الخِلفان المقدَّمان). فلما بلغه ذلك عنها طلقها. فلما طلقها قيل له: إن البخل إنما يعيب الرجل، ومتى سمعتَ بامرأة هُجِيَتْ في البخل؟

قال: ليس ذلك بي. أخاف أن تلد لي مثلها.

---

(1) المعينون: الذين يتعاطون التعامل بالعينة وهي نوع من المعاملات المالية، وتطلق بشكل عام على المرابين.

(2) العارضة: البديهة.

(3) ثوب بن شحمة العنبري: شخصية جاهلية عاصر حاتم الطائي، كان يلقب بمجير الطير، فكان لا يصاد بأرضه. ويقال إنه كان سيداً شريفاً، كما ذكره الجاحظ في موضع آخر.

(4) المالجة (ووردت اللامجة في نسخة أخرى): وهي التي تتناول الطعام بأدنى فمها.

قال رافع بن هريم[1]:

... ... تَحلُبُ قاعداً وتملج أحياناً وَقَعْبُكَ حاضِرُ[2]

يدعو الله عليه أن يجعله صاحب شاء، ولا يجعله صاحب إبل، وأن يرتضع من الخلف، وإن كان معه إناء. والعربي ربما اتَّلَى[3] على صاحبه فيقول: إن كنت كاذباً فاحتلبت قاعداً. أي أبدلك الله بكرم الإبل لؤم الغنم.

يحمل نعله في يده أثناء السفر

فكيف تتعجب من لؤم الراضع، وصنع أبو سعيد المدائني أعظم من ذلك: اصطبغ[4] من دنٍّ خل وهو قائم حتى فني ولم يُخرج منه قليلاً ولا كثيراً.

وكانت له حلقة يقعد فيها أصحاب العينة والبخلاء الذين يتذاكرون الإصلاح[5]، فبلغهم أن أبا سعيد يأتي الخريبة[6] في كل يوم ليقتضي رجلاً هناك خمسة دراهم فضلْت عليه.

وقالوا: هذا خطأ عظيم وتضييع كثير. وإنما الحزم أن يتشدد في غير تضييع. وصاحبنا هذا قد رجع على نفسه بضروب من البلاء.

فاجتمعوا عليه على طريق التفرغ له[7]، والاستفادة منه. قالوا: نراك تصنع شيئاً لا نعرفه، والخطأ منك أعظم منه من غيرك. قد أشكل علينا هذا

(1) رافع بن هريم: شاعر جاهلي قديم، وهو رافع بن هريم بن سعد، يربوعي أدرك الإسلام، ولم يعرف من شعره إلا القليل.

(2) القصب: القدح الكبير.

(3) أتلى: دعا عليه.

(4) اصطبغ: ائتدم.

(5) الإصلاح: أي طرق البخل.

(6) الخريبة: محطة بالبصرة.

(7) على طريق التفرغ له: أي أن يتفرغوا له لدرس حالته والاستفادة منه.

الأمر، فأخبرنا عنه، فقد ضاقت صدورنا به. خبرنا عم مَشِيِّكَ إلى الخريبة لتقتضي خمسة دراهم.

فواحدة: أنّا لا نأمن عليك انتقاض بدنك[1]، وقد خلا ما خلا من سنك. وأن تعتل فتدع التقاضي للكثير بسبب القليل.

وثانية: أنك تنصب هذا النصب، فلا بد لك من أن تزداد في العشاء إن كنت ممن يتعشى، أو تتعشى إن كنت ممن لا يتعشى، وهذا إذا اجتمع كان أكثر من خمسة دراهم.

وبعد فإنك تحتاج أن تشق وسط السوق، وعليك ثيابك والحمولة تستقبلك، فمن هاهنا نَتْرَة[2]، ومن هاهنا جذبة، فإذا الثوب قد أودى، ومن ذلك أن نعلك تنقب وترق، وساق سراويلك تنسخ وتبلى. ولعلك أن تعثر في نعلك فتقدها قداً، ولعلك تهرتها هرتاً[3].

وبعد فاقتضاء القليل أدى بك إلى هذا وما بلغت منه شيئاً. وإنك أفضل، إلا أنا نحب أنك تجلي عن الأمر بشيء، فليس كلنا يثق لك بالصواب في كل شيء.

قال أبو سعيد: أما ما ذكرتم من انتقاض البدن، فإن الذي أخاف على بدني من الدعة، ومن قلة الحركة أكثر. وما رأيت أصح أبداناً من الحمّالين والطوافين[4] والقوم قبلي، أن يموتوا، لم يكن تلك عادة، وليس يقول الناس: والله لفلان أصح من الجلاوزة! يعني اختلاف الجلاوزة[5] في العدو. ولربما

---

(1) الانتقاض: الضعف.

(2) النترة: الجذبة.

(3) تهرتها: تمزقها.

(4) الطوافون: حراس الليل الذين يطوفون في الأسواق.

(5) الجلاوزة: واحدها جلواز: وهو الشرطي.

أقمت في المنزل لبعض الأمر، فأكثر الصعود والنزول، خوفاً من قلة الحركة.

وأما التشاغل بالبعد عن القريب، فإني لا أعرض للبعيد حتى أفرغ من القريب.

وأما ما ذكرتم من الزيادة في الطعم فقد أيقنت نفسي، واطمأن قلبي، على أنه ليس لنفسي عندي إلا ما لها، وأنها إن حاسبتني أيام النصب، حاسبتها أيام الراحة، فستعلم حينئذ أين أيام الخريبة من أيام ثقيف.

وأما ما ذكرتم من تلقِّي الحمولة، ومن مزاحمة أهل السوق، ومن النتر والجذب، فأنا أقطع عرض السوق من قبل أن يقوم أهل السوق لصلاتهم، ثم يكون رجوعي على ظهر السوق.

وأما ما ذكرتم من شأن النعل والسراويل، فإني من لَدُن خروجي من منزلي، إلى أن أقرب من باب صاحبي، فإنما نعلي في يدي، وسراويلي في كُمِّي، فإذا صرت إليه لبستهما. فإذا فصلتُ[1] من عنده خلعتهما، فهما في ذلك اليوم أودع أبداناً[2] وأحسن حالاً.

بقي الآن لكم ما ذكرتم شيء؟ قالوا: لا.

قال: فهاهنا واحدة تفي بجميع ما ذكرتم.

قالوا: وما هي؟

قال: إذا علم القريب الدار، ومن لي عليه ألوف الدنانير، شدة مطالبتي للبعيد الدار، ومن ليس لي عليه إلا الفلوس، أتى بحقي ولم يطمع نفسه في مالي. وهذا تدبير يجمع لي إلى رجوع مالي طول راحة بدني. ثم أنا بالخيار

(1) فصلت: خرجت.

(2) أودع أبداناً: أكثر راحة.

في ترك الراحة، لأني أقسمها على الأشغال حينئذ كيف شئت. وأخرى إن هذا القليل لو لم يكن فضلة من كثير، وموصولاً بدين لي مشهور، لجاز أن أتجافى عنه. فأما أن أدع شيئاً يطمع في فضول ما يبقى على الغرماء فهذا ما لا يجوز.

فقاموا وقالوا أجمعهم: لا والله لا سألناك عن مشكلة.

أمر الخادم أن تفتش الكناسة

وكان أبو سعيد ينهى خادمه أن تخرج الكُسَاحة من الدار، وأمرها أن تجمعها من دور السكان، وتلقيها على كساحتهم، فإذا كان في الحين جلس وجاءت الخادم ومعها زبيل، فعزلت بين يديه من الكساحة زبيلاً، ثم فتشت واحداً واحداً، فإن أصاب قطع دراهم وصرة فيها نفقة والدينار أو قطعة حلي، فسبيل ذلك معروف. وأما ما وجد فيه من الصوف، فكان وجهه أن يباع إذا اجتمع من أصحاب البراذع[1]، وكذلك قطع الأكسية، وما كان من خرق الثياب، فما أصحاب الصينيات والصلاحيات[2].

وما كان من قشور الرمان، فمن الصباغين والدباغين. وما كان من القوارير، فمن أصحاب الزجاج. وما كان من نوى التمر، فمن أصحاب الخشوف[3]. وما كان من نوى الخوخ، فلأصحاب الغرس. وما كان من المسامير وقطع الحديد، فللحدادين. وما كان من القراطيس، فللطرّاز[4]. وما كان من الصحف، فلرؤوس الجِرار، وما كان من قطع الخشب، فللأكّافين[5]،

(1) البراذع: واحدتها برذعه: غطاء يلقى على ظهر الدابة.

(2) الصلاحيات: أوان من الخزف للطعام، واحدتها صلاحية.

(3) الحشوف: نوع من التمر الرديء.

(4) الطرّاز: مكان نسج الثياب أو مصنع الورق.

(5) الأكّاف: الذي يصنع براذع الحمير.

وما كان من قطع الخزف، فللتنانير الجُدُد. وما كان من اشكنج[1]، فهو مجموع للبناء، ثم يحرك ويثار ويخلل، حتى يجتمع قماشه[2]، ثم يعزل للتنور. وما كان من قطع القار، بيع من القيَّار.

فإذا بقي التراب خالصاً، وأراد أن يضرب منه اللبِن للبيع وللحاجة إليه، لم يتكلف الماء، ولكن يأمر جميع من في الدار أن لا يتوضؤوا ولا يغتسلوا إلا عليه، فإذا ابتل ضربه لبِناً.

وكان يقول: (من لا يتعرَّف الاقتصاد تعرَّفي، فلا يتعرض له).

* * *

السنور آكل البطيخ

حدثني جعفر بن أخت واصل قال: قلت لأبي عيينة: قد أحسن الذي سأل امرأته عن اللحم، فقالت: أكله السنور، فوزن السنور، ثم قال: هذا اللحم فأين السنور؟ قال: كأنك تعرض بي؟ قال: قلت: إنك والله أهل ذلك!.. شيخ قد قارب المئة، وغلّته فائضة[3]، وعياله قليل، ويُعطى الأموال على مذاكرة العلم، والعلم لذّته وصناعته، ثم يرقى إلى جوف منزله، وأنت رِجْلٌ لك في البستان، ورِجْلٌ في أصحاب الفسيل[4]، ورِجلٌ في السوق، ورِجل في الكلاء[5]، تطلب من هذا وقر[6] جص، ومن هذا وقر آجر، ومن هذا قطعة ساج، ومن هذا هكذا، ما هذا الحرص؟ وما هذا الكد؟ وما هذا الشغل؟ لو

(1) الأشكنج: هو قطع الطوب والآجر المكسر، (ولا تزال الكلمة مستعملة في العراق).

(2) قماشه: يقصد بالقماش هنا الأشياء القابلة للاحتراق.

(3) فائضة: زائدة عن الحاجة.

(4) الفسيل: النخل الصغير.

(5) الكلاء: تطلق هذه الكلمة على مرفأ السفن، ثم أصبحت تطلق على أحد مواضع البصرة القريبة من البحر، ويقول ياقوت: هي اسم محلة مشهورة وسوق بالبصرة أيضاً.

(6) وقر: حمل.

كنت شاباً بعيد الأمل كيف كنت تكون؟ ولو كنت مديناً كثير العيال كيف كنت تكون؟ وقد رأيتك فيما حدث تلبس الأطمار وتمشي حافياً نصف النهار.

قال: كم أجَمْجِمْ[1]!.. بلغني أنك فقدت قطعة بطيخ، فألححت في المسألة عنها، فقيل لك أكلها السنور، فرميتَ بباقي القطعة قُدام السنور لتمتحن صدقهم من كذبهم، فلما لم يأكله غرّمتهم ثمن البطيخة كما هي.

قالوا لك: كان الليل، فإن لا تكن التي أكلته من سنانير الجيران، وكان الذي أكله سنورنا هذا، فإنك رميت إليه بالقطعة وهو شبعان منه، فأنظرنا ولا تغرمنا نمتحنه في حالٍ غير هذه، فأبيت إلا إغرامهم.

قال: ويلك!.. إني والله ما أصل إلى منعهم من الفساد إلا ببعض الفساد، وقد قال زياد في خطبته: (والله إني ما أصل منكم إلى أخذ الحق، حتى أخوض الباطل إليكم خوضاً). وأما ما لمتني عليه آنفاً، فإنما ذهبت إلى قوله: (لو أن في يدي فسيلة، ثم قيل لي: إن القيامة تقوم الساعة لبادرتها فغرستها).

وقد قال أبو الدرداء في وجعه الذي مات فيه: (زوجوني، فإني أكره أن ألقى الله عزباً).

والعرب تقول: (من غَلى دماغه في الصيف غلتْ قِدرُه في الشتاء).

قال مكرز: (العجز فراشٌ وطيء، لا يستوطئه إلا الفَشِل[2] الدثور[3])

وقال عبد الله بن وهب: (حب الهوينى يكسب النصب).

---

(1) أجمجم: أكتم ألمي في صدري.

(2) الفشِل: الضعيف.

(3) الدثور: البليد، الخامل.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إياكم والراحة، فإنها غفلة).

وقال: (لو أن الصبر والشكر بعيران، ما باليت أيهما أركب).

وقال: (تمعددوا[1] واخشوشنوا[2]، واقطعوا الركب، واركبوا الخيل نزواً[3]).

وقال لعمرو بن معدي كرب، حين شكا إليه الحِقاء[4]: (كذبت عليك الظهائر).

وقال: (احتفوا[5]، فإنكم لا تدرون متى تكون الجفلة).

وقال: (إن يكن الشغل مجهدة، فإن الفراغ مفسدة).

وقال لسعيد بن حاتم: (احذر النعمة كحذرك من المعصية، ولهي أخوفهما عليك عندي).

وقال: (أحذركم عاقبة الفراغ، فإنه أجمع لأبواب المكروه من الشغل).

وقال أكثم بن صيفي[6]: (ما أحب أني مكفي كل أمر الدنيا).

قالوا: وإن أسمنت[7] وألبنت[8]؟

قال: (نعم، أكره عادة العجز)، أفتراني أدع وصايا الأنبياء وقول الخلفاء وتأديب العرب، وآخذ بقولك؟

---

(1) تمعددوا: تشبهوا بقوم معد بن عدنان وكانوا ذوي تقشف في المعيشة.

(2) اخشوشنوا: عيشوا حياة خشنة.

(3) الركب: مفردها: ركاب: وهو ما يوضع في القدم عند الركوب، و(نزواً): أي قفزاً.

(4) الحِقاء: وجع البطن.

(5) احتفوا: سيروا بلا نعال.

(6) أكثم بن صيفي، من حكماء العرب المشهورين.

(7) أسمنت: كثر سمنك.

(8) ألبنت: كثر لبنك.

الأنفاق.. وزيت الماء

وتغدى محمد بن الأشعث عند يحيى بن خالد، فتذاكروا الزيت وفضل ما بينه وبين السمن، وفضل ما بين الأنفاق[1] وزيت الماء.

فقال محمد: عندي زيت لم يرَ الناس مثله.

قال يحيى: لا يؤتى منه بشيء؟

فدعا محمد غلامه فقال: إذا دخلت الخزانة، فانظر الجرة الرابعة عن يمينك إذا دخلت، فجئنا منه بشيء. قال يحيى: ما يُعجبني السيد يعرف موضع زيته وزيتونه!..

أعلمُ أنك أكلت منه

وجاء غلام إلى خالد بن صفوان بطبق خوخ، أما أن يكون هدية، وإما أن غلامه جاء به من البستان. فلما وضعه بين يديه قال: لولا أني أعلم أنك قد أكلت منه لأطعمتك واحدة.

أخاف أن تكون عينك مالحة

وقال رمضان: كنت مع شيخ أهوازي في جعفرية[2]، وكنت في الذَّنَب، وكان في الصدر، فلما جاء وقت الغداء، أخرج من سلة له دجاجة وفرخاً واحداً مبرداً، وأقبل يأكل ويتحدث ولا يعرض علي، وليس في السفينة غيري وغيره. فرآني أنظر إليه مرة، وإلى ما بين يديه مرة، فتوهّم أني أشتهيه

(1) الأنفاق: نوع من الزيت. ذكره ابن البيطار فقال: (إنه الزيت المعتصر من الزيتون الفج الذي لم يكمل نضجه). وفي اللسان: هو الزيت المطبوخ أو الزيت الغض. أما زيت الماء فلم يرد فيه نص صريح، ولعله الزيت الذي دخل الماء في صناعته أو ما خلط به. روى ابن قتيبة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (عليكم بالزيت، فإن خفتم ضرره فأثخنوه بالماء فإنه يصير كالسمن).

(2) جعفرية: سفينة نهرية صغيرة نسبة إلى (الجعفر): وهو النهر الصغير.

وأستبطئه[1]، فقال لي:

(لِمَ تحدِّق النظر؟ مَنْ كان عنده، أكل مثلي، ومن لم يكن عنده، نظر مثلك).

قال: ثم نظر إليَّ وأنا أنظر إليه فقال: يا هناه[2]!.. أنا رجل حسن الأكل، لا آكل إلا طيب الطعام. وأنا أخاف أن تكون عينك مالحة، وعين مثلك سريعة، فاصرف عني وجهك. قال:

فوثبت عليه، فقبضت على لحيته بيدي اليسرى، ثم تناولت الدجاجة بيدي اليمنى فما زلت أضرب بها رأسه حتى تقطعت في يدي.

ثم تحوّل إلى مكاني فمسح وجهه ولحيته، ثم أقبل عليّ فقال: قد أخبرتك أن عينك مالحة، وأنك ستصيبيني بعين. قلت: وما شبه هذا من العين؟ قال: إنما العين مكروه يحدث، فقد أنزلت بنا عينك أعظم المكروه. فضحكت ضحكاً ما ضحكت مثله، وتكالمنا حتى كأنه لم يقل قبيحاً، وحتى كأني لم أفرط[3] عليه.

لا آكل لحم جدي أبداً

قالوا: وكان لزياد الحارثي[4] جدي لا يمسّه، ولا يمسّه أحد. فعشّى في شهر رمضان قوماً فيهم أشعب. فعرض أشعب للجدي من بينهم.

فقال زياد: أما لأهل السجن إمام يصلي بهم؟

قالوا: لا.

قال: فليصل بهم أشعب.

---

(1) أستبطأه: أي أستبطىء دعوته للطعام.

(2) يا هناه: يا رجل، وتقال للتعجب والاستخفاف أحياناً.

(3) أفرط عليه: أفرط على الرجل: حمله ما لا يطيق.

(4) زياد الحارثي: كان أميراً على البصرة.

فقال أشعب: أو غير هذا؟ أصلح الله الأمير. قال: وما هو؟ قال: أحلف بالمحرجات[1] أن لا أكل لحم جدي أبداً.

الأعرابي والدجاجة

وتناول أعرابي من بين يدي سليمان بن عبد الملك دجاجة، فقال له: يكفيك ما بين يديك وما يليك. قال الأعرابي: ومنها شيء حِمىً[2]؟ قال: فخذها لا بورك لك فيها.

إنك لبعيد النجعة

قالوا: وكان معاوية تعجبه القِبة[3]، وتغدَّى معه ذات يوم صعصعة بن صوحان[4]، فتناولها صعصعة من بين يدي معاوية. قال معاوية: إنك لبعيد النجعة، قال صعصعة: من أجدب[5] انتجع[6].

ارتفع الدرهم إلى دية

سأل خالد بن صفوان رجل فأعطاه درهماً، فاستقله السائل: فقال: يا أحمق، إن الدرهم عشر العشرة، وإن العشرة عشر المئة، وإن المئة عشر الألف، وإن الألف عشر العشرة آلاف. أما ترى كيف ارتفع الدرهم إلى دية مسلم؟

من أبخل من هذا

قالوا: واحتقن عمر بن يزيد الأسدي[7] بحقنة فيها أدهان. فلما حركته بطنه، كره أن يأتي الخلاء فتذهب تلك الأدهان. فكان يجلس في الطست،

(1) المحرجات: الأيمان التي تضيق مجال الحالف.

(2) حمى: محمي.

(3) القبة: الكرش.

(4) صعصعة: من سادات عبد القيس.

(5) أجدب: أمحل.

(6) انتجع: طلب الكلأ والماء.

(7) عمر بن يزيد الأسدي: من الرؤساء المقدمين في أيام بني مروان.

ويقول: صفوا هذا، فإنه يصلح للسراج!..

صدق أهله إذ سموه لقماناً

وأكل أعرابي مع أبي الأسود الدؤلي[1]، فرأى له لقماً منكراً، وهاله ما يصنع، قال له: ما اسمك؟ قال: لقمان. قال: صدق أهلك. أنت لقمان.

(1) أبو الأسود الدؤلي: شاعر من قبيلة ديل، من أنصار علي بن أبي طالب. حضر معركة صفين، وإليه تنسب أصول النحو العربي.

طرف شتى

خمسمئة ألف.. ضربة واحدة!

قال ابن حسان: كان عندنا رجل مُقِلّ، وكان له أخ مكثر، وكان مفرط البخل، شديد النفج[1].

فقال له يوماً أخوه: ويحك!.. أنا فقير معيل، وأنت غني خفيف الظهر[2]، لا تعينني على الزمان، ولا تواسيني ببعض مالك، ولا تتفرج لي عن شيء؟ والله ما رأيت قط، ولا سمعت بأبخل منك.

قال: ويحك!.. ليس الأمر كما تظن، ولا المال كما تحسب، ولا أنا كما تقول في البخل ولا في اليسر. والله لو ملكت ألف ألف درهم لوهبت لك منها خمسمئة ألف درهم!.. يا هؤلاء فرجل يهب ضربة واحدة خمسمئة ألف يُقال له بخيل؟!..

لم أنظر في شيء من هذا

وحدثني أبو المنجوف السدوسي قال: كنت مع أبي ومعنا شيخ من موالي الحي، فمررنا بناطور على نهر الأبلة[3]، ونحن تعبون. فجلسنا إليه. فلم يلبث أن جاءنا بطبق عليه رطب سكر، وجيسران أسود[4]، فوضعه بين أيدينا. فأكل الشيخ الذي كان معنا. فلما رأيت أبي لا يأكل لم آكل، وبي إلى

---

(1) شديد النفج: شديد التفاخر بما ليس عنده.

(2) خفيف الظهر: لا عيال عنده.

(3) الأبلة: مدينة قديمة من مدن الخليج العربي، وهي تقع –كما يقول ياقوت– على شاطئ دجلة البصرة في زاوية الخليج، ويخرج منها نهر – يسمى نهر الأبلة – يضرب إلى البصرة، وقد كان هذا النهر من أحمل المنازه المشهورة، حتى كان الأصمعي يقول: جنان الدنيا ثلاثة: غوطة دمشق، ونهر بلخ، ونهر الأبلة، وقد كانت تحف به القصور والحدائق.

(4) جيسران أسود: نوع من التمر الجيد.

ذلك حاجة.

فأقبل الناطور على أبي فقال: لِمَ لا تأكل؟ قال: والله إني لأشتهيه، ولكن لا أظن صاحب الأرض أباحَ لك إطعام الناس من الغريب[1]. فلو جئنا بشيء من السهريز والبرني[2] لأكلنا. فقال مولانا، وهو شيخ كبير السن: ولكني لم أنظر في شيء من هذا قط[3].

معيشته في حلقه

قال أبو محمد العروضي: وقعت بين قوم عربدة[4]، فقام المغني يحجز بينهم، وكان شيخاً معتلاً بخيلاً، فمسك رجل بحلقه فعصره، فصاح: معيشتي معيشتي!.. فتبسم وتركه.

ما إدامك؟

شهدت الأصمعي يوماً، وقد أقبل على جلسائه يسألهم عن عيشهم، وعما يأكلون ويشربون. فأقبل على الذي عن يمينه فقال: أبا فلان ما إدامك؟ قال: اللحم، قال: أكلَّ يوم لحم؟ قال: نعم. قال: وفيه الصفراء والبيضاء والحمراء والكدراء والحامضة والحلوة والمرة؟ قال: نعم.

قال: بئس العيش هذا!.. ليس هذا عيش آل الخطاب، كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يضرب على هذا، وكان يقول: (مدمن اللحم كمدمن الخمر).

ثم سأل الذي يليه قال: أبا فلان ما إدامك؟ قال: الآدام الكثيرة، والألوان الطيبة.

---

(1) الغريب: النادر الجيد.

(2) السهريز والبرني: نوعان من التمر الرديء.

(3) لم أنظر.. أي لم يخطر ببالي شيء من هذا.

(4) عربدة: مشادة.

قال: أفي إدامك سمن؟ قال: نعم.

قال: فتجمع السَّمن والسمين على مائدة؟ قال: نعم.

قال: ليس هذا عيش آل الخطاب. كان ابن الخطاب، رحمة الله عليه ورضوانه، يضرب على هذا، وكان إذا وجد القدور المختلفة الطعوم كدرها[1] في قدر واحدة، وقال: إن العرب لو أكلت هذا لقتل بعضها بعضاً.

ثم يقبل على الآخر فيقول: أبا فلان ما إدامك؟

قال: اللحم السمين، والجداء الرضّع.

قال: فتأكله بالحُواري[2]؟ قال: نعم.

قال: ليس هذا عيش آل الخطاب. كان ابن الخطاب يضرب على هذا، أوما سمعته يقول: أتروني لا أعرف الطعام الطيّب؟ لباب البر بصغار المعزى، ألا تراه كيف ينتفي من أكله، وتنتحل معرفته؟

ثم يقبل على الذي يليه فيقول: أبا فلان ما إدامك؟

فيقول: أكثر ما نأكل لحوم الجزور، وتتخذ منها هذه القلايا، ونجعل بعضها شواءً.

قال: أفتأكل من أكبادها وأسنمتها، وتتخذ لك الصباغ[3]؟ قال: نعم.

قال: ليس هذا عيش آل الخطاب. كان ابن الخطاب يضرب على هذا. أوما سمعته يقول: أتروني لا أقدر أن أتخذ أكباداً وأفلاذاً وصلائق[4] وصناباً[5]. ألا تراه كيف أكله، ويستحسن معرفته.

---

(1) كدرها: جمعها.

(2) الحواري: الخبز الأبيض.

(3) الصباغ: الإدام.

(4) الصلائق: اللحم المشوي، وواحدتها صليقة.

(5) الصناب: إدام من الخردل والزبيب.

ثم يقول للذي يليه: أبا فلان ما إدامك؟ فيقول: الشبارقات[1]، والأخبصة[2]، والفالوذجات[3].

قال: طعام العجم، وعيش كسرى، ولباب بلعاب النحل، بخالص السمن. حتى أتى على آخرهم. كل ذلك يقول: بئس العيش هذا، ليس هذا عيش آل الخطاب. كان ابن الخطاب يضرب على هذا.

فلما انقضى كلامه أقبل عليه بعضهم فقال: يا أبا سعيد ما إدامك؟ قال: يوماً لبن، ويوماً زيت، ويوماً سمن، ويوماً تمر، ويوماً جبن؛ ويوماً قفار[4]؛ ويوماً لحم. عيش آل الخطاب.

قال أبو الأشهب: كان الحسن[5] يشتري لأهله كل يوم بنصف درهم لحماً. فإن غلا فبدرهم، فلما حُبِسَ عطاؤه كانت مرقته بشحم.

ليس عليه قطع الطريق

وتمشى رجلٌ إلى الغاضري قال: إن صديقك القادمي قد قطع عليه الطريق، قال: فأي شيء تريد؟ قال: أن تخلف عليه. قال: فليس عليه قُطِعَ الطريق، بل عليّ قَطِعَ!..

(1) الشبارقات: قطع صغيرة من اللحم مطبوخة.

(2) الأخبصة: أطعمة تصنع من التمر والسمن.

(3) الفالوذجات: حلواء تصنع من لباب القمح والعسل والسمن ويقال أيضاً (الفالوذق) وقد مر ذكر الكلمة.

(4) قفار: خبز بلا إدام.

(5) الحسن البصري.

نبذ من علم العرب في الطعام

قال عمرو الجاحظ: احتجنا عند التطويل، وحين صار الكتاب طويلاً كبيراً، إلى أن يكون قد دخل فيه من علم العرب وطعامهم، وما يتمادحون به وما يتهاجون به شيء، وإن قلَّ، ليكون الكتاب قد انتظم جُمل هذا الباب. ولولا أن يخرج من مقدار شهوة الناس، لكان الخبر عن العرب والأعراب أكثر من جميع هذا الكتاب.

الطعام ضروب، والدعوة اسم جامع، وكذلك الزلة[1]، ثم منه العُرس والخُرس والأعذار، والوكيرة، والمقيعة.

المأدبة:

المأدبة اسم لكل طعام دعيت إليه الجماعات. قال الشاعر:

نَحْنُ في المُشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفَلى[2] لا تَرى الآدِبَ فِينَا يَنْتَقِر[3]

وجاء في الحديث: (القرآن مأدبة الله).

وقد زعم ناس أن (العرس) هو (الوليمة) لقول النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن: (أَولِم ولو بشاةٍ).

وكان ابن عون والأصمعي من بعده يذمان عمرو بن عبيد، ويقولان: لا يجيب الولائم. يجعلان طعام الأملاك والأعراس والسُّبوع والخِتان وليمة.

والعرس معروف. إلا أن المفضَّل الضبي زعم أن هذا الاسم مأخوذ من قولهم: (لا عطر بعد عروس)، وكان الأصمعي يجعل العروس رجلاً

---

(1) الزلة: الإحسان.

(2) الجفلى: الدعوة عامة، ويقابلها (النقرى): الدعوة الخاصة.

(3) ومنها ينتقر: أي يخص بالدعوة ناساً معينين.

بعينه، كان بنى على أهله فلم يتعطر له، فسمي بعد لذلك كل بانٍ على أهله بذلك الاسم. ومثل هذا لا يثبت إلا بأن يستفيض في الشعر، ويظهر في الخبر.

الخرس:

وأما الخرس فالطعام الذي يُتخذ صبيحة الولادة للرجال والنساء. وزعموا أن أصل ذلك مأخوذ من الخرسة، والخرسة طعام النفساء.

قالت جارية ولدت حين لم يكن لها من يخدمها ويمارس لها ما يمارس للنفساء (تَخَرَّسي لا مخرّسة لك).

وفي الخُرْسة يقول مُساور الورّاق[1]:

إذا أسديةٌ ولدت غلاماً فبشرها بلؤمٍ في الغلامِ
تُخرِّسها نساءُ بني دُبيرٍ بأخبثِ ما يجدنَ من الطعامِ

وقال ابن القميئة[2]:

شرّكم حاضرٌ وخيركم د رّ خروس من الأرانب بِكر

فالخروس هي صاحبة الخُرسة.

الإعذار:

والإعْذَارُ طعام الخِتان، يقال: صبي معذورٌ وصبي مُعذَّر جميعاً. وقال بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وهو يريد تقاربهم في الأسنان: (كنا إعذارَ عامٍ واحد).

---

(1) مساور الوراق: شاعر كوفي من طبقة حماد عجرد. وفيه دعابة تلك الطالعة، وكان إلى جانب كونه شاعراً، متصلاً بالبيئات الدينية في الكوفة، وله شعر في مدح أبي حنيفة وهو نفسه يعد في المحدثين.

(2) ابن القميئة: هو عمرو بن قميئة بن ذريح البكري شاعر من أقدم الشعراء الجاهليين من عصر مهلهل بن ربيعة التغلبي. صحب امرأ القيس في رحلته إلى بلاد الروم ومات معه في طريقه، وسمته العرب عمراً الضائع لموته في غربة.

وقال النابغة:

فَنُكِحْنَ أبكاراً وهنّ بإمَّةٍ[1] أعجلنهنَّ[2] مَظِنَّة[3] الإعْذارِ[4]

فزعموا أنهم سمَّوا طعام الإعذار بالإعذار للملابسة والمجاورة.

كان الأصمعي يقول: قد كان للعرب كلام على معان، فإذا ابتُذلت تلك المعاني لم يتكلم بذلك الكلام. فمن ذلك قول الناس اليوم: ساق إليها صداقها. وإنما كان هذا يقال حين كان الصداق إبلاً وغنماً.

وفي قياس قول الأصمعي أن أصحاب التمر، الذين كان التمر دياتهم ومهورهم، كانوا لا يقولون ساق فلان صداقه، قال: ومن ذلك قول الناس اليوم: قد بنى فلان البارحة على أهله. وإنما كان هذا القول لمن كان يضرب على أهله في تلك الليلة قبته وخيمته، وذلك هو بناؤه، ولذلك قال الأول:

لو نزل الغيث لأبنين امرأ[5] كانت له قبة سحق[6] بجاد[7]

وكان الأصمعي يعدّ من هذا أشياء ليس لذكرها ها هنا وجه.

الوَكيرة:

ومن طعامهم الوكيرة، وهو طعام البناء، كان الرجل يطعم من يبني له وإذا فرغ من بنائه تبرَّك بإطعام أصحابه ودعائهم، ولذلك قال قائلهم:

خير طعامٍ شهدَ العشيرة العرس والإعذار والوكيرة

---

(1) الأمة: الخصب.

(2) أعجلنهن: أعجلن زواجهن.

(3) مظنة: موضع.

(4) الإعذار: أي وقته.

(5) أبنين امرأً: أي ابني له بيتاً.

(6) السحق: البالي.

(7) البجاد: الكساء القديم البالي. والمعنى أنني أعطيته بيتاً بدلاً من الخيمة المصنوعة من الكساء القديم.

النقيعة:

ويسمّون ما ينحرون من الإبل والجزر[1] من عُرْضِ[2] المغنم النَّقيعة.

قال الشاعر:

إنا لنضربُ بالسيوف رؤوسهم ضرب القدار[3] نقيعة القُدَّام[4]

العقيقة:

والعقيقة دعوةٌ على لحم الكبش الذي يعقُّ عن الصبيّ[5]. والعقيقة اسمٌ للشعر نفسه، والأشعار هي العقائق، وقولهم: عُقّوا عنه: أي احلقوا عقيقته. ويقولون: عقَّ عنه، وعقّ عليه. فسمي الكبش لقرب الجوار وسبب المتلبس عقيقة. ثم سموا ذلك الطعام باسم الكبش.

الملَّة والخبزة:

وكان الأصمعي يقول: لا يقولن أحدكم: أكلت ملَّةً. بل يقول: أكلت خُبزة. وإنما الملّة موضع الخُبزة.

وكذلك يقول في الرّاوية والمزادة. يقول: الرّاوية هو الجمل[6]، وزعموا أنهم اشتقوا الراوية للشِّعر[7] من ذلك.

الدعاء إلى الطعام:

فأما الدعاء إلى هذه الأصناف فمنه المذموم، ومنه الممدوح. فالمذموم النقرى، والممدوح الجفلى، وذلك أن صاحب المأدبة وولي الدعوة إذا جاء

---

(1) الجزر: واحدها جزور وهو ما يجزر من النوق والغنم.

(2) عرض الغنم: جانب الغنيمة قبل توزيعها.

(3) القدار: الجزار.

(4) القدام: القادمون من السفر.

(5) يعق عن الصبي: يذبح عند حلق شعر الصبي.

(6) الجمل: سمي الراوية؛ لأنه يحمل الماء للري (7) راوية الشعر: يروي الناس بالشعر.

رسوله، والقوم في أحويتهم[1] وأنديتهم، فقال: أجيبوا إلى طعام فلان، فجعلهم جفلة واحدة، وهي الجُفالة، فذلك هو المحمود.

وإذا انتقر قال: قمْ أنت يا فلان، وقم أنت يا فلان، فدعا بعضاً وترك بعضاً، فقد انتقر. قال العُذلي:

وليلةٍ يصطلي بالفرثِ جازرها يخصُّ بالنَّقرى المثرين داعيها

يقول: لا يدعو فيها إلا أصحاب الثروة وأهل المكافأة، وهذا قبيحُ. وقال في ذلك بعضُ ظرفائنا:

آثر بالجدي وبالمائدة من كان يرجو عنده العائِدة
لو كان مكوكان في كفّه من خردل ما سقطت واحدة[2]

وقال طرفة بن العبد:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر

ولما غزا بسطان بن قيس الشيباني مالك بن المنتفق الضبي، وأثبته[3] عاصم ابن خليفة الضبي، شدّ عليه فطعنه وهو يقول:

هذا وفي الجفلة لا يدعوني.

ويروي: في الجفلة لا يدعوني. كأنه حقد عليه حين كان يدعو أهل المجلس ويَدَعُهُ.

* * *

وقد يصيب القوم في باديتهم ومواضعهم من الجهد ما لم يُسمع به في أمة من الأمم. ولا في ناحية من النواحي. وإن أحدهم ليجوع حتى يشد على

---

(1) الأحوية: جماعة البيوت المتدانية، واحدها: حواء.

(2) المكوك: مكيال يستعمله أهل العراق.

(3) أثبته: أي تأكد من معرفته.

بطنه الحجارة، وحتى يعتصم بشده معاقد الإزار، وينزع عمامته من رأسه فيشدّ بها بطنه، وإنما عمامته تاجه. والأعرابي يجد في رأسه من البرد، إذا كان حاسراً، ما لا يجده أحد، لطول ملازمته العمامة، ولكثرة طيّها وتضاعف أثنائها. ولربما اعتمَّ بعمامتين، ولربما كانت على قلنسوة خدرية.

وقال مصعب بن عمير الليثي:

سيروا فقد جنّ الظلام عليكم   فبئس امرؤٌ يرجو القِرَى عند عاصم
دفعنا إليه وهو كالذيخ[1] حاظياً[2]   نشدّ على أكبادنا بالعمائم

وقال الراعي[3] في ذلك:

يشبّ لركب منهمُ من ورائهم   فكلّهم أمسى إلى ضوئها سرى
إلى ضوء نار يشتوي القدّ أهلها   وقد يكرم الأضياف والقدّ يُشتوى
فلمّا أناخوا واشتكينا إليهم   بكوا وكلا الخصمين ممّا به بكى
بكى معوزٌ من أن يُضاف وطارقٌ   يشدّ من الجوع الإزار على الحشا

ومما يدل على ما هم فيه من الجهد، وعلى امتداحهم بالأثرة، قول الغنوي[4]:

لقد علمتْ قيس بن عيلان أننا   نضارٌ، وأنّا حيث رُكِّب عودها
إذا الماء بعد اليوم يمذق[5] بعضه   ببعضٍ، ويُبلى شحُّ نفسٍ وجودُها

---

(1) الذيخ: الذئب.

(2) حاظياً: ماشياً.

(3) الراعي: هو عبيد بن حصين النميري يعده ابن سلام في الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين.

(4) الغنوي: أحد شاعرين لم يعنه الجاحظ: الأول: طفيل بن عوف، وكنيته أبو قران وهو شاعر جاهلي اشتهر بإجادة صفة الخيل، والثاني كعب بن سعد، أحد بني سالم بن عبيد شاعر إسلامي.

(5) يمذق: يخلط.

وأنَّا مقارٌ حين يبتكر الغضا[1] إذا الأرض أمست وهي جدبٌ جنودها[2]

وقال في ذلك العجير السلولي[3]:

من المهديات الماء بالماء بعدما رمى بالمقاري كل قارٍ ومعتم

وقال آخر في مثل هذا:

لنا إبلٌ يروين يوماً عيالنا ثلاثٌ فإن كثرن يوماً فأربع

نسدّهم بالماء لا من هوانهم ولكن إذا ما قل شيءٌ يوسع

على أنها يغشى أولئك بيتها على اللحم حتى يذهب الشرّ أجمع

من يستعن يعنه الله

وقال أبو سعيد الخدري[4]: أخذت حجراً فعصبته على بطني من الجوع، وأتيت النبي، صلى الله عليه وسلم، أسأله. فلما سمعته وهو يخطب: (من يستعفّ يعفّه الله، ومن يستعن يعنه الله). رجعت ولم أسأله.

أكل الذئبَ.. وادهّن، واحتذى

قال أعرابي: جعت حتى سمعتُ في مسامعي دويّاً، فخرجت أريغ[5] الصيد، فإذا بمغارة.. وإذا هو جرو ذئب.. فذبحته وأكلته، وادّهنت، واحتذيت.

---

(1) يبتكر الغضا: تؤخذ باكورته. والغضا: شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب، وجمره يبقى زمناً طويلاً لا ينطفئ.

(2) جنود الأرض: النباتات.

(3) العجير السلولي: هو أبو الفرزدق، العجير بن عبد الله بن بني سلول وهو من شعراء العهد الأموي.

(4) أبو سعيد الخدري: هو سعد بن مالك بن سنان، صحابي أنصاري، من الخزرج، وكان من أكثر الذين رووا عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وعاش إلى سنة 74 هـ.

(5) أريغ الصيد: أطلبه.

ولما قدم المغيرة[1] القادسية على سعد[2] بسبعين من الظهر[3]، وعند سعد ضيق شديد من الحال، نحروها وأكلوا لحومها، وادّهنوا بشحومها، واحتذوا جلودها.

يأكلون ما دبَّ ودرج

وقال مديني لأعرابي: أي شيء تدعون، وأي شيء تأكلون؟ قال: نأكل ما دبّ ودرج إلا أمّ حُبين[4].

فقال المديني: لتهن أمّ حبين العافية.

أنت له!..

وقال الأصمعي: تعرّق أعرابي عظماً، فلما أراد أن يلقيه – وله بنون ثلاثة– قال له أحدهم: أعطنيه. قال: وما تصنع به؟ قال: أتعرّقه حتى لا تجد فيه ذرة مقيلاً. قال: ما قلت شيئاً!..

قال الثاني: أعطنيه. قال: وما تصنع به؟ قال: أتعرقه حتى لا يُدرى ألِعامِهِ ذلك هو أم للعام الذي قبله، قال: ما قلت شيئاً!..

قال الثالث: أعطنيه. قال: وما تصنع به؟ قال: أجعله مُخّة إدامٍ، قال: أنت له!..

صفة القدور والجفان

ومما قالوا في صفة قدورهم وجفانهم وطعامهم ما أنا كاتبه لك، وهُم

---

(1) المغيرة: هو بن شعبة من أصحاب الرأي والدهاء في العرب، وكان يلقب بمغيرة الرأي، وتؤثر عنه محاورة مع رستم قائد الفرس في القادسية، وأخرى مع صاحب أصبهان، وهو أحد الشخصيات العربية البعيدة الأثر في تكوين الدولة الإسلامية.

(2) سعد: هو سعد بن أبي وقاص، أحد كبار الصحابة، قرشي، أحد العشرة المبشرين بالجنة، كما كان من الستة (أصحاب الشورى)، وهو فاتح العراق وبطل القادسية.

(3) الظهر: الإبل تستعمل للركوب وللحمل.

(4) أم حبين: وتسمى أيضاً (الجنية) دويبة عظيمة البطن تشبه سام أبرص وهو ما تسميه العامة (أبا بريص).

وإن كانوا في بلاد جدب، فإنهم أحسن الناس حالاً في الخصب، فلا تظنن أن كل ما يصفون به قدورهم وجفانهم وثريدهم وحيسهم باطل.

وحدثني الأصمعي قال: سألت (المنتجع بن نبهان[1]) عن خصب البادية فقال: ربما رأيت الكلب يتخطى الخُلاصة[2] وهي له مُعرضة، شبعاً.

وقال الأفوه الأودي[3]:

تهنا لثعلبة بن قيس جفنةٌ يأوي إليها في الشتاء الجُوَّعُ
ومذانِبٌ لا تُستعار وخيمةٌ سوداء عيبُ نسيجها لا يرقع[4]
وكأنما فيها المذانب حلقةٌ وذمُ الدِّلاء على دلوجِ يُنزَعُ[5]

وقال (معن بن أوس[6]) وهو يذكر قدر (سعيد بن العاص[7]) في بعض ما يمدحه:

أخو شتواتٍ لا تزالُ قُدورهُ يحلُّ على أرجائها ثم يرحلُ
إذا ما امتطاها الموقدون رأيتها لوشك قِراها وهي بالجزلِ تُشعلُ
سمعتَ لها لغطاً إذا ما تغطمطتْ كهدرِ الجِمالِ رزّماً حين تجفل[8]

---

(1) المنتجع بن نبهان: راوية كان علماء العراق يأخذون عنه، وقد ذكره الجاحظ في رسالة فضل السودان فقال:وكان المنتجع سندياً في أذنه خرتة، وقع إلى البادية وهو صبي، فخرج أفصح من رؤبة.

(2) الخلاصة (بضم الخاء وكسرها): ما خلص من السمن، ومنه خلاصة الكلام.

(3) الأفوه الأودي: هو صلادة بن عمرو بن مالك من كبار الشعراء القدماء في الجاهلية، وكان سيد قومه وقائدهم في حروبهم.

(4) المذانب: المغارف.

(5) الوذم: سيور تربط بها آذان الدلو مع خشبة معترضة.

(6) معن بن أوس: شاعر من فحول الشعراء المخضرمين، وقد عاش أكثر حياته في الإسلام، وهو من قبيلة مزينة.

(7) سعيد بن العاص: سري من سراة المدينة المشهورين، وقد ولي الكوفة في خلافة عثمان.

(8) تغطمطت: غلت، (رزماً): ساقطة من التعب والهزال.

ترى البازل الكوماء فيها بأسرها مقبضة في قعرها ما تحلحلُ[1]

كأن الكهولَ الشُّمْطَ في حجراتها تغطرشُ في تيارها حين يحفلُ[2]

إذا التطمتْ أمواجها فكأنها عوائذُ دُهْمٍ في المحلةِ قيَّل[3]

إذا احتدمت أمواجها فكأنما يزعزعها من شدّة الغلِّ أفكل[4]

تظلّ رواسيها ركوداً مقيمةً لمَنْ نابه فيها معاشٌ ومأكلُ

وقال (الكُمَيْتُ[5]) في صفة القِدْر:

إوز تغمَّسُ في لجّةٍ تغيبُ مراراً وتطفو مرارا

كأن الغطامط من غليها أراجيز أسلم تهجو غِفارا[2]

وأما ما ذكروا من صفات القدور، من تعبير بعضهم بعضاً، فهو كما أنشدني محمد بن تيسير، قال: لما قال الأوّل:

إن لنا قدراً ذراعين عرضها وللطول منها أذرع وشبار

قال الآخر:

وما هذه؟ أخزى الله هذه قدراً، ولكني أقول:

بوَّأت قِدري موضعاً فوضعتها برابية من بين ميثٍ[7] وأجرع[8]

---

(1) البازل الكوماء: الناقة الضخمة السنام.

(2) حجراتها: نواحيها. (تغطرش): تتغاضى عن الشيء.

(3) العوائذ: الحديثة النتاج من الإبل.

(4) الأفكل: الرعدة.

(5) الكميت: هو الكميت بن زيد بن خنيس الأسدي، شاعر كوفي أموي، من شعراء مضر وألسنتها. وكان معروفاً بالتشيع لبني هاشم، ويصفه الجاحظ، بأنه خطيب. وأشهر شعره (الهاشميات).

(6) الغطامط: صوت الغليان. (غفار): من كنانة.

(7) الميث: وأحداثها ميثاء وهي الرملة السهلة.

(8) الأجرع: الأرض الطيبة المنبت.

جعلت لها هضب الرجام[1] وطفخةً[2] وغولاً[3] أثافي[4] دونها لم تنزع
بقدرٍ كأن الليل سحمة قعرها ترى الفيل فيها طافياً لم يقطّع
يعجّل للأضياف واري[5] سديفها[6] ومن يأتها من سائر الناس يشبع

قال أبو عبيدة: ولما قال الفرزدق:

وقدر كحيزوم[7] النعامة أحمشت[8] بأجذال[9] خشبٍ زال عنها هشيمها

قال ميسرة أبو الدرداء: وما حيزوم النعامة؟!.. والله ما تُشبع هذه الفرزدق، ولكني أقول:

وقِدرٍ كجوف الليل أحمشت غليها ترى الفيل فيها طافياً لم يفصّل

وقال عبد الله بن الزبير[11] يمدح أسماء بن خارجة[12]:

ألم تر أن المجد أرسل يبتغي حليف صفاء وائتلى[12] لا يزايله

---

(1) الرجام وطخفة: جبلان.

(2) الرجام وطخفة: جبلان.

(3) غول: اسم موضع.

(4) أثافي: حجارة الموقد.

(5) واري: سمين.

(6) السديف: الشحم.

(7) الحيزوم: الصدر.

(8) أحمشت: أوقدت.

(9) الأجذال: واحدها جذل وهو أصل الشجرة.

(10) عبد الله بن الزبير: هو أبو كثير، عبد الله بن الزبير الأسدي، من أسرة معروفة بالشعر، وهو شاعر كوفي المنشأ والمنزل من شعراء الدولة الأموية، وكان من شيعة بني أمية، وأكثر شعره في أسماء بن خارجة الفزاري، ويعد من الشعراء الهجائين للناس والمرهوب شرهم. وهجا عبد الله بن الزبير بن العوام حين أسرف على أخيه عمرو بن الزبير في العذاب حتى مات في سجنه.

(11) أسماء بن خارجة: هو أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة الفزاري، سريٌّ من سراة الكوفة في القرن الأول. مات في عهد الحجاج.

(12) ائتلى: أقسم، حلف.

تخيّر أسماء بن حصنٍ فبطنتْ بفعل العُلى أيمانه وشمائله

ومما يجوز في هذا الباب، وإن لم يكن فيه صفة قدر، قول الفرزدق في (العُذافر بن زيد)، أحد بني تيم اللات بن ثعلبة:

لعمركَ ما الأرزاق يوم اكتيالها بأكثر خيراً من خوان العُذافِرِ

وَلَوْ ضافَهُ الدَّجَّالُ يلامس القِرى وحلّ على خبّازه بالعساكرِ

بعدّة ياجوج وماجوج جوّعا لأشبعهم شهراً غداءُ العُذافِرِ

والشعوبية والآزاد مردية[1] المبغضون لآل النبي، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه ممن فتح الفتوح، وقتل المجوس، وجاء بالإسلام، تزيد في جشوبة[2] عيشهم، وخشونة ملبسهم، وتنقص من نعيمهم ورفاغة[3] عيشهم، وهم من أحسن الأمم حالاً مع الغيث، وأسوأهم حالاً إذا خفّتِ السحاب، حتى ربما طبَّق الغيثُ الأرض بالكلأ والماء فعد ذلك يقول المصرم[4] والمقتر[5]: مرعى ولا أكولة، وعشب ولا بعير، وكلأ تيجع له كبد المصرم.

ولذلك قال شاعرهم:

وجنبتَ الجيوشَ أبا زنيب وجاد على مسارحك السحاب

وإذا نظرت في أشعارهم، علمتَ أنهم قد أكلوا الطيّبَ وعرفوه، لأن الناعم من الطعام لا يكون إلا عند أهل الثراء وأصحاب العيش، فقال زياد

---

(1) الآزاد مردية: ليس آزاد مرد اسم علم ولا لقباً لأشخاص معينين، بل هو تسمية فارسية للأرستقراطية الإيرانية، تسمية يفتخر بها أنصار الشعوبية، وآزاد مرد تعني الرجل النبيل بعيد الهمة.

(2) جشوبة: خشونة.

(3) رفاغة: نعومة، رفاهية.

(4) المصرم: الفقير الكثير العيال.

(5) القتر: البخيل، المضيق على عياله.

بن فياض يذكر الدرمك، وهو الحوّاري[1]:

ولاقت فتى قيس بن عيلان ماجداً   إذا الحرب هرتها[2] الكماة الفوارس

فقام إلى البرك[3] الهجان[4] بسيفه   وطارت حذار السيف دهم

فصادف حد السيف قباء[6] جلعدا[7]   فكاست[8] وفيها ذو غرارين[9] نائس[10]

فأطعمها شحماً ولحماً ودرمكا   ولم تثننا عنه الليالي الحنادس[11]

وقال جرير:

تكلفني معيشة آل زيد   ومن لي بالمرقق والصناب[12]؟!

وقال النمر بن تولب:

لها ما تشتهي: عسلٌ مصفّى   وإن شاءت فحواري بسمن

ومن أشرف ما عرفوه من الطعام، ولم يطعم الناس أحد منهم ذلك الطعام إلا عبدالله بن جدعان[13]، وهو الفالوذق، مدحه بذلك أمية بن أبي الصلت فقال:

---

(1) الدرمك والحواري: الخبز الأبيض.

(2) هرتها: كرهتها.

(3) البرك: الإبل إذا بركت.

(4) الهجان: صفة الإبل أي البيض.

(5) قناعس: طوال.

(6) قباء: الناقة النحيفة الدقيقة الخصر.

(7) جلعد: صلبة وقوية.

(8) كاست: مشت على ثلاث قوائم.

(9) ذو غرارين: أي سيف ذو حدين.

(10) نائس: متحرك. من ناس الشيء إذا تحرك.

(11) الحنادس: واحدتها حندس: وهي الليلة الشديدة الظلام.

(12) الصناب: إدام يتخذ من الخردل والزبيب.

(13) عبد الله بن جدعان: سري من سراة قريش في الجاهلية، تروى عنه أخبار كثيرة في الكرم، ويقال: أنه وفد على كسرى وأنه نقل عن الفرس طعام الفالوذج، فكان يصنعه في مكة ويطعمه الناس.

إلى ردحٍ[1] من الشيزى[2] عليها لباب البر يلبك بالشهاد[3]

ولهم الثريد. وهو في أشرافهم عام. وغلب عليه هاشم، حين هشم الخبز لقومه، وقد مدح به في شعر مشهور، وهو قوله:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون[4] عجاف[5]

ومن الطعام الممدوح الحيس. وتزعم مخزوم أن أول من حاس الحيس سويد بن هرمي. وقال الشاعر:

وإذا تكون شديدة أُدعى لها وإذا يحاس الحيس يدعى جندب

والخبز عندهم ممدوح، وكان عبد الله بن حبيب العنبري، أحد بني سمرة، يقال له (آكل الخبز) لأنه كان لا يأكل التمر، ولا يرغب في اللبن، وكان سيد بني العنبر في زمانه. وهم إذا فخروا قالوا: منا آكل الخبز ومنا مجير الطير، يعني (ثوب بن شحمة العنبري) وهم يقدمون اللحم على اللبن، ولذلك قال شاعرهم:

ولو أنها لم تدفع الرسل دمها رأى بعضها من بعض أنسابها دما

وليس يكون فوق عقر الإبل وإطعام السنام شيء. والعقر هو النجدة. واللبن هو الرسل. قال الهذلي[6]:

---

(1) ردح: عظيمة ويعني قصاع الطعام.

(2) الشيزى: خشب تصنع منه القصاع.

(3) الشهاد: العسل.

(4) مسنتون: مجدبون.

(5) عجاف: واحدها أعجف، وهو الهزيل والضعيف.

(6) الهذلي: هذا البيت الذي ينسبه الجاحظ للهذلي، ينسبه الأصفهاني إلى صخر بن عبد الله الخيثمي الهذلي، المعروف بصخر الغي، فالمقصود بالهذلي إذن، هنا هو (صخر الغي) هذا، وذكر الأصفهاني أنه لقب بها لخلاعته وشدة بأسه، وكثرة شره.

لو أن عندي من قريم رجلا لمنعوني نجدة أو رسلا

وقال الهذلي:

ألا إن خير الناس رسلا ونجدةً

وقد وصفوا الثريد فقال الراعي[1]:

فبات يعد النجم من مستحيرةٍ[2] سريعٌ على أيدي الرجال جمودها

وقال حسان بن ثابت:

ثريدٌ كأن السمن في حجراته[3] نجوم الثريا أو عيون الضَّياون[4]

وقال أبو الصلت بن أبي ربيعة[5]:

اشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقا في رأس غمدان[6] داراً منك محلالا[7]

وليس هذا من باب الإفراط. وباب الإفراط كقول (جران العود[8]) حين وصف نفسه وعشيقته فقال:

فأصبح من حيث التقينا غدية سوار وخاخالٌ ومرط[9] ومطرف[10]

ومنقطعات من عقود تركنها كجمر الغضا في بعض ما تتخطرف[11]

---

(1) الراعي: هو عبيد بن حصين النميري من الشعراء الإسلاميين. كان من رجال العرب ووجوه قومه.

(2) مستحيرة: مملوءة.

(3) حجراته: جوانبه.

(4) الضياون: واحدها، ضيون: وهو الهر.

(5) أبو الصلت بن أبي ربيعة: هو أبو أمية بن أبي الصلت، ويذكره أبو الفرج فيقول: إنه كان شاعراً.

(6) غمدان: حصن في جبل بصنعاء اليمن.

(7) محلالاً: الدار التي يكثر فيها الحلول.

(8) جران العود: شاعر جاهلي.

(9) المرط: كساء من الحرير أو الصوف.

(10) المطرف: رداء من الحرير.

(11) تتخطرف: توسع خطاها.

ومن ذلك قول عدي بن زيد[1]:

يا لُبينى أوقدي النارا إن من تهوين قد حارا

رب نارٍ بتُّ أرقبها تقضم الهندي[2] والغارا[3]

الصنف الثاني للطعام المذموم

قد ذكرنا الطعام الممدوح ما هو، وذكرنا أحد صنفي الطعام المذموم. والصنف الآخر كالخزيرة[4]، التي تعاب بها مجاشع بن دارم، وكنحو السخينة[5] التي تعاب بها قريش. قال خداش بن زهير[6]:

يا شدة[7] ما شددنا غير كاذبةٍ على سخينة لولا الليل والحرم

وقال عبد الله بن همام[8]:

إذاً لضربتهم حتى يعودوا بمكة يلعقون بها السخينا

وقال جرير:

وضع الخزير، فقيل: أين مجاشع فشحا[9] جحافلة عجفٌ[10] هبلع[11]

(1) عدي بن زيد: يصفه أبو الفرج أنه شاعر فصيح من شعراء الجاهلية وكان نصرانياً، وليس ممن يعد من الفحول، وقد اتصل بكسرى، وهو أول من كتب بالفارسية في ديوان كسرى.

(2) الهندي: البخور أو العود الهندي.

(3) الغار: الشجر المعروف.

(4) الخزيرة: مرقة النخالة المطبوخة.

(5) السخينة: طبيخ من الدقيق والماء أو اللبن ويؤكل بالتمر.

(6) خداش بن زهير بن ربيعة، من عامر بن صعصعة أحد الشعراء الفرسان في الجاهلية.

(7) الشذة: الهجوم.

(8) عبد الله بن همام: السلولي هو في الطبقة الخامسة من طبقات الشعراء الإسلاميين كما ذكره ابن سلام. وكان سرياً في نفسه وله همة تسمو به.

(9) شحا: فتح فاه.

(10) عجف: ثقيل غليظ.

(11) هبلع: أكول.

والخزير لم يكن من طعامهم، وله حديث. والسخينة كانت من طعام قريش. وتُهجى الأنصار وعبد القيس وعذرة وكل من كان بقرب النخل بأكل التمر، فقال الفرزدق:

لست بسعدي على فيه حبرةً[1] ولستُ بعبدي حقيبته التمر

لحم الناس ولحم الكلاب

وتُهجى أشد بأكل الكلاب، وبأكل لحوم الناس، والعرب إذا وجدت رجلاً من القبيلة قد أتى قبيحاً ألزمت ذلك القبيلة كلها. كما تتدح القبيلة بفعل جميل، وإن لم يكن ذلك إلا بواحدٍ منها.

فتهجو قريشاً بالسخينة، وعبد القيس بالتمر، وذلك عام في الحيين جميعاً. وهما من صالح الأغذية والأقوات.

كما تهجو بأكل الكلاب والناس، وإن كان ذلك إنما كان من رجل واحد، ولعلك إذا أردت التحصيل تجده معذوراً قال الشاعر:

يا فقعسي[2] لِمَ أكلته لمه؟ لو خافك الله عليه حرمه

فما أكلت لحمه ولا دمه

وقال حسان فيهم:

إن سرك الغدر صرفاً لا مزاج له فأت الرجيع[3] وسل عن دار لحيان

قوم تواصوا بأكل الجار بينهم فالشاة والإنسان سيان

وهجيت بذلك أسد جميعاً، بسبب (رملة بنت فائد بنت حبيب[4] بن

---

(1) حبرة: صفرة الأسنان.

(2) فقعسي: نسبة إلى فقعس، حي من أحياء العرب.

(3) الرجيع: ماء لقبيلة هذيل.

(4) فائد بن حبيب: ذكره المرزباني قال: (كوفي إسلامي معروف) ولم يزد.

خالد بن نضلة) حين أكلها زوجها وأخوها (أبو أرب)، وقد زعموا أن ذاك إنما كان منهما من طريق الغيظ والغيرة فقال (ابن دارة[1]) ينعي ذلك عليهم:

أفي أن رويتم واحتلبتم شكيكم[2] فخرتم؟ وفيم الفقعسي من الفخر؟
ورملة كانت زوجة لفريقكم وأخت فريقٍ، وهي مخزية الذكر
أبا أربٍ، كيف القرابة بينكم، وإخوانكم[3] من لحم أكفالها العجر[4]؟

وقال:

عدمت نساءُ بعد رملة فائد بني فقعس، تأتيكم بأمان
وباتت عروساً ثم أصبح لحمها جلا[5] في قدور بينكم وجفان

وقال البراء بن ربعي[6]، أخو مضرس بن ربعي، يعيِّر صلتاً، وهو أخوه، فقال:

يا صلت إن محل بيتك منتن فارحل فإن العود غير صليب
وإذا دعاك إلى المعاقل[7] فائد فاذكر مكان صدارها[8] المسلوب

---

(1) ابن دارة: هو عبد الرحمن بن مسافع بن دارة – ذكره أبو الفرج – من شعراء الإسلام، من غطفان. وقد أكثر في هجاء بني أسد؛ لأنها أخذت نديمه «السمهري العكلي» وكان متهماً في حادث قتل، فبعثت به إلى الوالي فقتله.

(2) الشكي: جلد صغير يحلب فيه اللبن.

(3) الإخوان: الخوان.

(4) العجر: واحدها أعجر، وهو السمين.

(5) جلا العروس، إذا زفها: أي مزفوفاً.

(6) البراء بن ربعي: شاعر إسلامي، كما يقول المرزباني عن أخيه مضرس أن له خبراً مع الفرزدق.

(7) المعاقل: واحدها معقلة: وهي الدية، الغرامة.

(8) المصدار: ما تلبسه المرأة على صدرها.

والآن، فادع أبا رجال[1] إنها شنعاء لاحقة بأم حبيب

وأبو رجال هذا عمها، وقال في ذلك معروف الدبيري:

إذا ما ضفت ليلاً فقعسيا فلا تطعم له أبداً طعاما

فإن اللحم إنسانٌ فدعه وخيرُ الزاد ما منع الحراما

ينبح طلباً للطعام

والأعرابي إذا أراد القرى ولم ير ناراً، نبح، فيجاوبه الكلب، فيتبع صوته، ولذلك قال الشاعر:

ومستنبح أهل الثرى[2] يطلب القرى إلينا، وممساه من الأرض نازح[3]

وقال الآخر:

عوى حدس[4]، والليل مستحلس[5] الندى لمستنبحٍ، بين الرميثة والحضر[6]

ويدلُّك على أنه ينبح وهو على راحلته لينبحه الكلب قول حميد الأرقط:

وعاوٍ عوى، والليل مستحلس الندى وقد ضجعت للغور[7] تالية النجم[8]

فمنهم من يبرز كلبه ليجيب، ومنهم من يمنعه ذلك، قال زياد الأعجم وهو يهجو بني عجل:

وتكعم[9] كلب الحي من خشية القرى وقدرك كالعذراء من دونها ستر

(1) أبو رجال: عم القتيلة، كما ورد في النص.

(2) أهل الثرى: أهل الكرم والخير.

(3) نازح: بعيد الدار.

(4) حدس: اسم كلب.

(5) مستحلس الندى: دائم الأمطار.

(6) الرميثة والحضر: موضعان.

(7) ضجعت للغور: أي مالت للغروب.

(8) تالية النجم: أراد بها الثريا.

(9) يكعم كلبه: يشد فاه.

وقال آخر:

نزلنا بعمار فأشلى[1] كلابه علينا، فكدنا بين بيتيه نؤكل
فقلت لأصحابي أسرُّ إليهم: إذا اليوم أم يوم القيامة أطول؟

وقال آخر:

أعددت للضيفان كلباً ضاريا عندي، وفضل هراوة من أرزن[2]

وقال أعشى بني تغلب[3]:

إذا حلت معاوية بن عمرو على الأطواء[4] خنقت الكلابا

وقال في خلاف ذلك حسان بن ثابت:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

وقال المرار الحماني في كلبه:

ألف الناس فما ينبحهم من أسيفٍ[5] يبتغي الخير وحر

وفي أنس الكلاب بالناس، لطول الرؤية لهم، شعر كثير، وقال الشاعر:

يا أم عمرو أنجزي الموعودا وارعي بذاك أمانة وعهودا
ولقد طرقت كلاب أهلك بالضحى حتى تركت عقورهن رقودا

---

(1) أشلى كلابه: دعاها ليغريها بنا.

(2) الأرزن: نوع من الشجر الصلب تتخذ منه العصي.

(3) أعشى تغلب: شاعر إسلامي، شارك في الحروب التي كانت بين قيس وتغلب.

(4) الأطواء: واحدها طوي: البئر.

(5) أسيف: لا يكاد يسمن.

يضربن بالأذناب من فرح بنا متوسداتٍ أذرعاً وخدودا

وقال ذو الرمّة[1]:

رأتني كلاب الحي حتى ألفنني ومدت نسوج العنكبوت على رحلي

وقال هلال بن جعشم:

إني لعف عن زيارة جارتي وإني لمشنوء[2] إلى اغتيابها
إذا غاب عنها بعلها لم أكن لها زؤوراً[3] ولم تأنس إلي كلابها
وما أنا بالداري[4] أحاديث بيتها ولا عالمٌ من أي حوك[5] ثيابها

وفي معنى الكلب من النباح، يقول ابن أعيا[6] في الحطيئة:

ألا قبح الله الحطيئة إنه على كل ضيفٍ ضافه فهو سالح
دفعت إليه وهو يخنق كلبه ألا كل كلبٍ، لا أبا لك، نابح
بكيت على مذقٍ[7] خبيث قريته[8] ألا كل عبسي على الزاد نائح

صفة أبواب أهل الثروة

وقد قالوا في صفة أبواب أهل المقدرة والثروة، إذا كانوا يقومون بحق

---

(1) ذو الرمة: هو أبو الحارث غيلان بن عقبة بن نهيس، شاعر مضري، إسلامي، بدوي، عده ابن سلام في شعراء الطبقة الثانية من الإسلاميين، وشعره بدوي الديباجة يصنعه على غرار الشعر الجاهلي. وكان ذو الرمة في عهد الخصومة بين جرير والفرزدق وكان هواه مع الفرزدق، وقد شرح ابن سلام موقفه شرحاً كافياً.

(2) مشنوء: مبغض.

(3) الزؤور: الكثير الزيارة.

(4) الداري: العارف.

(5) حوك الثوب: نسجه.

(6) ابن أعيا: هو صخر بن أعيا الأسدي، أحد بني أعيا بن طريف بن نصر بن قعين، كما يذكره أبو عبيدة، فيما يروي أبو الفرج، والأبيات الواردة هنا قالها ابن أعيا رداً على شعر قاله الحطيئة، بعد أن سقاه شربة لبن.

(7) المذق: اللبن الممزوج بالماء.

(8) قريته: قدمته قرى للضيف.

النعمة، قال الراجز:

إن الندى حيث ترعى الضغاطا[1]

وقال الآخر:

يزدحم الناس على بابه والمشرع[2] السهل كثير الزحام

وقال الآخر:

وإذا افتقرت رأيت بابك خاليا وترى الغنى يهدي لك الزوّارا

وليس هذا من الأول. إنما هذا مثل قوله:

ألم تر بيت الفقر يهجر أهله وبيت الغنى يُهدى له ويُزار؟

وهذا مثل قوله:

إذا ما قل مالك كنت فردا وأي الناس زوار المقلّ؟

العرب تفضل الكسوب الطلوب

والعرب تفضل الرجل الكسوب، والغر الطلوب[3]، ويذمون المقيم الفشل[4]، والدثور[5] الكسلان، ولذلك قال شاعرهم، وهو يمدح رجلاً:

شتى مطالبه، بعيدٌ همه جواب أوديةٍ، برود المضجع[6]

ومدح آخر نفسه فقال:

فإن تأتياني في الشتاء وتلمسا مكان فراشي، فهو بالليل بارد

وقال آخر:

---

(1) الضغاط: الزحام.

(2) المشرع: الطريق.

(3) الغر الطلوب: الشاب العامل.

(4) الفشل: الضعيف.

(5) الدثور: الخامل، الكسلان.

(6) برود المضجع: أي أن فراشه بارد، لا ينام فيه، فهو يسافر دائماً.

إلى ملكٍ لا ينقض النأي عزمه خروجِ تروكٍ للفراش الممهد

وقال الآخر:

فداك قصير الهم يملأ عينه من النوم، إذ ملقى فراشك بارد

وقال آخر:

أبيض بسام برودٌ مضجعه اللقمة الفرد مراراًً تشبعه

أصحاب النيران وأصحاب الأخماد

وهم يمدحون أصحاب النيران، ويذمون أصحاب الأخماد. قال الشاعر:

له نار تشب بكل ريح إذا الظلماء جللت اليفاعا[1]

وما إن كان أكثرهم سواما ولكن كان أرحبهم ذراعا[2]

وقال مزرد بن ضرار[3]:

فأبصر ناري وهي شقراء أوقدت بعلياء نشزٍ[4]، للعيون النواظر

جعلها شقراء ليكون أضوأ لها، وكذلك النار إذا كان حطبها يابساً كان أشد لحمرة ناره، وإذا كثر دخانه قلّ ضوءه.

وقال الآخر:

ونارٍ كسجر[5] العود يرفع ضوءها مع الليل، هبات الرياح الصوارد[6]

---

(1) اليفاع: واليفع: كل ما ارتفع من الأرض.

(2) أرحبهم ذراعاً: أي أكرمهم.

(3) مزرد بن ضرار: هو يزيد بن ضرار، شاعر جاهلي من غطفان، وهو أخو الشماخ، ويصفه المرزباني بأنه هجاء خبيث اللسان، ويشهد بهذا شعره الذي جاء في المفضليات في هجاء زرع بن ثوب في القصيدة التي أولها:

ألا يـــا لقـــومي، والســـفاهة كاســـمها أعائـــدتي مـــن حـــب ســـلمى عوائـــدي

وقد أدرك الإسلام وأسلم، وهو يعد في الصحابة.

(4) النشز: المكان العالي.

(5) السجر: الإيقاد.

(6) الصوارد: الباردة.

وكلما كان موضع النار أشد ارتفاعاً كان صاحبها أجود وأمجد لكثرة من يراها من البعد، ألا ترى النابغة[1] الجعدي حين يقول:

منع الغدر فلم أهمم به وأخو الغدر إذا همّ فعل

خشية الله وأني رجلٌ إنما ذكري كنار بقبل[2]

وقالت خنساء السلمية[3]:

وإن صخراً لتأتمُّ الهداة به كأنه علمٌ في رأسه نار

* * *

وليس يمنعني من تفسير كل ما يمر إلا اتكالي على معرفتك، وليس هذا الكتاب نفعه إلا لمن روى الشعر والكلام، وذهب مذاهب القوم، أو يكون قد شدا منه شدواً حسناً.

أيمانهم الكريمة دليل كرمهم

ومما يدل على كرم القوم أيمانهم الكريمة وأقسامهم الشريفة، قال

(1) النابغة الجعدي: أبو ليلى، حبان بن قيس بن عبد الله، من بني جعدة بن كعب، من عامر بني صعصعة. شاعر مخضرم، يعد في الصحابة، ويبدو أن معظم شعره قاله في الإسلام. ويروي أبو الفرج عن أبي عبيدة أنه كان ممن فكَّر في الجاهلية، وأنكر الخمر والسُّكر، وهجر الأوثان والأزلام، وكان يذكر دين إبراهيم والحنيفية.

وكان في البصرة في ولاية أبي موسى الأشعري عليها، ووقع بينه وبينه شر، فهجاه. ولما خرج علي بن أبي طالب عليه السلام إلى صفين خرج معه، وقال الشعر يمدحه. وبعد مقتل علي واستقامة الأمر للأمويين لم يصانعهم، وإنما يروى أنه جاهر معاوية بالخصومة. فسيره معاوية إلى أصبهان مع أحد ولاتها، فمات فيها.

أما شعره من الناحية الفنية، فتروى فيه كلمة للفرزدق، قال: «كان صاحب خلقان، عنده مطرف بألف، وخمار بوافٍ».

(2) القبل: ما ارتفع من الأرض واستقبلك.

(3) خنساء السلمية: هي تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الثريد، يعدها ابن سلام في طبقة= =شعراء المرائي، وقد اشتهرت بمراثيها التي فاقتها في أخويها: صخر الذي قتلته بنو أسد، ومعاوية الذي قتلته بنو مرة بن غطفان. وهي أم عباس بن مرداس الشاعر المخضرم. ولها ديوان شعر مطبوع.

معدان بن جواسٍ الكندي[1]:

إن كان ما بُلِّغتَ عني فلا مني   صديقي وحزت من يدي الأنامل
وكفنت وحدي منذراً في ردائه   وصادف حوطاً من أعادي قاتل

وقال الأشتر مالك بن الحارث[2]، في مثل ذلك أيضاً:

بقيت وحدي وانحرفت عن العلى   ولقيت أضيافي بوجهٍ عبوس
إن لم أشنَّ على ابن حربٍ[3] غارة   لم تخل يوماً من نهاب نفوس
خيلاً كأمثال السعالي[4] شذباً[5]   تعدو ببيض في الكريهة شوس[6]
حمي الحديد عليهم فكأنه   لمعانُ برقٍ أو شعاع شموس

وقال ابن سيحان[7]:

حرام كنتي[8] منى بسوء   وأذكر صاحبي أبداً بذام[9]
لقد أحرمت ود بني مطيع   حرام الدهن للرجل الحرام[10]
وخزهم الذي لم يشتروه   ومجلسهم بمعتلج الظلام[11]

---

(1) معدان بن جواس الكندي: شاعر مخضرم نزل الكوفة، وكان نصرانياً فأسم في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقام الزبير بن العوام بأمره، فمدحه. وهذا الشعر الذي رواه الجاحظ من شعره في الجاهلية للنعمان بن المنذر يتبرأ لديه مما اتهم به من أنه أنذر تميماً حين أراد النعمان أن يغير عليها، فهزمته.

(2) الأشتر: أحد قادة الإمام علي عليه السلام وهو شاعر خطيب، وبطل شجاع.

(3) ابن حرب: يعني معاوية.

(4) السعالي: واحدتها سعلاة وهي أنثى الغول.

(5) الشذب: المتفرقة.

(6) الشوس: واحدها أشوس وهو المتكبر.

(7) ابن سيحان: عبد الرحمن بن سيحان بن أرطأة، كان مع بني أمية كواحد منهم.

(8) يحرم على نفسه أن تصاب كنته بسوء منه.

(9) الذام: الذم.

(10) الحرام: المحرم في الحج.

(11) معتلج الظلام: شبه الظلام بالبحر الذي تتلاطم أمواجه.

وإن جنف الزمان مددت حبلاً متيناً من حبال بني هشام
وريق عودهم أبداً رطيبٌ إذا ما أغبرَّ عيدان اللئام

الفهرس